

## الكتاب الثاني في الحياة الأدبية

### الباب الأول في الشعر

#### الفصل الأول ازدهار الشعر

عُرِفَ الفاطميون بثناء دولتهم، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم، وافتنوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم، حتى يُحْيَلُ إلى مَنْ يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادًا ومواسم، وكلها لهوًا ومرحًا، بالرغم مما كان في هذا العصر من سني شدة وقحط ضُرب بها المثل؛ ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعيادًا بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين، والأعياد التي يحييها مسيحيو مصر، ويشارك معهم فيها إخوانهم المسلمون. فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه، حتى لو كان ذلك عن طريق المجون وارتكاب المعاصي، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالًا يتناسب مع عظم ملكهم، واتساع سلطانهم، ووفرة خيراتهم وأموالهم، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لونها من ألوان التنافس السياسي بينهم وبين أعدائهم، فيقف أعداؤهم

على هذه الحياة البهيجة الفريحة، والنفقات الطائلة؛ فيعلمون أنهم أمام دولة قوية غنية، فتضعف هممتهم عن مهاجمتها.

أمّا هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر؛ فقد روى المقرئزي عن ابن الطوير المؤرخ: أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد: مولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد فاطمة بنت الرسول، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الحاضر<sup>(١)</sup>.

وفي فصل آخر من خطط المقرئزي تحدّث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعيادًا ومواسم، فقال: وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم، وهي موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد علي بن أبي طالب، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد فاطمة الزهراء، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسهاط رمضان، وليلة الحتم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النوروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس<sup>(٢)</sup>. وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة، فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة، وفي جامع الحاكم مرة، وفي جامع عمرو بن العاص مرة، وينال الناس من الخليفة في هذه الجُمع الثلاث رسومًا وهبات وصدقات<sup>(٣)</sup>.

(١) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٢٩٣.

(٢) الخطط: ج ٢، ص ٣٨٤ وما بعدها.

(٣) الخطط: ج ٢، ص ٣٩٢.

وأضاف أيضًا أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبت وثلاثاء إلى متنزهاته بالبساتين والمناظر التي بنوها لنزهاتهم<sup>(١)</sup>، ويوم سفر الحاج<sup>(٢)</sup>، وركوب الخليفة في أول شهر رمضان<sup>(٣)</sup>. وتحدث المقرئ في كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهر رجب وشعبان، وليليتي النصف منهما<sup>(٤)</sup>، فكل هذه الأيام التي كان يحتفل بها الفاطميون، سواء كانت أيام حزن مثل عاشوراء، أو أيام فرح تُمدُّ فيها السمط الفاخرة، ويُنفق فيها عن بذخ وإسراف، ويصيب رجال الدولة وكل من يتصل بالقصر من النعم والخلع، كل بما يتناسب مع مكانته، وينال الشعب الذي يشارك أمراءه في أفراحهم وأحزانهم حظًا مما كان يغدقه الخلفاء والأمراء عليه، فإذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التي استنَّها الفاطميون، وقد يطول بي الحديث لو توخَّيتُ وصف هذه الحفلات الكثيرة، وأكتفي هنا بأن أعطي صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم، نقلًا عن المقرئ عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون في وصف موسم أول العام:

وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسة، وبادرَ المستخدمون في الخزائن وصناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقربته وأرباب الصنائع والمستخدمات، وجميع الأستاذين العوالي والأدوان، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، واستأذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، والأصحاب والخواشي والأمراء والضيوف والأجناد، فأمروا بتفرقته، والذي اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كان قبلها. وجلس المأمون باكراً على السباط بداره، وفرقت الرسوم على أرباب

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٨٩.

(٤) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٤٥.

الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية، وتسلم كل المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجة ومصفات العساكر، وترتيب الأسمطة، وأصمد كل منهم إلى شغله، وتوجه لخدمته، ثم ركب الخليفة، واستدعى الوزير المأمون، ثم خرج من باب الذهب، وقد نشرت مظلته، وخدمت الرهجية، ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله، وجميع تجار البلدين من الجوهريين والصيارف والصاغة والبزازين وغيرهم وقد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعايشه لطلب البركة بنظر الخليفة، وخرج من باب الفتوح، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزياها، وأبواب حارات العبيد معلقة بالاستور، ودخل من باب النصر، والصدقات تعم المساكين، والرسوم تُفَرَّق على المستقرين، إلى أن دخل من باب الذهب، فلقى المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدهاليز إلى أن دخل خزانة الكسوة الخاص، وغير ثياب الموكب بغيرها، وتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة، وعبيت الأسمطة وجرى الحال فيها، وفي جلوس الخليفة، ومن جرت عادته، وتهيئة قصور الخلافة، وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر.

وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال في الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها، كذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء، وبعدهم الشعراء على طبقتهم، وعادت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكير والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينعم به ويتصدق، ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد

المندوبين، ويحمل إلى الثغور، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويباع في الثغور والبلاد... إلخ<sup>(١)</sup>.

هذه صورة ما نقله المقرئزي على المؤرخين المعاصرين عمّا كان يجري تحت بصرهم وسمعهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون، ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تكن أعياد الخلفاء والأمرء ورجال القصر فحسب؛ بل كانت أعياد الشعب أيضًا بما كان يُقدّم فيها من الصدقات والسمط، فإذا الشعب يشارك الحاكمين، ويناله شيء من بذخ الفاطميين، فإذا هو في فرح وبشر، ولا يكاد يمضي عيد حتى يلحقه آخر.

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم، ويتنافسون في الإجابة والإتيان، وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في الدول الأخرى، فلا غرابة إن قلنا: إنَّ هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع ازدهار الشعر في العصر الفاطمي، وموضوعًا من موضوعاته، حتى أن عمارة اليميني في قصيدته التي رثى بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد والمواسم فقال:

حال الزمان عليها وهي لم تحل  
واليوم أوحش من رسم ومن طلل  
تشكو من الدهر حيفًا غير محتمل  
ورث منها جديدٌ عندهم وبلي  
يأتي تجملكم فيه على الجمل  
فيهن من وبل جود ليس بالوشل  
يهتز ما بين قصر يكم من الأسلي  
مثل العرائس في حلي وفي حليل<sup>(١)</sup>

أبكي على ما تراءت من مكارمكم  
دار الضيافة كانت أنس وافدكم  
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم  
وكسوة الناس في الفضلَيْن قد درست  
وموسم كان في يوم الخليج لكم  
وأول العام والعيدين كم لكم  
والأرض تهتز في يوم الغدير كما  
والخيل تعرض في وشي وفي شية

(١) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٣١٣، ٣١٤.

ولعل هذه الصورة التي صوّرها الشاعر عمارة اليميني لحفلات وأعياد الفاطميين تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغني.

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية، ولكننا نرى الفاطميين يكثرون من المباني والمنشآت التي أقاموها في البلاد، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار منها من الأدلة التي نستطيع أن نقدّمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة، فهذه البساتين التي جمّلوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها، ولم تُتخذ متنزهاً لهم فقط دون غيرهم من الرعية؛ بل أباحوا للناسي دخولها والتمتع بمناظرها وجوها، فأوجد ذلك عند المصريين لوناً من ألوان الحياة الناضرة البهيجة، وسَمَتِ النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معاً. ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى المتنزهات جزءاً هاماً من مقومات حياتهم، وهناك كانوا يقصفون ويطربون، وينعمون بجمال الرياض وأريج الأزهار، وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض جماعات يتطارحون الشعر، ويتبارون في الإنشاد، يستوحون من جمال الزهر والطبقة وحي شعرهم، فإذا صحّ ما رواه القدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستلهام الشعر، فكذلك خرج شعراء مصر إلى البساتين يتغنون ببدايع الطبيعة، فكانت هذه المتنزهات والبساتين التي أكثرَ منها الفاطميون مصدراً خصباً لكثير من الشعر المصري في العصر الفاطمي.

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف، وكان سكان مصر على حظٍّ من الثراء والغنى، يحسدهم عليه العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطانهم، وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب مما يملكون من مال ومتاع

ورقيق، مما كان يحملهم إليهم الدعاة من مال الخمس<sup>(١)</sup> وأموال النجوى، ومن هدايا الأمراء في المشرق، وكان الوزراء يتشبهون بالأئمة في الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعة، وافتنَّ الشعب في التشبه بأمرائهم وحكامهم، فظهروا بمظهر صاحب الثروة، واتخذوا من الحياة أهبجها، ومن الزينة واللباس أزهاها، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقيان، وإقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب، حتى خيَّلَ إلينا أن حياة المصريين كانت حياة هُوٍ وقصف وسماع غناء وألحان، فكان ذلك كله وحيًا للشعراء بالقريض.

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أن القائمين على شؤون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام، واصطنعوا كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء، وكان الفاطميون على قدرة وكياسة في فن السياسة، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللأحزاب السياسية والفرق الإسلامية بعد ظهور الإسلام، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان أبي حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحقي وغيرهما، أدخلوا في شعرهم بعض الآراء الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين، فلم يَشَأْ الفاطميون أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يُشهره على خصومهم، أو أن يستخدموه في الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم، فلا غرو أن وجدنا الفاطميين يبذلون العطاء الضخم الجسيم لشعراء دولتهم، ويجعلون لبعض الشعراء مرتبات شهرية. وينقل المقرئزي عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية

(١) راجع كتاب «الهمة في آداب اتباع الأئمة»، (من مطبوعات دار الفكر العربي).

من عشرين دينارًا إلى عشرة دنانير<sup>(١)</sup>. ويروي أيضًا أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم المطلق للمتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم<sup>(٢)</sup>، ومعنى هذا أنَّ الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب خاصة غير ما كان يُعطى لهم شهريًا. ويحدثنا المقرئ مرة أخرى في كلامه عن بركة الحبش أنه كان بها طاقات، وعليها صور الشعراء، كل شاعر واسمه وبلده، وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كُتِب عليها قطعة من شعر الشاعر في المدح، وعلى الجانب الآخر رُف لطيف مذهَّب، وأن الخليفة الأمر بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار، أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون دينارًا، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده<sup>(٣)</sup>.

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متنزهات عامة؛ مما يدل دلالة قاطعة على تمجيد لفن الشعر والشعراء، فأين نحن من مصر في العصر الفاطمي؟!

ويذكر العماد في «الخريدة» أنَّ الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة «مقدم الشعراء»، ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن جريز<sup>(٤)</sup>. وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرًا جيدًا في مدح

(١) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٢٤٣.

(٢) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٢٩٠.

(٣) خطط المقرئ: ج ١، ص ٤٨٦.

(٤) الخريدة: ورقة ١٠٢ أ.

الأئمة. ويحدّثنا عمارة اليميني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار<sup>(١)</sup>.

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم؛ لأن الشعراء لسانٌ من ألسُن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الإكثار من الإنشاد؛ فكثرت الشعراء وكثرت إنتاجهم، واستغلّ الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم، حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه الأئمة، واستبد الوزراء بالملك، فقد طُلب إلى الشاعر أبي عبد الله مسلم أن ينظم «السيرة المصرية»، وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك، فسأل أن يجري له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء، فزيد نصف دينار، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالي سنة ٥٤٠ هـ بقوله:

جرى الحديث فقالوا كل ذي أدبٍ	أضحت له خمسة تجري بمقدارٍ
بأي فضل حوَاه ابن المسلم من	دون الجماعة حتى زيد في الجاري
أجرُوا له خمسة عن حق سيرته	فقال: لا تنقصوني حقَّ أشعاري
نادوا عليه وسوق الشعر نافقة	فلم يزد قدرها عن نصف دينار <sup>(٢)</sup>

وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء في تثبيت أركان دولتهم، حتى في وقت ضعف سلطانهم.

(١) النكت: ص ٣٤.

(٢) الخريدة: ورقة ١٠٢ أ.

## شعر الأئمة:

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرّون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التي تجب العناية بها، ويقدرها كل من نال حظاً من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس؛ بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين مَنْ كان ينشد الشعر، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبان غزواته، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للمنصور بالله، منها:

تبدلت بعد الزعفران وطيبه	صدا الدرع من مستحكات السوامر
ألم ترني بعد المقامة بالسرى	ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم	يثورون ثورات الأسود الخوادر
أروني فتى يغني غنائي ومشهدي	إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد	بسيّفي أقدم الهام تحت المغافر <sup>(١)</sup>

ومن شعر المنصور بالله أيضاً يخاطب ابنه وولي عهده المعز لدين الله:

كتابي إليك من أقصى الغروب	وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوي الرمال	وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله	وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن برى السير أجسامنا	وكل الركاب وتاه الدليل
فوا غربتاه ووا وحشتاه	وفي الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعاً ولكنني	نهضت بقلب صبور حمول
وقد منّ ذو العرش من فضله	بفتح مبين وعز جليل
وفي كل يوم من الله لي	عطاء جديد وصنع جميل
فله حمد على ما قضى	وحسبي ربي ونعم الوكيل <sup>(٢)</sup>

(١) سيرة الأستاذ جوذر، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٢) سيرة الأستاذ جوذر، (نسخة خطية بمكتبتي).

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادي منها إلى فن الشعر، فالقطة الأولى من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسي ملك ناصية الفن في اللفظ والمعنى، فهو يختار اللفظ الذي يتلاءم في موسيقاه مع المعنى الذي يقصده الشاعر، فيلذ الأذن والعقل معاً، ولكن القطة الثانية، فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها يعث حين يدعي أنه يقول شعراً.

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً، وينسب إليه هذه الأبيات:

لله ما صنعت بنا	تلك المهاجر في المعاجر
أمضى وأقضى في النفوس	من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت ببيئكم	تعب المهاجر في الهواجر <sup>(١)</sup>

فهذه الأبيات إن دلت على شيء فهي تدل قبل كل شيء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد فتن بهذه الملاءمة اللفظية بين «المهاجر» و«المعاجر» وبين «أمضى» و«أقضى»، وبين «الشناجر» و«الشناجر»، وبين «المهاجر» و«الهواجر»، ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الأبيات، فإن خيال الشاعر كان قوياً في تعبيره عما تفعله العيون التي تحتفي تحت المهاجر، ولكنها تصيب هدفها، وتفعل في النفوس أكثر مما تفعله الشناجر في الشناجر.

وكذلك ينسب القدماء إلى المعز لدين الله هذه الأبيات:

أطلع الحسن من جبينك شمساً	فوق ورد في وجتتك أطلا
وكأن الجمال خاف على الور	دجفاً فمد بالشعر ظلاً <sup>(٢)</sup>

(١) ابن خلكان: ج ٢، ص ١٠٣.

(٢) ابن خلكان: ج ٢، ص ١٠٣.

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن، فهو يصف جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحببة إلى النفس، فهي كالورد المتفتح قد غمرته الشمس، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور، فخشي أن يذبل الورد من حرارة الشمس، فظله بخصلة من شعر الحبيب، فالصورة هنا لا شك جميلة، ولا غرو أن رأينا القدماء قد فُتِنُوا بها حتى قال ابن خلكان: «إنَّ هذا معنى غريب بديع»<sup>(١)</sup>. ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الأبيات إلى المعز لدين الله كما روى ابن خلكان، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي الفحل؛ إذ ورد في الخريدة أن ظافرًا قال:

أطلع الشمس من جبينك بدر      فوق ورد من وجتتك أطلاً  
فكأن العذار خاف على الور      دجفأ فمَدَّ بالشعر ظلاً<sup>(٢)</sup>

لست أدري لمن أنسب البيتين، فربما حاكى ظافر الإمام المعز، فأخذهما عنه بعد أن غيَّر بعض الألفاظ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيتين إلى المعز عندما أرادوا إثبات شاعريته، ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن إياس تحدَّث أيضًا عن شعر المعز فقال: «كان المعز عاقلاً حازماً لبيباً فصيحاً شاعراً، وله شعر جيد؛ من ذلك قوله:

ما بان عذري فيه حتى عذرا      وبدا البنفسج فوق ورد أحمر  
همَّتْ بقبلته عقارب صدغه      فاستلَّ ناظره عليها خنجرا<sup>(٣)</sup>

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر، وعُرف به، وكذلك كان ابنه العزيز بالله نزار، وابنه المعروف بالأمر تميم. يقول أبو المحاسن عن العزيز:

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) الخريدة: ورقة ٨٧ ب.

(٣) تاريخ ابن إياس: ج ١، ص ٤٨.

«كانت لديه فضيلة، وله شعر جيد»<sup>(١)</sup>. وروى الثعالبي في يتيمة قول العزيز - وقد وافقَ بعض الأعياد وفاة ابنه، وعقد المآتم عليه-:

نحن بنو المصطفى ذوو محن      يجرعها في الحياة كاظمنا  
عجيبة في الأنعام محتنا      أولنا مبتلى وخاتمنا  
يفرح هذا الوري بعيدهم      طرّاً وأعيادنا مآتمنا<sup>(٢)</sup>

فالشاعر في هذه الأبيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفين وحزن كمين، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب؛ بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم، ويُخيل إليّ أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت العزيز لأن يقول:

ولما رأيت الدين رثت حباله      وأصبح مححو الضيا والمعالم  
وأصبحت الأغنام من كل أمة      تسوم عباد الله خزم المخاطم  
وتحكّم في أموالها ودمائها      بغير كتاب الله عند التحاكم  
غضبت لدين الله غضبة ثائر      غيور عليها مانع للمحارم  
وسيرت نحو الشرق بحر كتائب      تموج بأبطال رجال قمام  
يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا      وبالمشرفيات الرقاق الصوارم  
أنا ابن رسول الله غير مدافع      تنقلت في الأنوار من قبل آدم  
لي الشرف العالي الذي خضعت له      رقاب بني حواء من كل عالم  
بنا فتحت أبواب كل هداية      ومنا بحمد الله (خير الخواتم)  
فقلّ لبني العباس مع ضعف ملكهم      بأنهم أسرى بأيدي الأعاجم  
غصبتم بني مروان ما غصبوه من      مواردنا، سحقا لظالم ظالم  
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد      ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم

(١) النجوم: ج ٤، ص ١٢١.

(٢) اليتيمة: ج ١، ص ٢٢٣، والنجوم الزاهرة: ج ٤، ص ١١٣.

سنسقيكم كأسا كما قد سقيتم أوائلنا، والله أعدلُ حاكم<sup>(١)</sup>

ففي هذه الأبيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه، شديد العداوة لمن خالفه من العباسيين، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم، شديد الفخر بنسبته إلى الرسول الكريم، وهو في ذلك كله لا ينسى عقائده المذهبية التي كان إمامها، فأشار إلى أنه تنقل في الأنوار من قبل آدم، فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين؛ وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلق السماوات والأرض، وأن هذا النور تنقل في الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب، فقسم الله هذا النور قسمين؛ قال لأحدهما: كُنْ يا هذا محمداً، ويا هذا كُنْ علياً. وأن هذا النور تجمّع مرة أخرى بزواج علي من فاطمة بنت الرسول، وتنقل في الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله، فكان العزيز ووجد قبل آدم؛ لأن النور الذي حلّ به ووجد قبل آدم<sup>(٢)</sup>.

وكان الحاكم بأمر الله شاعراً أيضاً، وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة:

دَع اللوم عني لست مني بموثق      فلا بدّ لي من صدمة المتحنق  
وأسقي جيادي من فرات ودجلة      وأجمع شمل الدين بعد التفرّق<sup>(٣)</sup>

ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الأمر، وكذلك المقرئ<sup>(٤)</sup>. وعندني في المجموعة الخطية عدة أبيات للحاكم، ولكن هذه الأبيات ضعيفة في صناعتها وفي معناها، ويظهر فيها الانتحال، ويُخيل إلى

(١) ورقة ٦٣ من مجموعة أشعار إسماعيلية، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٢) راجع المجالس المؤيدية في مواضع شتى، وما كتبناه عن ذلك في مقدمة ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

(٣) النجوم: ج ٤، ص ١٩٦.

(٤) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٢٧٠.

وَيُحَيَّلُ إِلَيَّ أَنْ قَائِلُهَا هُوَ أَحَدُ أَتْبَاعِ الْمَذْهَبِ الَّذِينَ لَا يَحْسِنُونَ صِنَاعَةَ الشَّعْرِ،  
وَالْأَبْيَاتُ هِيَ:

إِذَا مَا انْقَضَى لِبَسِ السَّوَادِ أَتَيْتَكُمْ      بِأَبْيَضٍ مِنْ فَوْقِ الدَّمَاءِ يَفُورُ  
عَلَى أَشْقَرٍ يَغْلِي إِذَا مَارَكْتَهُ      وَلَا صَحِبْتَ رَجُلِي بَعْدَ حَمِيرِ  
وَأَجْلَسَ عَادَتِي كَمَا كُنْتُ قَبْلَ ذَا      وَيَخْتَالُ بِي مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَزِيرٌ<sup>(١)</sup>

ويحدثنا ابن بسام في الذخيرة أن الشاعر الواساني، هجا يوسف بن علي المشرف على دمشق أيام الحاكم، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يوماً: أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن النشيد<sup>(٢)</sup>. فهذا يدل على أن الحاكم كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون النشيد.

وتكاد تُجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعراً مبدعاً، وأنه كان متمكناً من إنشاد الشعر يرتجله في المناسبات، ويجيب عن بعض الرسائل التي كانت ترد عليه بالشعر. يروي صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠هـ إلى الوزير ابن كدينة، وطالبوا الوزير بالمال، فقال لهم الوزير: «وأي مال بقي عندي بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاعات». فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأرسلها إلى الإمام، فأجاب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه:

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَقِي      إِلَّا إِلَهِي وَلَهُ الْفَضْلُ  
جَدِي نَبِيٍّ وَإِمَامِي أَبِي      وَقَوْلِي التَّوْحِيدَ وَالْعَدْلُ<sup>(٣)</sup>

(١) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأشعار الإسماعيلية.

(٢) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: ص ٦٩ من القسم الرابع، المجلد الأول.

(٣) النجوم: ج ٤، ص ٨١، وينسبها ابن منجب الصيرفي في كتابه الإشارة ص ٢٩ إلى الحاكم بأمر الله. أمّا ابن خلدون فينسبها في تاريخه ج ٤ ص ٧١، إلى الأمر بأحكام الله.

ففي هذين البيتين يظهر الألم الشديد الذي كمن في نفس الإمام لما حلَّ به وحق بالبلاد إبان الشدة العظمى المعروفة في التاريخ، والبيت الثاني يذكرنا بما نسمعه عند دفن الموتى بما يُعرف بتلقين الأموات، فلعل المستنصر أراد أن يتهمك بمن جاء يطالبه بالأموال، فأجاب بما يُلقن به الموتى. فهو يسخر بهؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن، فالعقدة النفسية التي كانت عند المستنصر، هي التي جعلته يسخر ويتهمك على هذا النحو.

ومما يُروى عن المستنصر أيضًا أنَّ المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي بعد أن عاد سنة ٤٥٠ هـ إلى القاهرة، منعه الوزير ابن المغربي من لقاء المستنصر، فأخذ المؤيد يرسل إليه الكتب والرسائل، وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد:

أقسم لو أنك تَوَجَّتني      بتاج كسرى ملك المشرق  
وأنتلنتني كلَّ أمور الورى      من قد مضى منهم ومَن قد بقي  
وقلت أن لا نلتقي ساعة      أجبت يا مولاي أن نلتقي  
لأن إيعادك لي ساعة      شيبَ فودي مع المفرق  
فلما بلغت الرقعة التي فيها هذا الشعر إلى المستنصر أجاب عليها بخطه:

يا حجة مشهورة في الورى      وطود علم أعجز المرتقى

ما غلقت دونك أبوابنا      إلا لأمر مؤلم مقلق  
خفنا على قلبك من سمعه      فصَدُّنا صدَّ أبٍ مشفق  
شيعتنا قد عدموا رشدهم      في الغرب يا صاح وفي المشرق  
فانشر لهم ما شئت من علمنا      وكُنْ لهم كالوالد المشفق  
إن كنت في دعوتنا آخرًا      فقد تجاوزت مدى السبق

مثلك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى<sup>(١)</sup>  
وُنسب إليه قصيدة وردت في مجموعة أشعار الإسماعيلية مطلعها:

كفي ملامك يا ابنة الغمر مابال وفر أيبك من وفر<sup>(٢)</sup>  
ولكنني أرى هذه القصيدة موضوعة، وُنسبت إلى المستنصر، فأكتفي الآن  
بالإشارة إليها.

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى علي بن محمد الصليحي باليمن؛ ولكن مَنْ يَطَّلِع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه الرسائل لا تصدر عن الإمام؛ إنما تصدر عن كتابه، وقُلَّ أن نجد خليفة من خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله، إنما كان ذلك عمل كتاب ديوان الإنشاء، ونحن نشك في نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر، ونرجح أنها كُتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن، وأن كاتبها أحد الدعاة في اليمن، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحثٍ آخر<sup>(٣)</sup>.

ويقول صاحب النجوم عن الأمر بأحكام الله: «كان للأمر نظم ونظر في الأدب»<sup>(٤)</sup>. وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حيناً إلى الحاكم، وحيناً آخر إلى الأمر، كما ذكرنا من قبل. وينسب ابن ميسر إلى الأمر قوله:

أما والذي حجت إلى ركن بيته  
لأقتحمن الحرب حتى يقال لي  
وينزل روح الله عيسى بن مريم  
جراثيم ركبان ومفلعة شهباً  
ملكك زمام الحرب فاعتزل الحربا  
فيرضى بنا صحباً ونرضى به صحباً<sup>(٥)</sup>

(١) انظر: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة.

(٢) ورقة ٦٣ ب.

(٣) السجلات المستنصرية، نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن.

(٤) ج ٤، ص ١٨٢.

(٥) تاريخ مصر، لابن ميسر: ص ٧٣.

وينسب طائفة البهرة إلى الأمر بأحكام الله رسالة تُعرف «بالهداية الأمرية في إبطال الدعوة النزارية»، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظي، وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للأمر في الحقيقة، وربما كانت لأحد كتّابه، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاد، وربما كان الأمر هو الذي أوصى بها<sup>(١)</sup>.

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر، فلا غرو أن رأيناهم يقربون الشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويلتفُّ الشعراء حولهم ويتنافسون بين أيدي أمرائهم في الإنشاد، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره.

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم - أي في القسم الأول من العصر الفاطمي - ينشدون الشعر ويقربون الشعراء، كان بعض الوزراء في عهد غلبة الوزراء في مصر ينشد الشعر ويثيب عليه، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا كل شيء في الدولة؛ فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم، حتى أن الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمي كانوا يذكرون بجانبه الوزير، ويطنبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام. ويروي المقرئ أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية، ولا فيما قبلها على الشعر جار، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أنشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف<sup>(٢)</sup>؛ إذ كان الأفضل مجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا، وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس، من كل لون اثنين، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار، في كل ظرف خمسة آلاف، فمن هذه الظروف كان يغدق عطايه

(١) الهداية الأمرية، تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظي، (من مطبوعات جمعية الدراسات الإسلامية بالهند).

(٢) الخطط: ج ٢، ص ٣٧٥.

على الشعراء الذين كانوا يقصدونه، ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إنشادًا للشعر وتجنبًا إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيق، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئًا كثيرًا، ولكن هذه الأشعار كلها فُقدت، ولم يَبْقَ منها إلا شذرات، وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيق بن الصالح الذي وصفه عمارة اليميني بقوله: وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويثبت عليه<sup>(١)</sup>، فسوق الشعر قد ازدهرت في عهد الوزراء كما كان مزدهرًا في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد.

### ضیاع الشعر الفاطمي:

وكانت الحياة في مصر الفاطمية - كما رأينا جانبًا منها - تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فنٍّ من فنون الشعر، وكل موضوع من موضوعاته، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية؛ فضياع الشعر ولم يَبْقَ منه إلا النزر اليسير، أو قُلٌّ: لم يبق إلا اسم الشاعر أحيانًا إن قُدِّرَ لاسمه البقاء، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجنائتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمدهم أن يمحوا كل أثر أدبي يمت للفاطميين بصلة، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر؛ خوفًا من أن يكون بالشعر مديح للأئمة، وهو كفرٌ بزعمهم. وها هو ذا كاتب الأيوبيين العماد الأصفهاني عندما أراد أن يجمع في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة، قال عن ابن الضيف داعي الأمر وشاعره: «وكنت عازمًا لفرط غلوه على حطه؛ لأنه أساء شرعًا وإن أحسن شعرًا، بل أظهر فيه كفرًا؛ ولكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفرًا؛ لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر، ويقصده البر والفاجر، ويحمل الغناء كما

يحمل الدر»<sup>(١)</sup>. وقال عن ظافر الحداد: أقول ظافر، بحظ من الفضل ظاهر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله غافر<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك لم يروِ العماد لهما شيئاً في مدح الأئمة، فقد تعمّد العماد الأصفهاني أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته، وتبعه في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين، فضاع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبي.

أضف إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر، ولا سيما في عهد المستنصر بالله، إبان المحنة الكبرى، وفي الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في أواخر العصر الفاطمي، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكُتِب العلماء، حتى أن الشاعر عمارة اليمني عندما أراد أن يذكر لنا شيئاً من شعره في مدح طي بن شاور قال: فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليج<sup>(٣)</sup>. ولم يتذكر منه شيئاً يرويه، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمي نفسه؛ إذ سببت زوال دولة الفاطميين، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضاً، وإلا فحدثني عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كلس، وأين ديوان ابن حيدر العقيلي؟<sup>(٤)</sup> وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري، وكان ديوانه في مجلدين؟<sup>(٥)</sup> وأين ديوان أبي الحسن بن مطير؟<sup>(٦)</sup> وديوان ابن الشخباء أستاذ القاضي الفاضل<sup>(٧)</sup>، وديوان الملك الصالح بن

(١) الخريدة: ورقة ٥٣ ب.

(٢) الخريدة: ورقة ٥٠.

(٣) النكت: ص ١٢٧.

(٤) المغرب: ص ٥٢.

(٥) الخريدة: ورقة ١٩ أ.

(٦) الخريدة: ورقة ١١٤ أ.

(٧) الخريدة: ورقة ١١٤ أ.

رزيك<sup>(١)</sup>، وديوان القاضي الرشيد بن الزبير<sup>(٢)</sup>، وديوان أخيه المهذب بن الزبير<sup>(٣)</sup>، وديوان ابن الضيف، وديوان ظافر الحداد الذي وصفه أحد معاصريه، وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن الفزاري بقوله: «وله ديوان شعر مشهور، وبالجملة له مشهود»<sup>(٤)</sup>. وأين ديوان الفقيه الصوفي ابن الكيزاني؟ وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد؟ وأين مقطوعات ابن الصياد في أنف ابن الحباب؟ فقد قيل: إن ابن الحباب كان كبير الأنف، وكان ابن الصياد مولعاً بأنفه وهجاه بأكثر من ألف مقطوعة<sup>(٥)</sup>. وأين شعر أولاد الكنز بأسوان؟<sup>(٦)</sup> وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف بابن بشرون التي صنّفها سنة ٥٦١، وسماها: «المختار في النظم والثر لأفاضل أهل العصر»، وأين مجموعة شعراء ابن رزيك؟<sup>(٧)</sup> وأين كتاب جنان الجنان للمهذب بن الزبير الذي صنّفه سنة ٥٥٨هـ، وجمع فيه أشعار شعراء مصر، وذيل به اليتيمة؟ وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود ابن القاضي الموفق إسماعيل بن أحمد الدميّاطي المعروف بابن قادوس، وكان من أمثال المصريين وكتّابهم مقدماً عند ملوكهم؟<sup>(٨)</sup>

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر الفاطمية، وإنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر، لنعرف مدى هذه

(١) الخريدة: ورقة ٣٢ ب.

(٢) الخريدة: ورقة ٣٦ أ.

(٣) الخريدة: ورقة ٣٦ ب.

(٤) الخريدة: ورقة ٥٩ ب.

(٥) الخريدة: ورقة ٦٨ أ.

(٦) الخطط: ج ١، ص ٣٢٠.

(٧) الخريدة: ٦٨ ب.

(٨) ابن ميسر: ص ٩٧.

الخسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لضياع هذه الثروة الأدبية المصرية، ولندل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها، خصبة في شعرها.

هناك جناية أخرى ارتكبتها الثعالبي والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئاً من الشعر، فعمدوا إلى عدة أبيات من قصيدة، ولم يدوّنوا كل القصيدة، فقد اكتفوا بمقطوعة من بيتين أو أكثر لكل شاعر، وقَلَّ أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب، مما جعلنا لا نستطيع أن نكون حكمًا صحيحًا على فن الشاعر من هذه المقطوعات التي رُويت له؛ لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية، واتسعت ثقافته الأدبية، وارتقى ذوقه الأدبي، لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة، أو بقصيدة واحدة من ديوان، وإلا كُنَّا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرًا على شاعر بيت شعر قاله. فهؤلاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه.

ومهما يكن من شيء، فإن بين أيدينا الآن بعض آثار حياة الشعر في العصر الفاطمي، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبًا في إنتاج الشعر، بحيث استطاع شعر مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى عصوره وصوره، فالعوامل التي تحدثت عنها، والآثار التي وصلتنا، وما قاله الرواة عن شعر مصر، كل ذلك يجعلنا نقول: إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية، ويتطور هذا التطور الذي نلمسه في العصر الفاطمي.

## الفصل الثاني الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهباً دينياً خاصاً يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقهم، ولا يفهمها غيرهم، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوي في شعر مصر الفاطمية؛ ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التي صبغها المذهب على الأئمة، ويتعمد الشاعر أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته، وكلما أمعن الشاعر في استخدام هذه المصطلحات، وإدخال هذه الصفات في شعره ازدادت قيمة الشاعر عند الأئمة وكبار رجال الدعوة، وكثر عطاؤه وزاد جاريه؛ فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن.

وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام؛ ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء، فإذا كانت كتب الدعوة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم، فالشعر يختلف عن ذلك كله، فإنه يسير بين الناس ويرويه الرواة، فإذا سمع مستمع إلى تلك الأبيات التي زحرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له إمام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية، فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه، وقد رأينا كيف وصف العماد الأصفهاني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية، ونقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هانئ الأندلسي، وما وُصف به من شدة

الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملةً، فلو كان هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هانئ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراه الشاعر وقصد إليه، لرأيناهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر، وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي ملئ بالعقائد، والذي قيل في مدح الأئمة، ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة، وديوان الأمير تميم بن المعز، وقصيدة في مدح العزيز، وكانت هذه النصوص في مكاتبات رجال البهرة بالهند.

ففي مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله، وهي لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله، وتُنسب هذه القصيدة أحياناً إلى المؤيد في الدين<sup>(١)</sup>، وتُنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالإسكندراني<sup>(٢)</sup>، ولكنني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد؛ لأنَّ العزيز بالله أقدم عهداً من المؤيد في الدين، وأنَّ المؤيد لم يمدح العزيز مطلقاً، إنما مدح الظاهر والمستنصر، وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد، ولم يمدح غيرهما من الأئمة، أضف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد.

أمَّا الإسكندراني الذي تُنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئاً، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو: هذه قصيدة الإسكندراني رحمه الله في مدح الإمام العزيز بالله قدس الله روحه، وهي الموسومة بذات الدوحة<sup>(٣)</sup>.

(١) A Guide to Ismaili Literature. P. ٤٩

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية المرموز إليها (ق)، راجع ديوان المؤيد.

(٣) ورقة ٦٦ ب.

قلت: إنَّ هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي؛ ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «أهل بيتي شجرة؛ أصلها ثابت، وفرعها في السماء». وقول النبي أيضًا: «أنا شجرة، وفاطمة حملها، وعليُّ لقاحها، والحسن والحسين ثمرتها، ومحبونا أهل البيت ورقها، حقًّا حقًّا أن يكونوا معنا في الجنة»<sup>(١)</sup>. وأمثال هذين الحديثين. فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعًا وفروعًا على مثال الشجرة، وسمى قصيدته ذات الدوحة، وأودعها كثيرًا من المصطلحات والعقائد الفاطمية، والقصيدة هي:

فلست بغير الحق والصدق أنطق  
وفي الجيد عهد للإمام موثق  
بهم يحرم الله الأنام ويرزق  
وأنوار هذا الحق من قبل يخلق  
وعصيانهم كفر إلى النار موبق  
هم الغاية القصوى التي ليس تلحق  
ولم يك في الدنيا ضياء ورونق  
وباليمين والتقوى تظل وتسبق  
وتحيي من الموت الجهول وتطلق  
بمكنون علم الله فالدين مونق  
وفوق الثريا فرعها متعلق  
ففي كل عصر نورها يتألق  
بغير أبي المنصور لو كان يلق

سئمت من البين الذي ليس يصدق  
أأمدح رهطًا غير رهط محمد  
ولا فضل لي في ذابل الفضل فضل من  
أئمة دين الله مذ قام دينه  
محبتهم فرض على الناس واجب  
هم العروة الوثقى، هم منهج الهدى  
ولولا هم لم يخلق الله خلقه  
هم دوحة الدين التي تثمر الهدى  
تجير من الأيام من يستظلها  
سقاها غمام الوحي علمًا فأينعت  
جرت في تحوم المحكمات عروقها  
هم الأصل منها والأئمة فرعها  
إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن

(١) يروي الشيعة هذه الأحاديث، ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤيدية، وفي كتاب بحار الأنوار، وغيرهما.

تكاد لها صم الجنادل تورق  
 وبحر سماح بالندى يتدفق  
 لقد قام بالدين العزيز الموفق  
 فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق  
 ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق  
 ونشر الثناء الطيب للطيب يعبق  
 فكل على مقدره يتشوق  
 ولا مضمراً إلا بشكره ينطق  
 إذا عدَّ فضل فهو بالفضل يسبق  
 لها أغصن في وزنه حين تبسق  
 ولكنها مع ذاك لا تتفرق  
 على كل حرف منه بيت مفلق  
 لعمري به من سائر الخلق أليق  
 وما ناح في الأيك الحمام المطوق

فباهت على الأيام أيامه التي  
 سحائب جود لا يغيب غمامها  
 لئن فقد الناس المعز لدينه  
 تجددت الدنيا علينا بيمينه  
 ولا الجود ممنوع ولا المجد حامل  
 توضع نشر العدل في كل بلدة  
 ملأت قلوب العارفين محبة  
 فلا صامت إلا بحبك ناطق  
 فضائل مولانا العزيز جليلة  
 غرست على بيت من الشعر دوحه  
 فألفت من بيت بيوتاً كثيرة  
 فسبع وسبع عن يمين ويسرة  
 بمدح أمير المؤمنين لأنها  
 عليه صلاة الله ما لاح كوكب



الدين تلاه دورٌ آخر لسبعة آخرين، وقد يكون ذلك أيضًا لأن المعز كان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاعبه في شكل القصيدة باطنيًا؛ وهو باطني أيضًا في المعاني التي قصد إليها، ففي مدحه لإمامه أمَلت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته، وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضًا): «بك أثيب وبك أعاقب»<sup>(١)</sup>. فهذه الصفات تنطبق أيضًا على مثل العقل وهم الأئمة<sup>(٢)</sup>، فيثيب الله مَنْ أطاع الأئمة، ويعاقب مَنْ خالفهم. وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقل نور الله منذ بدأ خلقه إلى أن حلَّ هذا النور في إمام العصر<sup>(٣)</sup>، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة، وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾. وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي خصَّ به الأئمة دون غيرهم، وأن هذا العلم هو الذي يحيي موتى النفوس، ويجلو غياهب الشك، ثم يتحدث الشاعر بعد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين، وهي العقيدة التي تقول: إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى؛ بل لعبادته وتوحيده، ولكن الفاطميين خالفوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد؛ ذلك أن العبادة عندهم لا تُقبل إلا بموالاتة الأئمة من أهل البيت، فكأنَّ العالم

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخاري قول النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: أقبَل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر»، فقال: بعزتي وجلالي ما خلقت خلقًا هو أعز عليّ منك، بك أثيب وبك أعاقب...».

(٢) راجع «نظرية المثل والمثول».

(٣) راجع قصيدة الإمام العزيز في الفصل السابق.

لم يُخلق إلا من أجل الأئمة الذين بهم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله، فالشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شيء، عرف عقائده فاتخذ هذه العقائد وسيلة لمدح الإمام، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره.

وها هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله، الذي نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة، وأخ لإمام من أئمتهم، كان شاعرًا من أكبر شعراء عصره، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حُفِظت في ديوانه، وقد استطعنا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية، ويلم في شعره بعقائد أسرته، فهو يقول مرة للعزیز بالله:

وإني لميقاته موسى على قدر  
فزانها بضروب الروض والزهر  
روح من القدس في جسم من البشر  
تناهياً جاز حد الشمس والقمر  
خلق الهيولي ويسط الأرض والمدر  
وأنت لله فيهم خير مؤتمر  
وأنت خيرته الغراء من مضر  
مثوى وكنت ملك الأنجم الزهر  
بأنها عنك في عجز وفي حصر<sup>(١)</sup>

جئت الخلافة لما أن دعتك كما  
كالأرض جاد عليها الغيث منهملاً  
ما أنت دون ملوك العالمين سوى  
نور لطيف يتناهى منك جوهره  
معنى من العلة الأولى التي سبقت  
فأنت بالله دون الخلق متصل  
وأنت آيته من نسل مرسله  
لو شئت لم ترصّ بالدنيا وساكنها  
ولو تفاظنت الأبواب فيك درت

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك؛ لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كثيف ترابي، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل -الذي سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضاً- وبها أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولي، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ٥٨، (نسخة خطية بمكتبتي).

إليه سبحانه، فكذلك الإمام الذي هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة، وهو متصل بالله تعالى؛ لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى. وأن الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد؛ لأن ممثوله العقل هو آية الله الكبرى، وهكذا يستمر الأمير تميم في استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح شقيقه الإمام العزيز بالله، بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا المديح دون التوصل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والمثول. انظر إليه وهو يمدح الإمام:

فيا بن الوصي ويا بن البتول      ويا بن نبي الهدى المصطفى  
ويا بن المشاعر والمروتين      ويا بن الخطيم ويا بن الصفا<sup>(١)</sup>

فهو يصف الإمام بمعانٍ باطنية، فمناسك الحج في التأويل الباطن هي محمد صلى الله عليه وسلم، وبما أن الوصي والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته، ويكرر هذا المعنى في أكثر قصائده، كقوله:

وابن الصفا والحجر وابن الهدى      وابن نبي الهدى وابن الكتاب<sup>(٢)</sup>

فبجانب هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر، نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب، والكتاب هو القرآن، وفي التأويل الباطن أن القرآن والزبور والتوراة والإنجيل هي مثل، والمثول هو الوصي. يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية: «فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب الكريم، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه أفضل الصلاة والتسليم - لأنه في زمانه قرين القرآن، القرآن قرينه، وإنما يسمى الكتاب قرآنًا لاقترانته بالعترة، يبين ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني تارك

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ٥٥أ.

(٢) ديوان تميم: ورقة ١٨ب.

فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ اللَّهِ وَعَتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي؛ فَإِنَّهُمَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ». «فَالْقُرْآنُ قَرِينٌ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْأُئِمَّةِ الطَّاهِرِينَ»<sup>(١)</sup>.

ومرة أخرى يمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول:

يا حجة الرحمن عند عباده      وشهابه في كل أمر مشكل  
من لم يكن في صومه متقرباً      بك للإله فصومه لم يقبل<sup>(٢)</sup>

فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض، وهو معنى من المعاني الباطنية، وصفة من صفات الأئمة<sup>(٣)</sup>، ويقول أيضاً: إن الإمام هو النور الذي يبين للناس ما غمض عليهم، ويوضح ما أشكل، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة الفاطميين التي تقول: إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا باتباع المنصوص عليه من أهل البيت، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة؛ لأن الولاية -كما قلنا- هي محور عقيدة الفاطميين، ويكرّر هذا المعنى الأخير في قوله:

وأنت أنت المصطفى الملك الذي      بطاعته من رينا نتقرب  
ولولاك كان الملك في غير أهله      وكان على أفق الشريعة غيب  
عليك صلاة الله ما طلع الضحى      وما حن للأوطان من يتغرب<sup>(٤)</sup>

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية في شعره، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معانٍ إذا طبقنا «نظرية المثل والممثل».

(١) كتاب المجالس المستنصرية: ص ٢٩.

(٢) ديوان تميم: ورقة ١٣١ ب.

(٣) راجع ما كتبناه عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد داعي الدعاة.

(٤) ديوان تميم: ورقة ١٧ أ.

ولعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي هو أول شاعر في هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره، فإذا شعره كله متأثر بالعتيدة الفاطمية؛ فالشاعر جعل كل قصائده التي في هذا الديوان في مدح الأئمة، ولم يتناول موضوعاً آخر من موضوعات الشعر، وملاً قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية، حتى أني لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلاً في الأدب الفاطمي؛ بل في الأدب العربي كله، فنحن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعري من كتب العقائد الفاطمية، ولا غرو في ذلك، فالمؤيد لم يكن شاعراً متكسباً بشعره مثل غيره من الشعراء، ولم يكن شاعراً من الشعراء الذين تستهويهم حياة المجون والقصف واللهو، إنما كان عالماً من علماء الدعوة، بل كان إليه مرتبة داعي الدعوة، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعاً إلى رفع شأنه، فليس غريباً أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم، وأن يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس، فإذا أنشد شعراً فيتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته.

ولذلك ترى هذه الأشعار الكثيرة التي ضمها ديوانه مُلئت علماً وتأويلاً، انظر إليه يقول في إحدى منظوماته التي وضعها «لكاسرة» مخالفي مذهبه:

ما النون يا صاح ترى والكاف	فالخلق در وهما أصداف
إن الذي ظنهما حرفي هجا	مستوجب من ذي الحجا كل هجا
هل كافل بالأرض والسماء	يا عمي حرفان من الهجاء
تفهموا يا قوم ما الحرفان	إن نجاة المرء بالعرفان
ما فاعل العالم كالمفعول	كلا، ولا الحامل كالمحمول
والكاف والنون اللذان انتظما	صنع الإله منهما والتحما
وعنهما يأتلف الوجود	لمن هو المشاهد الموجود
أنى يكونان من الموات	وعنهما منابح الحياة <sup>(١)</sup>

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد داعي الدعوة.

فقارئ مثل هذه الأبيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدار تأثرها بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمق في دراسة المذهب الفاطمي؛ فإن قضية الإبداع، أو الحدود الروحانية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن تكون أدق موضوع عاجله جميع الدعاة والكتاب، فأفردوا لهذا الموضوع كتباً خاصة، وفصولاً من كل كتاب من كتب الدعوة، والمؤيد في الدين في هذه الأبيات يشير إلى «الكاف» و«النون» وهما الحرفان اللذان يأتلف منهما لفظ «كن» من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ غير أن الفاطميين قالوا: إن «كن» هي الكلمة التي قامت بها السماوات والأرض وما فيهما من خلق، وأن «الكاف» و«النون» ليسا بحرفي هجاء كما يتوهم العامة؛ بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيم الشان، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما في قوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ﴾، والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته، «فالكاف» رمز من الله «بالقلم»، و«النون» رمز إلى «اللوح المحفوظ»، ويسمى «القلم» عندهم بالسابق، وهو العقل الكلي عند الفلاسفة، وله كل صفات وخصائص ذلك العقل كما تحدّث عنه الفلاسفة، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود الروحانية. ومن علماء المذهب من قال بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء؛ أي لا من مادة تقدّمت عليه، ولا بشيء، أي لا بأله استعان بها عليه، ولا في شيء؛ أي لا مع غيره يشاكله ويساويه، ولا مثل شيء؛ أي لا مثل معلوم كان له نظير فيه، ولا لشيء؛ أي لا حاجة في زيادة ولا نقصان في ملكه تعالى ومشيئته، فكان وجود الكل كما رمز به الحكماء ولوح به العلماء عنه تعالى بحرف «الكاف» و«النون» فكان ما كان<sup>(١)</sup>، ولكن أغلب العلماء على أن «القلم» كان أسبق في الوجود من اللوح، ولذلك سمي «القلم» بالسابق، و«اللوح» بالتالي،

(١) كتاب كنز الولد، (نسخة خطية بمكتبتي).

و«اللوح» هو ما يُسَمَّى عند الفلاسفة بالنفس، وجعل الفاطميون لهذا الحد الصفات التي وصف بها الفلاسفة النفس الكلية، ومن «القلم» و«اللوح» وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات في السماوات والأرض، فهما كالأفلاطونية الحديثة<sup>(١)</sup>، فحديثهم في الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات في الأفلاطونية الحديثة، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية، وبتطبيق نظرية المثل والمثول، يكون النبي مثلاً «للقلم»، والوصي مثلاً «للوح»، وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلاً للقلم والحجة مثلاً للوح، وللمثل جميع صفات وخصائص المثول، فكأن الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية، ومماثلتهم للحدود الروحانية في العالم العلوي، وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة، وعن هذه العقيدة اشتقَّ الفاطميون عقائدهم في صفات الإمام، وظهر أثرها في الشعر الفاطمي. من ذلك ما أنشده المؤيد في الدين في مدح إمامه المستنصر:

قد خلقتم من طينة وخلقنا نحن منها لكن بدا ترتيب  
 إن أجسامنا لناشئة الطين الذي منه شق منا القلوب<sup>(٢)</sup>

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله؛ ذلك أن جسم الإمام خلق من الطينة التي خلقت منها قلوب البشر؛ أي أن الطينة التي خلقت منها جسم الإمام هي نفس الطينة التي خلقت منها عقل البشر، فما هو كثيف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس، وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف، ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفاً أيضاً، ولكن بما أن الإمام من البشر، وجسمه ترابي كغيره من الآدميين، فجسمه خلق من تراب، ولكنه التراب الذي خلق منه قلب البشر الذي يحله عقول البشر. وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضاً:

(١) راجع كتاب راحة العقل والمجالس المؤيدية في مواضع متعددة.

(٢) القصيدة الثالثة.

فتخلت عن شكرها أنعام  
وغايات خلقه والسلام  
حت إلى الأرض تنتمي الأجسام<sup>(١)</sup>

نعم قد أفاضها في البرايا  
هم نهايات كل من برأ الله  
فإليهم تنمى النفوس إذرا  
وقوله أيضًا:

كـمـا مـعـا دـيـه الأذـل  
والمرضى يسمو ويعلو  
فأساسه نفس وعقل<sup>(٢)</sup>

مولى مواليه الأعز  
ذو نسبة بالمصطفى  
بكثيفه ولطيفه

وهذا المعنى كثير جدًا في شعر المؤيد، نراه في أكثر قصائده التي في الديوان.  
هناك عقيدة أخرى رددتها المؤيد في شعره، فهو يقول مثلاً:

وأهلاً بأنوارها الزاهرة  
أبي الخلق باديه والحاضرة  
أديرت على من بغى الدائرة  
غداة أحفت به النائرة  
عصاة فراغنة جائرة  
بمبعثه شرفت ناصرة  
ولي الشفاعة في الآخرة  
وأبنائه الأنجم الزاهرة  
لديك أيأ صاحب القاهرة  
جنود السماء له ناصرة  
وجوه الموالي به ناصرة

سلام على العترة الطاهرة  
سلام بديا على آدم  
سلام على من بطوفانه  
سلام على من أتاه السلام  
سلام على قاهر بالعصا  
سلام على الروح عيسى الذي  
سلام على المصطفى أحمد  
سلام على المرتضى حيدر  
سلام عليك فمحصولهم  
بنفسي مستنصرًا بالإله  
شهدت بأنك وجه الإله

(١) القصيدة الثانية عشرة.

(٢) القصيدة السادسة عشرة.

وأنتك صاحب عين الحياة  
بحار الندى كفه والعلوم  
وعين خصومهم غائرة  
مدى الدهر في قرن زاخرة  
وإنشاء أجسامنا البائرة<sup>(١)</sup>

فالشاعر هنا يسلم على جميع الأنبياء، وعلى الوصي علي بن أبي طالب والأئمة من ذريته، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال: «فمحصولهم لديك أيا صاحب القاهرة»، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء؟ تقول عقيدة الفاطميين: إنَّ النبي محمداً جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله؛ أي أنه في دوره مثل آدم في دوره، فهو آدم على هذا النحو، وهو إبراهيم في دوره ... وهكذا، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء، بل قال الفاطميون: إنَّ دور النبي محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين، وما حدث للأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضاً لمحمد ووصيه وأئمة دوره، فالأدوار واحدة، ولكنها تتخذ أشكالاً مختلفة، ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو مجمع الأدوار أيضاً على هذه الصورة، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح ... إلى آخر الأنبياء، فالنور الذي تنقل بين الأنبياء حلَّ في إمام الزمان، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء؛ فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة، وهكذا نستطيع أن نفسر قصيدة المؤيد السابقة. ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى قارنَ بين الإمام وبين بعض الأنبياء، فقال في مقارنة المستنصر بنبي الله عيسى ابن مريم:

وصديق مثل العدو مداج  
جاءني حائراً فقال بجهل  
لا أراه إلا عدواً مضلاً  
ما أرى للمسيح في الناس شكلاً  
صيباً وكلمَ الناس كهلاً  
إن عيسى قد كلّم الله في المهد

(١) القصيدة الحادية والأربعون.

قد حوى الملك والإمامة طفلا  
قلت: مهلاً ياناقص الفهم مهلاً  
هو يجيي بالعلم من مات جهلاً  
ي معد يجلو العمى إن تجلّى  
باطني بينت لي فيه عقلاً  
لإمام الهدى ورحمت مدلاً<sup>(١)</sup>

قلت: هذا مولى الأنام معد  
قال: عيسى أحياء الموت جهازاً  
إن هذا مولى الأنام معد  
قال: عيسى أبرأ العمى، قلت: مولا  
قال: حسبي أجبنتي بجواب  
ثم ولي عني مقراً بفضل

وقس على ذلك مقارناته لباقي الأنبياء، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تتول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة، ويستمر المؤيد في كل قصائده يمدح الإمام بمعان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره.

وَيُجَيَّلُ إِلَيَّ أَنْ الْعَقَائِدُ أَثَرَتْ أَيْضًا فِي جَمِيعِ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ ظَهَرُوا فِي بِلَادِ الْأئِمَّةِ فِي عَهْدِ ضَعْفِ الْأئِمَّةِ، وَسَطْوَةِ الْوُزَرَاءِ، وَفِي عَهْدِ انْتِقَالِ مَرْكَزِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْيَمَنِ، وَدُخُولِ الْأئِمَّةِ فِي دَوْرِ السُّرِّ الثَّانِي، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْحَافِظَ وَالظَّافِرَ وَالْفَائِزَ وَالْعَضْدَ آخِرَ مَلُوكِ الْفَاطِمِيِّينَ كَانُوا يَحْكُمُونَ نِيَابَةَ عَنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَرِ وَلَمْ يَكُونُوا أئِمَّةً، وَلَكِنْ شُعْرَاءُ مِصْرَ أَبَوْا إِلَّا أَنْ يَغْدُقُوا صِفَاتِ الْأئِمَّةِ عَلَى هَؤُلَاءِ النَّوَابِ، بَلْ مِنْ الشُّعْرَاءِ مَنْ لَقِبَ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكَ بِالْأئِمَّةِ؛ فَالشَّاعِرُ الشَّرِيفُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيٌّ بْنُ مُحَمَّدٍ الْأَخْفَشِ شَاعِرُ الْأَمِيرِ وَالْحَافِظُ مَدْحُ الْحَافِظِ بِقَوْلِهِ:

مَنْ يَرَى الْحَافِظَ فَرْدًا صَمْدًا  
مَنْ طَرِيقَ الْعَقْلِ نَوْرًا وَهَدًى  
وَتَعَالَى أَنْ نَرَاهُ جَسَدًا

صرف جريال يرى تحريمها  
بشر في العين إلا أنه  
جَلَّ أَنْ تَدْرِكُهُ أَعْيُنُنَا

(١) القصيدة التاسعة والخمسون.

فهو في التسييح زلفى راعع      سمع الله به من حمداً  
تدرك الأفكار فيه بانياً      كاد من إجلاله أن يُعبداً<sup>(١)</sup>

فالشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة؛ ولكن الحافظ كان ينوب عن الإمام المستتر فطبّق الشاعر صفات الإمام على نائبه، فالإمام عن طريق العقل؛ أي عن طريق علم الباطن، هو نور؛ أي أنه عقل كله، والعقل الأول لا يُدرك بالأبصار، فهو يتعالى أن يجد بحدود ذلك الجسد، أما قوله: «فهو في التسييح زلفى راعع» فتأويل الركوع - كما يحدثنا القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام - هو طاعة الإمام، والإقرار بحدود الدين الروحانيين والجسمانيين، والتسييح في الركوع تأويله البراءة والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه<sup>(٢)</sup>، وتأويل «سمع الله به من حمداً» أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه، وأطلعه من أمر أوليائه عليه، فيأمر الداعي بذلك من دعاه، ويخبرهم أن الله تعالى يسمع حمدهم، ويطلع على اعتقادهم في ذلك، فإن كانوا قبلوه حق القبول، واغتبطوا به كما يجب، وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم<sup>(٣)</sup>. أمّا البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر في أمر الإمام، وأن الإمام مثل للعقل الأول، وما يوصف به هذا العقل، فيكاد المفكر من إجلاله للعقل أن يعبدته وأن يعبد مثله، وهذا البيت الأخير يشبه قول المؤيد في مدح المستنصر:

لست دون المسيح سماً ربّاً      أهل شرك ولا نسيمك ربّاً

(١) الخريدة: ورقة ١٤٢ ب.

(٢) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام، (نسخة خطية بمكتبتي).

(٣) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام، (نسخة خطية بمكتبتي).

وهو مثل قول الشريف بن أنس الدولة في مدح الحافظ، وقد صعد المنبر يوم العيد:

خشوعاً فإن الله هذا مقامه      وهمساً فهذا وجهه وكلامه  
وهذا الذي في كل وقت بروزه      تحياته من ربنا وسلامه<sup>(١)</sup>

فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الأبيات هو من المعاني الباطنية، وكلها تخضع في التفسير لنظرية المثل والمثول أيضاً، فالإمام مثل العقل الأول فهو أشرف من جميع المخلوقات، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله التي وردت في القرآن الكريم، ثم انظر إلى قول الشاعر:

هذا أمير المؤمنين بمجلس      أبصرت فيه الوحي والتنزيلا  
وإذا تمثل راكباً في موكب      عاينت تحت ركابه جبريلاً<sup>(٢)</sup>

«فمجلس الوحي والتنزيل» هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم الإمام مقامه، أما قوله: «عاينت تحت ركابه جبريل» فتأويل الملائكة في عقيدة الفاطميين هم الدعاة، فكأن الشاعر يقول: إن الإمام إذا سار في موكبه سار تحت ركابه الدعاة الذين يدعون له ولمذهبه.

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيق من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائد مذهبه، ولتهجين مذاهب أصداده؛ فمن ذلك قوله:

يا أمة سلكت ضلالاً بيننا      حتى استوى إقرارها وجودها  
ملتم إلى أن المعاصي لم يكن      إلا بتقدير الإله وجودها  
لو صحَّ ذا كان الإله بزعمكم      منع الشريعة أن تقام حدودها  
حاشا وكلا أن يكون إلها      ينهى عن الفحشاء ثم يريد<sup>(١)</sup>

(١) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٣٣٠.

(٢) صبح الأعشى: ج ٣، ص ٤٩٧.

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين، وأثارها المعتزلة ردحًا طويلًا من الزمان، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين، وهي مسألة الجبر والاختيار. فجمهور أهل السنة على أن الإنسان مُجبر، والمعتزلة تذهب إلى أن الإنسان مخير، ولكن الفاطميين كانوا يذهبون مذهبًا وسطًا، فالإنسان مجبر في أمور، ومخير في أمور؛ فهو ولد من غير اختيار؛ بل هو مجبر، وتصيبه بعض الأحداث في حياته قضاءً وقدرًا، ويموت بغير اختيار، أما أفعاله فهو مخير فيها.

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألموا في أشعارهم بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثير الذي رأينا بعض نماذجه؛ إذ المفروض أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يتمذهبون بمذهب الأئمة، ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة، وأن يزينوا شعرهم بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة، وأكثر الشعراء الذين وفدوا على مصر لم يكونوا فاطميين المذهب، ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعله شعراء مصر. ويحدثنا ياقوت أن الحسين بن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حصينة المعري، المتوفى سنة ٤٥٧ هـ، أوفد إلى المستنصر بالله، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها:

وابن الرسول خليفة وإمام  
طلب ولا يعتاص عنه مرام  
وعيون سكان البلاد تنام  
ويمينه ركن لها ومقام  
فينا ولا تبع الهدى الأقوام

ظهر الهدى وتجميل الإسلام  
مستنصر بالله ليس يفوته  
حاط العباد وبات يسهر عينه  
قصر الإمام أبي تميم كعبة  
لولا بنو الزهراء ما عرف التقى

يا آل أحمد ثبتت أقدامكم  
لستم وغيركم سواء، أنتم  
وتزلزلت بعداكم الأقدام  
للسدين أرواح وهم أجسام  
فرض وإن عذل اللحاة ولاموا<sup>(١)</sup>

فالشاعر على الرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه الصفات الباطنية التي تجد حظاً من القبول إذا مُدح بها الإمام، فقصر الإمام كعبة والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام، ولولا الأئمة ما عرفت حقيقة الدين، والأئمة عقول والناس أجسام، والولاء للأئمة فرض من الله. فهذه كلها من عقائد الفاطميين، واضطر الشاعر أن يزجَّ بها في مدحه للإمام الفاطمي، ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضاً منها قوله:

أما الإمام فقد وفي بمقالة  
لذنا بجانبه فعمَّ بفضلته  
صلى الإله على الإمام وآله  
وببذله وبصفوه وجماله  
لا خلق أكرم من معد، شيمة  
فأقصد أمير المؤمنين فما ترى  
محمودة في قوله وفعاله  
بؤساً وأنت مظلّل بظلاله  
وعلى البذور بحسنه وجماله  
زاد الإمام على البحور بفضلته  
وعلى سرير الملك من آل الهدى  
من لا تمر الفاحشات بباله  
ومكارم الأخلاق في سرباله  
عن شبهه ونظيره ومثاله<sup>(٢)</sup>

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا بها الملوك، ولكنه ألمَّ فيها أيضاً بالمعاني الباطنية التي تميّز مصر الفاطمية عن غيرها من الدول، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر

(١) ياقوت، معجم الأدباء: ج ١٠، ص ٩٠، (طبعة رفاعي).

(٢) ياقوت: ج ١٠، ص ٩٢.

العربي؛ فالصلاة على الإمام وآله، وأن الإمام من نسل الرسول، وأن لا شبيه للإمام ولا مثيل، كل هذه من العقائد التي كان ييئها الدعاة بين الناس.

ولعل الشاعر عمارة اليميني أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنين الوافدين على مصر، والذين ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية؛ ففي أول قصيدة أنشدها في مصر قال في مدح الخليفة الفائز، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التي مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم      حمداً يقوم بما أولت من النعم  
وفيهما يقول:

لا أجد الحق، عندي للركاب يد      تمت اللجم فيها رتبة الخطم  
قربن بعد مزار العزم من نظري      حتى رأيت إمام العصر من أمم  
ورحن من كعبة البطحاء والحرم      وفداً إلى كعبة المعروف والكرم  
فهل درى البيت أي بعد فرقته      ما سرت من حرم إلا إلى حرم  
حيث الخلافة مضروب سراقها      بين النقيضين من عفو ومن نقم  
وللإمامة أنوار مقدسة      تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم  
وللنبوة آيات تنص لنا      على الخفيين من حكم ومن حكم<sup>(١)</sup>

ويستمر عمارة في مدح الفائز، ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئاً كثيراً من عقائد الفاطميين، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية إلا بقدر يسير، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة، على أن الشاعر بعد أن استقر بمصر، واتصل بالبيئة المصرية حوله، وسمع جدل العلماء ومناقشاتهم في مجالس الملك الصالح، وعرف شطراً من العقائد الفاطمية، تأثر بهذه العقائد في

شعره، وإن كان لم يعتنق دعوتهم، بل ظلَّ على عقيدة الشافعية، فهو يقول في مدح العاضد:

وعليك من شيم النبي وحيدر  
والوحي ينطق عن لسانك بالذي  
شخصت إليك نواظر الأمم التي  
يوم جلت فيه الإمامة عزها  
للساظرين أدلة وشهود  
من دونه يصدع الجلمود  
ملكتهم لك بيعة وعهود  
ولها الملائكة الكرام جنود<sup>(١)</sup>

في هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر عمارة؛ فالشاعر هنا متأثر بالعقائد، حتى يُجِيل إلينا أنه أصح على دينهم وعقيدتهم، فالوحي - وهو في التأويل داعي الدعاة - ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة، والبراهين القوية التي لا تقف أمامها حجج أو براهين، والبيعة في عنق جميع الذين عاهدوا الإمام، والملائكة وهم الدعاة جنود الإمام. ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله:

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب  
شيم لكم غرأتى بمديحها الـ  
سير نسخناها من السور التي  
قامت خواترها بخدمة نظمها  
شرف تبيت به قریش كلها  
إنَّ الرسول أبوكم من دونها  
ولقد ورثت مقام قوم يستوي  
وجمعت شمل خلافة لم يختلف  
لما برزت إلى المصلى معلناً  
وخطبت فيه المؤمنين خطابة  
أثنى على إحسانها التنزيل  
ففرقان والتوراة والإنجيل  
ما شأنها نشج ولا تبديل  
فيكم، وقام بنثرها جبريل  
عولاً لكم وعليكم التعويل  
فمن الذي منها أبوه رسول  
منهم شباب في العلا وكهول  
في فضلها المعقول والمنقول  
وشعارك التكبير والتهليل  
ذابت عيون عندها وعقول

وسللت عرب فصاحة نبوية شهدت بأنك للنبي سليل<sup>(١)</sup>

فهو هنا يمدح العاضد بأن في سور للقرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن الأئمة، وهذا من أقوال الفاطميين في أئمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد الدين:

لهم معاني الزبرر وفضل آي الزمزر<sup>(٢)</sup>

وقال عمارة أيضًا في هذا المعنى نفسه:

يا خير من نظم المديح لمجده وتنزلت سور الكتاب بحمده<sup>(٣)</sup>

وانظر إليه وهو يقول في مدح العاضد أيضًا:

ولاؤك دين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين

وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين<sup>(٤)</sup>

ولعل الأبيات التي أنشدها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة على مدى تأثر عمارة بالعقائد، وبتأويل الفاطميين، فهو يقول مثلاً:

لا تعجبين لقدار ناقة صالح فلكل عصر صالح وقدار

أحللت دار كرامة لا تنقضي أبدًا وحل بقاتليك بوار<sup>(٥)</sup>

فناقة صالح التي ذكرت في القرآن تتول على حجة صالح، وكذلك كان الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز، ويتحدث عمارة عن الأدوار، فلكل عصر «صالح» من نبي أو إمام، ولكل عصر «ناقة صالح» أي حجة للإمام،

(١) النكت: ص ٣٠٦.

(٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد.

(٣) النكت: ص ٢٠١.

(٤) النكت: ص ٣٦٢.

(٥) النكت: ص ٦٩.

فهذا المعنى لا يأتي به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها، وكان عمارة يجالس الدعاة والعلماء فعرف الكثير من أسرارهم، فجرى لسانه به. وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر أيضًا عن عقيدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت، وعودتها إلى العالم الروحاني، فإن كانت نفسًا شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية، وتأخذ مرتبتها بين الحدود الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية.

وفي مديحه للصالح قال:

كاف هو الباب الذي من لم يصل منه فليس له إليك وصول

إشارة إلى أن داعي الدعاة هو باب الأبواب، وهو الذي يشير فيه إلى الحديث النبوي: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها». فالإمام في عصره يمثّل النبي في عصره، وداعي الدعاة هو الباب أيضًا، وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيق أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب، واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضًا:

قُل للفقير عمارة يا خير من أضحي يؤلف خطبة وخطابا  
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل «حطة» وادخل إلينا «البابا»  
تلق الأئمة شافعين ولا تجرد إلا لديننا سنة وكتابا<sup>(١)</sup>

وفي قضية أول رمضان، حدث أن غم الهلال، ولم يظهر بين الضباب، فلم يره الناس رؤية بصر، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم بدورة الفلك، وظهر العاضد ووزيره شاوور بين الناس، فقال عمارة في ذلك:

ولما تراءت للهلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب  
وقفنا فهتأنا الصيام بعاضد سنه مدى الأيام ليس بخاب<sup>(١)</sup>

فرؤية رمضان التي نحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي  
معلنًا صوم رمضان.

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العضد، اتفق أن اجتمع الشاعر  
يحيى أبو سالم بن الأحذب بن أبي حصينة، والشاعر عمارة اليميني في قصر  
اللؤلؤة، فأنشد أبو سالم في نجم الدين أيوب:

يا مالك الأرض لا أرضي له طرفًا  
قد عجل الله هذي الدار تسكنها  
تشرفت بك عمّن كان يسكنها  
كانوا بها صدقًا والدار لؤلؤة  
فأجابه عمارة:

أثمت يا من هجا السادات والخلفا  
جعلتهم صدقًا حلوا بلؤلؤة  
وإنما هي دار حل جوهرهم  
فقال لؤلؤة عجبًا بيهجتها  
فهم بسكناهم الآيات إذ سكنوا  
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه  
لولا تجسمهم فيه لكان على  
فالكلب يا كلب أسنى منك مكرمة

وقلت ما قلته في ثلبيهم سخفا  
والعرف ما زال سكنى اللؤلؤ الصدفا  
فيها، وشف فأسناها الذي وصفا  
وكونها حوت الأشراف والسرفا  
فيها، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا  
من البرية إلا كل من عرفا  
ضعف البصائر للأبصار مختطفا  
لأن فيه حفاظًا دائميًا ووفًا<sup>(٢)</sup>

(١) النكت: ص ١٦٨.

(٢) الخطط: ج ٢، ص ٣٥١.

فانظر إلى قول عمارة: إِنَّ جوهرهم هو الذي حل بهذه الدار، وإن الآيات سكتتها وكانت تسكن الصحف، وحديثه عن الجوهر الفرد الذي هو نور تجسم في الأئمة.

أليس ذلك كله من الأدلة التي نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية على الرغم من تمسكه بمذهبه السني الشافعي؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من الشعراء ألسنة لهم في نشر عقائدهم التي أذاعوها بين هؤلاء الشعراء، وكيف استغل الشعراء علم الباطن، وخاصة ما خلعه علماء المذهب على الأئمة من صفات باطنية، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا إليهم، وينالوا من هباتهم وعطاياهم. ويقول القلقشندي: كان الشعراء جماعة كثرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سنة لا يغفلون في المدح، وشيعة يغفلون فيه<sup>(١)</sup>. فكأنَّ القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء الذين مدحوا الأئمة قد ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية، ولكن بعضهم كان يسرف في ذلك، وبعضهم كان يقتصد.

وها هو ذا الكاتب ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان الإنشاء في عهد الظاهر والمستنصر، ينشد شعراً يدل على أنه كان يتشيع، ولكنه كان يعارض الفاطميين في أمور، فهو يقول:

غير أني لا أرى سبَّ السلف  
قصد الإجماع لم يخش التلف  
للهوى قرظ قومًا أو قذف<sup>(٢)</sup>

أنا شيعي لآل المصطفى  
أقصد الإجماع في الدين ومَن  
لي بنفسي شغل عن كل من

(١) صبح الأعشى: ج ٣، ص ٤٩٧.

(٢) معجم الأدباء: ج ٤، ص ١٠، (طبعة رفاعي).

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي، ولا سيما شعر المدح الذي قيل في الأئمة، واضحاً جلياً نراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها، كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس، واستغله الدعاة في نشر المذهب، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد المؤيد في الدين تُردّد في المساجد، فطائفة البهرة في الهند تردّد إلى الآن قصيدة المؤيد التي مطلعها:

سلام على العترة الطاهرة وأهلاً بأنوارها الزاهرة<sup>(١)</sup>

عقب صلاة الفجر كل يوم، ويرتلون قول المؤيد:

أبا حسن يا نظير النذير ولولا وجودك فات النظر<sup>(٢)</sup>

عقب صلاة التهجد كل يوم، وينشدون قصيدته التي مطلعها:

إلهي دعوتك سرّاً وجهراً أيا مالك الملك خلقاً وأمراً<sup>(٣)</sup>

عقب صلاة النوافل في رمضان، ولا سيما في ذكرى مقتل عليّ، ويرددون

قول المؤيد أيضاً:

هلال بدا من خلال الدجنة إمام زمان من النار جنة<sup>(٤)</sup>

في أول كل شهر عربي. وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر المستنصر الفاطمي وداعي دعائه، على نحو ما يفعله الصوفية في ترتيل الأوراد.

على أن الشعر الذي يلّم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة، والشاعر كان يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد، وأن يلائم بين هذه العقائد

(١) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد.

(٢) القصيدة الخامسة والأربعون.

(٣) القصيدة السادسة والعشرون.

(٤) القصيدة الثانية والعشرون.

والألفاظ التي يختارها لشعره، ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر، ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره، وكان ينفق جهداً كبيراً في إنشاد الشعر؛ ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل، ولا غرابة إذا رأينا في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لونين من الشعر؛ فالمقدمة التي كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون، والأبيات التي بها العقائد لون آخر، يظهر في المقدمة فن الشاعر وطبيعته، وتظهر في الأبيات التي بها العقائد صناعة الشاعر وتلاعبه، وقلَّ أن نجد شاعراً استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله، أو بين فنه وعلمه. ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذي كثر في العصر الفاطمي، ظهر مرة أخرى في شيء من القوة في شعر الصوفية، وهو الشعر الذي كاد يكون الشعر الرمزي في الأدب العربي - وسنرى ذلك في حديثنا عن شعر الصوفية في العصور التي تلت عصر الفاطميين - ويكفي أن أقول الآن: إنَّ شعر الصوفية هو تطور شعر العقائد الفاطمية، وكذلك تأويلات الصوفية هي تطور لتأويل الباطن عند الإسماعيلية.

وأكثر الشعر الذي يتأثر بالعقائد كان في مدح الأئمة الفاطميين، على أنَّ هناك شعراء مدحوا الأئمة، ولم يقربوا العقائد من قريبٍ أو من بعيدٍ، بل كان شعرهم في المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء، ولغير الفاطميين من الأمراء، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك من الصفات التي جعلها الشعراء للممدوحين، فمن ذلك قول الشاعر أبي الرقعق في العزيز:

مغرى بأهل الخيام  
بصائبات السهام  
إلا بطول الغرام  
بشرقي وغرامسي

حبي الخيام فإني  
بالراميات فوادي  
لا عذب الله قلبي  
سقيا لدهر تولى



فكل هذه المعاني ليست باطنية، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوي.

ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم في أخيه الإمام العزيز بالله هي هذه المدائح المكررة المألوفة، فهو يقول مثلاً يهنئه بالعيد:

للعيد في كل عام	يوم يعيد سناه
وأنت في كل يوم	عيد يلوح علاه
ونعمة وسعود	للمعتفين وجاه
يامن تصل المعالي	إليه حين تراه
ومن يبر اليتامى	من كل خلق سواه
لو كان للفضل يوماً	منبي لكننت مناه
لأن منك استعار الز	مان حسن حالاه
فأنت شمس ضحاه	وأنت بدر دجاه
كفأك في كل سلم	سحاب صوب ندهاه
وحسن رأيك في الحر	ب سبيفه وقتناه
فأنت يمنى يديه	وأنت أمضى ظباه
فاسلم لسعدك يامن	يديم نحس عداه <sup>(١)</sup>

فالأمير تميم يهنئ أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بمعنى واحد من المعاني الدينية التي كان الشعراء يقصدون إليها في مدح الفاطميين، ولو شاء الأمير تميم أن يأتي بالمعاني الباطنية في شعره لآتى بما يعجز عنه غيره من الشعراء؛ لأنه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية، فهو ابن إمام وأخو إمام؛ بل كانت الإمامة ستؤول إليه بعد أبيه، ومع ذلك كله فالشاعر

(١) ديوان تميم «نسخة خطية بمكتبتي».

هنا كان شاعراً فحسب، أراد أن يمدح الإمام فمدحه بهذه المعاني المألوفة. وفي قصيدة أخرى يقول تميم في مدح العزيز:

تطول على المولود إن أنجب الجد  
وظرفا فما في وصف كنه له حد  
وتشفى برؤيا وجهه الأعين الرمد  
وأهدى إليه قلبه الاسد الورد  
من المال صفرا حين يصبو له المجد  
إذا لم يكن في كل كف لها فرد  
تضيق إذا كانت علاك هي الرغد  
إذن لتساوى في العلا الحر والعبد  
لدي مصوناً لا يبين ولا يبدو  
هززت حساماً ليس ينبو له حد  
إذا لم تفارقه الحمائل والغمد  
وغنى به في السهل والوعر من يجدو  
وصيغ لها من حلى ألفاظه برد  
كما ليس في كل الطلى يحسن العقد  
أقربها مني لك اللحم والجلد  
فحق لمثلي من مثالك ذا الود  
فترضى ولا يفني مواهبك القصد  
إذا اعتذر المعروف عندك والوعد  
وإن كان عند المجتدي للندى جحد  
لطبعك منك الآن عن كرم رد  
تناوله يوم الوغى بطل نجد

رأيت معداً كالحسين وإنما  
تعرب فهما مثلها ذاب رقة  
به يشتفي السمع الأصم بلفظه  
كأن ضياء الشمس رداء نوره  
وليس يبالي أن يروح ويغتدي  
كأنك لا ترضى لنفسك خلة  
ولست تبالي أن تروح بعيشة  
ولولا احتمال النفس كل مشقة  
حجبت سنى شعري زماناً ولم يزل  
ونزهته دهرًا فلما هززتني  
كذا السيف لا تستخبر العين عنفه  
فسار بمدحي فيك كل مهجر  
وصاغت له عليك حسناً وزينة  
وليس لكل الناس يستحسن الثنا  
وكم لك عندي من يد وصنعة  
فلا يعجب الحساد لي أن وددتني  
رأيتك يفني العذر حقدك كله  
ولا توعد الجاني إذا زل بل له  
وتجحد ما تولى يداك من الندى  
ولو كفر العافون نعماك لم يكن  
وتهتز للمدح اهتزاز مهند

عليك صلاة الله ما لاح بارق وما حن مشتاق تداوله الفقد<sup>(١)</sup>

وهكذا يمضي الأمير تميم في مديحه للإمام، فقلَّ أن نجد الشاعر يصف أخاه بمصطلحات الفاطميين، حتى يخيل إليَّ أن الشاعر المؤيد في الدين الذي جاء بعد تميم بزهاء قرن من الزمان، لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح غيره من الشعراء، فوضع المؤيد قصيدته التي مطلعها:

هلال بدا من خلال الدجنة إمام الزمان من النار جنة  
وجعل هذه القصيدة جواباً لقصيدة تميم بن المعز التي مطلعها:

أسرب مها عن أم سرب جنة حكيتهن ولستن هنة  
وفي قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله:

سينعت فلك مني اللسان إذا نعت الغير توريد وجنة  
وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفضل وفطنة  
فخذها جواباً لنجل المعز «أسرب مها عن أم سرب جنة»

فكان المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام؛ لأنَّ الأمير تميماً مدح إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالغزل، ونعت الممدوح بالجمال، وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات؛ على حين أنَّ المديح عند المؤيد هو من صميم الدين.

وأشده علي بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوكة أبي نواس، يمدح فيها الحاكم بأمر الله، منها قوله:

إن الزمان قد نضر بالحاكم الملك الأغر  
في كفه عضب ذكر فقد عدا على القصر

(١) ديوان تميم، السابق ذكره.

من غره على الغرر  
 في سرعة الطرف نظر  
 يَمْضِي كما يَمْضِي القدر  
 أو السحاب المنهمر  
 بَادِر إنفاق البدر  
 بَادِر إذا لاح بهر<sup>(١)</sup>

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناعة الدوح في مدح الحاكم،  
 وقد حدثت زلزلة في مصر:

بالحاكم العدل أضحى الدين معتلياً  
 ما زلزلت مصر من كيد يراد بها  
 نجل العلا وسليل السادة الصلحا  
 وإنما رقصت من عدله فرحا<sup>(٢)</sup>

فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية، ولا تجد أثراً  
 لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم.

إذا نحن أمام لونين من المديح الذي قيل في الأئمة؛ اللون الأول: هو ذلك  
 الشعر الذي مدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هي من خصائص الفاطميين،  
 وفي هذا الشعر يظهر أثر الفاطميين، أمّا اللون الثاني من المديح: فهو ذلك  
 المديح الذي اعتاد الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء، وهذا اللون لا يظهر  
 فيه إلا فن الشاعر فقط، وقل أن نجد فيه أثراً للبيئة التي تحيط بالشاعر إلا من  
 ناحية واحدة، وهي الظروف التي أنشد فيها هذا الشعر، ولذلك نرى الشعراء  
 الذين وفدوا على مصر ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم في مصر كما  
 كانوا ينشدونه في أي بلد آخر من البلاد الإسلامية.

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم في المواسم والأعياد التي كثرت  
 في العصر الفاطمي، وكثيراً ما كانت هذه الأيام، وكثيراً ما كانت المناسبات  
 التي ينشد فيها الشعراء مدائحهم، ففي يوم فتح الخليج مثلاً كان صاحب

(١) معجم الأدباء: ج ١٥، ص ٨٥ (طبعة رفاعي).

(٢) المغرب: ص ٨٥، ويقال: إن الشاعر أنشدها في كافور.

الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة، فيؤمر بتقديمهم واحداً بعد واحد، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد<sup>(١)</sup>، ومما أنشد في هذه المناسبة قول ابن جبر:

فتح الخليج فسال منه الماء      وعلت عليه الراية البيضاء  
فصفت موارده لنا فكأنه      كف الإمام فعرفها الإعطاء<sup>(٢)</sup>

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتذوق الشعر ونقده، فإنهم لما سمعوا هذه الأبيات انتقدوه في قوله: فسال منه الماء وقالوا: أي شيء يخرج من البحر غير الماء؟! وأن الشاعر أضاع ما قاله بعد ذلك المطلع.

وفي هذه المناسبة أيضاً أنشد مسعود الدولة - وكان مقدم الشعراء في عصره -:

ما زال هذا السد ينظر فتحه      إذن الخليفة بالنوال المرسل  
حتى إذا برز الإمام بوجهه      وسطا عليه كل حامل معول  
فجرى كأن قد ديف فيه عنبر      يعلوه كافور بطيب المنديل

ولكن هذه القصيدة أيضاً لم تعجب السامعين؛ إذ انتقدوه عليه أيضاً قوله في البيت الثاني وقالوا: «أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه». <sup>(٣)</sup>

وأنشد الشاعر أبو العباس أحمد في مناسبة فتح الخليج قوله:

لمن اجتماع الخلق في ذا المشهد      للنيل أم لك يا بن بنت محمد  
أم لاجتماعكما معاً في موطن      وافيتما فيه لأصدق موعد

(١) المقرئبي: ج ٢، ص ٣٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

حاز الفضيلة منكما في المولد  
 بالسعي لكن ميلهم للأجود  
 بالقصد ليس له كمن لم يقصد  
 وتسد أنت النقص إن لم يزد  
 وإذا بلغت إلى النهاية تبتيدي  
 بالسد فهو به بحال مقيد  
 ليري جنباً مخصباً وثرى ندي  
 جسم فصح الجسم إن لم يفصد  
 في عيش مغبوط وعز مخلد<sup>(١)</sup>

ليس اجتماع الخلق إلا للذي  
 شكروا الكل منكما لو فائه  
 ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله  
 هذا يفي ويعود ينقض تارة  
 وقواه إن بلغ النهاية قصرت  
 فالآن قد ضاقت مسالك سعيه  
 فإذا أردت صلاحه فافتح له  
 وأمر بفصد العرق منه فما شكا  
 واسلم إلى أمثال يومك هكذا

فشعر المناسبات كثير جداً في العصر الفاطمي؛ حتى أن الخليفة الحافظ ملّ طول الشعر وكثرته، فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم، فلم يعجب ذلك الشعراء، فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه:

لم لا أمرت ندى كفيك يختصر  
 حتى يبين لها في مدحك الأثر<sup>(٢)</sup>

أمرتنا أن نصوص المدح مختصراً  
 والله لا بد أن تجري سوابقنا

فكان الشعر ينشد في مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التي كانت تقام لأي حادثة صغرت أم كبرت، فإذا تمّ عمل شمسية للبيت الحرام مثلاً أنشد الشعراء من ذلك قول الأمير تميم، وقد تمّ عمل هذه الشمسية في عهد المعز لدين الله:

والملك ماء عليك منسكب  
 تألف إلا عداتك الريب  
 يصدّه عن حدوده سبب  
 بمذهب لم يخالف العقب

إليك مدت رقابها العرب  
 وأنت في دوحه النبوة لا  
 أأست من يرهب الإله ولا  
 وكلها قال بدء عزمته

(١) المصدر السابق.

(٢) الخريدة: ورقة ١٠٩ ب، وابن ميسر: ص ٨٥.

صالت، وتنفي الضلالة الشهب  
 — والمرهفات واليلب  
 صها، والرماح والقضب  
 فلم يسعها الزمان والحقب  
 أمر دهر، وعصرك الشنب  
 يقصر عنها المديح والخطب  
 وأخفت اليوم وهو متصب  
 يكمل الأمر حيث ينتهب  
 أهلة لا تحفها السحب  
 نجوم ليل سماؤها ذهب  
 وإن سخطن الكواعب العرب  
 شوق، ولليت نحوها طرب  
 إلا بما تشتهي وترتقب  
 شمس، وما انهل عارض لجب<sup>(١)</sup>

فهكذا يصدع الملووك إذا  
 ويزدهي الدين بالمعز لدين اللـ  
 وكل رحاحاة عزائمه دلا  
 وهذه الدولة التي ذخرت  
 يا حبذا دهرك الزلال إذا  
 وحبذا الشمسة التي نصبت  
 قايست العيد وهي حلتها  
 ينهب ياقوتها العيون فما  
 دوائر أحذقت بغرتها  
 كأنها درها وجوهرها  
 نظمتها للهدي ولبتها  
 في كبد المسجد الحرام بها  
 فلا تمسي بأهله زمن  
 عليك صلى الإله ما طلعت

فالبرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية، وأن الممدوح إمام المذهب، لم يشأ الأمير تميم أن يلم بشيء من العقائد الفاطمية في هذه القصيدة، ولكنه أنشد الشعر للمناسبة فقط، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أنشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة، فإذا فصد الإمام مدحه الشاعر، وإذا شكنا من مرض مدحه، وإذا سافر مدحه، وإذا أهده شيئاً مدحه، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد.

(١) ديوان الأمير تميم: ورقة ١٢٢ (نسخة خطية بمكتبتي).

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة، فلم يستجب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم، وظل محافظاً على مذهبه معترفاً بخلافة العباسيين، وظهر هذا في الشعر المصري؛ فقد قيل: إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها:

إننا سمعنا نسباً منكراً	يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعي صادقاً	فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته	فانسب لنا نفسك كالطالع
أو فدع الأنساب مستورة	وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم	يقصر عنها طمع الطامع <sup>(١)</sup>

وقول الآخر في الحاكم، وقيل: بل في العزيز:

بالظلم والجور قد رضينا	وليس بالكفر والحقاقة
إن كنت أعطيت علم غيب	فقل لنا كاتب البطاقة

وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي، وقد هجا رجال القصر وعرض بالعزيز بالله، وسنرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود ممن كان إليهم بعض الدواوين في العصر الفاطمي، فالفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة لتوطيد سلطانهم ونفوذهم وادعائهم العصمة للأئمة، فإن بعض الشعراء لم يأبه بذلك، وعرض بهذه العقائد وسخر بهؤلاء الأئمة.

### الأمير تميم بن المعز:

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مراراً، وسنذكره مراراً؛ فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي، وهو الشاعر الذي يقرن دائماً بالشاعر ابن المعتز العباسي؛ لما بينهما من تشابه، فكلا الشاعرين من بيت

(١) ابن خلكان: ج ٣، ص ٥٤، والنجوم الزاهرة: ج ٤، ص ١١٦.

خلافة، وكلا الشاعرين من شعراء البديع، وكلاهما ممن أكثر من الوصف والمجون، وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة، فهما متشابهان في أمور كثيرة جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائماً.

ولد الأمير تميم بالمغرب، وفيها نشأ مع إخوته: عبد الله ونزار وعقيل، وكان تميم أكبرهم سنّاً، فلم يشك الناس في أنّ ولاية العهد ستكون له، ولكن المعز لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله، ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم عن إمامة الفاطميين، هو ما عُرف عن تميم من مجون وفجور، فكان يشاع عنه وعن سيرته السيئة ما حدا بأمر صقلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن المعز في أن يقتل أحد أبنائه؛ لأنه كان يساير الأمير تميماً، ويشاركه في لهوه وفسقه. ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية رد خطابه، وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق وفجور<sup>(١)</sup>. ولما فتحت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقي أسرته،

(١) نص ما ورد في سيرة جوذر ص ١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبتي): ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية، وكان واجداً على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم، وما شنع من القول عنهما، فأراد قتل ولده طاهراً هذا؛ إلا أنه استأمر الأستاذ (أي جوذر) على ذلك وشاوره فيه، فلم يجد الأستاذ بداً من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أي المعز)، فصرف إليه الجواب وهو: «يا جوذر، كثر الله من أوليائنا مثل أحمد، فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبي الشقي ولده صحبة من كان سبب شقوته، ووالله إن توجعنا به كتوجعنا بمن لنا، لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان، ومدبرنا نحن لا يرجى؛ إذ كان الخطة التي يرفع الله عز وجل بها أولادنا هي خطة الطهارة، ومن عدمها كان كلاً على مولاه، والحمد لله على ما ساء وسرّ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعه، وتشفع له عنده، وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شناعة يلحقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى في الأعقاب، فليمسك ويعمل ما يصلح فيما يستقبله، فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان يسعى به بينهما، ونحن نداوي عللهم، فمن أطاعنا لم يشق، والله لقد نكس الله رءوس كل من كان انتصب للشهامة بهم؛ لما رأوه من فضلنا عليهم وإنفاقه، وكذا نحب أن يكونوا ما بقوا في نمو وزيادة؛ لا في النقص ورجوع القهقري، فعرفه ذلك ليعمل به، ولا يحدث في الصبي شيئاً من المكروه إن شاء الله».

أسرته، وفي مصر توفي عبد الله (ولي العهد)، فجعل المعز ولاية عهده إلى ابنه الثالث نزار الذي لقب بالعزیز، ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تميم؛ إذ كان يمدح أخاه الصغير العزیز بالله، ولكنه لم يستطع أن يخفي ما في نفسه من آلام وشعور بحنق وغيظ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره، ولكن عاطفته في الشعر هي عاطفة القانط الحاقد، فهو يقول مثلاً من قصيدة في مدح العزیز:

تمون علي صغار الأمور	ويصغر عني جميع الوری
أنا ابن المعز سليل العلا	وصنو العزیز إمام الهدی
وما احتجت قط إلى ناصر	ولا رحت يوماً ضعيف القوى
ولم أستشر في ملهم يئوب	مشيراً أرى منه ما لا أرى
ولست بوان إذا ما أمر	زمان، ولا فرح إن حلا <sup>(١)</sup>

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه، وبنسبته للأئمة الفاطميين، وعدم مبالاته بصروف الدهر؛ ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر، تلك النفس الناقمة الحاقدة. ويقول يفتخر أيضاً:

ليس من ساد عن وراثة جد	أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشك	— ويحوي مدائح المداح
إنما السيد المعلى المفدى	من علا للعلا صدور الرماح
ورمى ليل كل خطب بهيم	بذكاء أضوا من المصباح
واقتنى العز بالطبا والعوالي	واشترى الحمد بالثنا والسماح
فكذا تتمي المكارم والمجـ	— د ويستبعد العدو الملاحـ
لا كمن قد جرى برجل سواه	وسما طائراً بغير جناح
لا ألفت العلا ولا ألفتني	إن تو سمت دونها بوشاح

(١) ديوان الأمير تميم، نسخة خطية بمكتبتي.

بأباطيل قينة أو بـراح  
 أستجد غسله بنزف الجراح  
 علوي يفل حد الصفاح  
 سناق فري المدى لحوم الأضحاحي  
 وحسام الكفاح يوم الكفاح  
 يوم يغدو الندى بلا مفتاح  
 كان عيشي فيهن مثل المزاح  
 وبعرض مجرح مستباح  
 ومقبلي وغدوتي ورواحي  
 وارتياحي لكسبها واقتراحي  
 إذا كان غيرها كالنباح<sup>(١)</sup>

أو ترهت أو تشاغت عنها  
 لا ولا أبيض لي سنى المجد إن لم  
 وألقى العداة عنه بعزم  
 وببطش يفري الجماجم والأعـ  
 أنافرد النهى ورب المعالي  
 أنا مفتاح قفل كل نوال  
 أنا كالجدي في الأمور إذا ما  
 لا كراض من العلا بادعاء  
 فسل المجد عن صباحي وليلي  
 هل يسر العلا مقالي وفعلي  
 هاكها كالصهيل في حلبة الفخر

ويخيل إلي أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز، مما جعل العزيز يغضب على الشاعر، وجعل الشاعر يتنصل من وشاية الواشين، فأخذ الشاعر يتلمس الأعذار، ويقدم الاعتذار، ويذكر الإمام بأنها شقيقان، وأن على الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة. فأكثر قصائد المدح التي في الديوان تتحدث عن هؤلاء الذين يسعون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير. ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نُفي مرة إلى عين شمس، ونُفي مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات من الشعر يبثهم فيها شوقه إليهم، ويشكو غربته التي اضطر إليها اضطراراً؛ فقد أنشد في عين شمس:

مبرح يقطع الأحشاء والكبدا  
 وحل من وصلنا ما كان قد عقدا

أما كفى الحب شوق موجه وأسى  
 حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا

فأه من لوعة مشبوبة وجوى  
 قالت وعبرتها مخلوطة بدم  
 لا تطلب النطق مني بالسلام فما  
 فظلت ملتثما من صحن وجتها  
 وطاويًا في الحشا منها رسيس هوى  
 وأنشد وهو في الرملة، وأرسل بها إلى بعض أهله في القاهرة:

أنتم في المنام حلمي وأنتم  
 كل عضو مني إليكم مشوق  
 لم أفارقكم ولكن جسمي  
 فهنيئًا لكم وفائي عليكم  
 كلما حثني اشتياقي إليكم  
 في انتباهي سؤلي وأنتم مرادي  
 زائد شوقه على الأبعاد  
 بان عنكم وحل فيكم فؤادي  
 وهنيئًا للعين طول السهاد  
 قلت لبيك أنت نعم المنادي

وكان الأمير تميم في مصر يشارك المصريين لهوهم، ويخرج إلى متنزهاتها، ويعبث في أديرتها، وأنشد في ذلك كله شعرًا - ستحدث عنه في فصل آخر من هذا الكتاب - وشعره إن دل على شيء فإنما يدل على رقة شعوره، ورقة العاطفة وصدقها. وتوفي هذا الشاعر سنة ٣٧٤هـ.

## الفصل الثالث الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيراً، وكان الوزير يعقوب بن كلس أول وزير في الدولة الفاطمية، ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلاثمائة لقبه العزيز بالوزير الأجل، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكاتبه إلا بهذا اللقب، فعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب<sup>(١)</sup>. فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلس في هذه الدولة الفتية إذ ذاك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلس أحد العلماء المبرزين، وكيف كان يلقي علوم الدعوة وغيرها على الناس، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه، ويتناقشون بين يديه، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد يعطي ويجزل العطاء، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله، ويكثرون من مدحه. مدحه أبو الرقعمق، وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع، والأمير تميم بن المعز، وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين فقد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي.

وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر، فمن هؤلاء الشعراء؟ وأين شعرهم؟ الجواب عن ذلك أولاً: عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على نحو كل أثر علمي أو أدبي للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين، وثانياً: عند المؤرخين والكتّاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين، فأبوا أن يرووا شيئاً عن شعراء مصر الفاطمية، وثالثاً: عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة، فأطاحوا بحضارتين من أرقى الحضارات التي

(١) خطط المقرئ: ج ٣ ص ٨، وصبح الأعشى: ج ٣ ص ٤٨٣.

شاهدها العالم، وشاهدها تاريخ الفكر البشري، وهما: الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية، ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة أخرى تقوم مقام هاتين الحضارتين. وكان الأتراك شديدي التعصب للمذهب السني، فأنزلوا نعمتهم على كل ما هو شيعي، أضف إلى ذلك كله المجاعات الكثيرة والاضطرابات العديدة التي سببت محناً عديدة لمصر، ووصفها المقريني في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم، وهكذا تضافرت قوى عديدة لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمي، حتى أن الذي بقي من هذا كله أصبح ضئيلاً تافهاً بالنسبة لما كان في عهدهم الزاهر. فقد بقي لنا جزء من قصيدة لأبي الرقعمق في مدح ابن كلس وهي:

لم يدع العزيز في سائر الأرب	ض عدواً إلا وأخذ ناره
فلهذا اجتباها دون سواه	واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجداً	لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تجرهما الدهر	ر جلالاً وبهجة ونضاره
كل يوم له على نوب الدهر	ر وكر الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخ	ل وفي حومة الوغى كراهه
هي فلت عن العزيز عداه	بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تم	سي وتضحى نفاعه ضراهه
فاستجره فليس يأمن إلا	من تفيما بظله واستجاره
فإذا ما رأيتَه مطرَقاً يع	مل فيما يريدُه أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً	في ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعاً من الأرض إلا	كان بالرأي مدرجاً أقطاره

زاده الله بـسـطة وكفـاه خوفه من زمانه وحادره<sup>(١)</sup>

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح الوزير؛ ولكنه كان يذكر الإمام الفاطمي كلما وسعه فنه ومواهبه في الشعر، فهو لم يستطع أن يغفل الإمام من قصائده؛ وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذاك، والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمراً قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه، وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون للوزير حتى يتقربوا به للإمام، فمدح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهي الاتصال بالإمام، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر الفاطمي، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسرون مرافق البلاد، ويختارون الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين، وكان أكثر وزراء ذلك العصر من رجال القلم أمثال الجرجاني واليازوري وابن المغربي والبابلي وغيرهم من الكتاب. ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم في الوزراء وفي مدحهم، فمن الشعراء من هجا الوزراء كالذي رأيناه من هجاء ابن كلس.

وهجاه أبو محمد القاسم الرسي بقوله:

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مدلس  
فإننا أردناه لكافور شربة فزاد على تقريرنا ألف مجلس<sup>(٢)</sup>

وكذلك روي أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير علي بن أحمد الجرجاني وزير الظاهر لإعزاز دين الله، وكان هذا الوزير أقطع اليدين بسبب خيانة ظهرت عليه أيام الحاكم، فلما ولي الوزارة استعمل العفاف والأمانة، ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه:

(١) بيتمة الدهر: ج ١ ص ٢٣٩.

(٢) البيتمة: ج ١ ص ٣٣٠.

يا أحمقاً اسمع وقل  
أأقمت نفسك في الثقا  
فمن الأمانة والتقوى  
ودع الرقاعة والتحامق  
ت، وهبك فيما قلت صادق  
قُطعت يداك من المرافق<sup>(١)</sup>

وقال الشاعر الحسن بن خاقان في هجاء الوزير الفلاحي وزير المستنصر:

حجاب وإعجاب وفرط تصلف  
فلو كان هذا من وراء كفاية  
ومد يد نحو العلا متكلف  
عذرنا ولكن من وراء تخلف<sup>(٢)</sup>

ونحن نعلم أن الفلاحي كان يهودياً وأسلم، وأن أبا سعد التستري مدير الدولة إذ ذاك كان يهودياً، ولذلك قال أحد الشعراء:

يهود هذا الزمان قد بلغوا  
العز فيهم والمال عندهم  
يا أهل مصر إني نصحت لكم  
غاية آمالهم وقد ملكوا  
ومنتهم المستشار والملك  
تهودوا قد تهود الفلك<sup>(٣)</sup>

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، وحلت بالبلاد نكبة الشدة العظمى، اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف، وأن يتخذ منهم وزراء له، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادي دعاة المؤمنين أبو نجم بدر الجمالي، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ، ولكنه لم يلبس خلعة الوزارة إلا سنة ٤٦٨ هـ، وصار صاحب الكلمة النافذة في البلاد التي كانت خاضعة للفاطميين، وأصبح الإمام الفاطمي شبه أسير في يدي الوزير، وظل بدر الجمالي في منصبه إلى أن توفي سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمي بأشهر، فتولى الوزارة بعده ابنه القاسم شاهنشاه الأفضل، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى الذرى، حتى

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٣٦٧.

(٢) حسن المحاضرة: ج ١، ص ١٥٣.

(٣) حسن المحاضرة.

أنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧هـ لم يعبأ بعقيدة من أهم عقائد الفاطميين في الإمامة، هي النص على من يلي الإمامة؛ إذ الإمام لا بد أن ينص قبل وفاته على خليفته، وأن يبلغ ذلك إلى حجته وحجج الجزائر، ولكن الأفضل بن بدر الجمالي أبي أن يجعل الإمامة إلى صاحب النص، وهو نزار بن المستنصر، وجعلها إلى المستعلي بالله وهو ابن أخته، وكان صغير السن؛ وبذلك انقسمت الدعوة إلى فرعيها: النزارية والمستعلية، وكان هذا الانقسام من أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية، والخلافة الفاطمية، وأضعفت هيئة الإمام بين الناس، وشك في إمامته بعض الأتباع والأشيعاء. ومهما يكن من شيء فقد أصبحت الوزارة هي القوة المحركة للبلاد كلها، فاتجه الشعراء إلى الوزراء يمدحونهم، ويأخذون هباتهم وصلاتهم، وتشبه الوزراء في بذخهم بالأئمة، فأسرفوا في كل ما يجلب لهم الشهرة والسرور معاً، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أمية الملك وألقابه؟ واتخذوا لأنفسهم حاشية هي أشبه شيء بحاشية الملوك والسلاطين، وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بني العباس والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة إلى مدح الوزراء.

وكان من الوزراء من ينشد الشعر، فالأفضل بن بدر الجمالي كان شاعراً، ومن شعره قوله في غلامه تاج المعالي:

أقضيبي ميس أم هو قد      وشقيق يلوح أم هو خد  
أنامثل الهلال سقماً عليه      وهو كالبدر حين وافاه سعد<sup>(١)</sup>

ومن قوله أيضاً في جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق، وكان شديد الغيرة على نساءه، فلما جيء له برأسها قال:

(١) أخبار مصر لابن ميسر: ص ٦٠.

نظرت إليها وهي تنظر ظلها  
أغار على أعطافها من ثيابها  
ولي غيرة لو كان للبدر مثلها  
لما كان يرضى باجتماع الكواكب<sup>(١)</sup>

فهذه الأبيات التي بقيت لنا من شعر الأفضل تدل على رقة شعور، وقدرة على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة.

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيك جيد الشعر، وكان يثيب على شعر الشعراء<sup>(٢)</sup> وكان شاور وولده الكامل وضرغام ممن ينشدون الشعر - وستحدث عنهم جميعاً بعد قليل - فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم حاشية من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلي، فكل الشعراء من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحواهم.

فممن وفد على مصر: الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي، وفد على بدر الجمالي، ويقول علقمة: قصدت بدر الجمالي فرأيت أشرف الناس وكبراءهم وشعراءهم على بابه قد طال مقامهم، فلم يصلوا إليه، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر يريد الصيد، فخرجت في إثره، وأقمت معه حتى رجع من صيده، فلما قاربني وقفت على تل من الرمل، وأومأت برقعة في يدي، وأنشدت:

نحن التجار وهذه أعلاقنا  
قلت فتشها بسمعك إنها  
كسد علينا بالشأم وكلها  
فأتاك يحملها إليك تجارها  
حتى أناخوها ببابك والرجا  
در، وجود يمينك المبتاع  
هي جوهر تختاره الأسماع  
قل النفاق تعطل الصناع  
ومطيها الآمال والأطماع  
من دونك الثمار والبياع

(١) ابن ميسر: ص ٦٠.

(٢) النكت: ص ٥٥.

فوهبت ما لم يعطه في دهره  
يا بدر أقسم لو بك اعتصم الوري  
هرم ولا كعب ولا القعقاع  
ولجوا إليك جميعهم ما ضاعوا<sup>(١)</sup>

### [١] الأفضل وشعراؤه:

ويُعَدُّ في عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاهدها مصر الإسلامية، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء، نذكر منهم: مسعود الدولة، وأبا علي حسن بن زبيد، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب، والناجي المصري، وسالم بن مفرج بن أبي حصينة، ومحمود بن ناصر الإسكندراني، ومروان بن عثمان اللكي، وابن البرقي، وظافر الحداد، وأمّية بن أبي الصلت... وغيرهم من شعراء الخريدة. ومن الشعراء الذين ذكرهم أمّية في رسالته الموسومة «بالرسالة المصرية»، وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء، ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر، ولعل «الرسالة المصرية» من أقوم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت بمصر في عهد الأفضل، ومؤلف هذه الرسالة هو أمّية بن أبي الصلت.

### أمّية بن أبي الصلت ورسالته المصرية:

لم يكن أمّية بن عبد العزيز بن أبي الصلت مصرياً، إنما هو أندلسي وفد على مصر في عهد الأمر بأحكام الله، واستطاع أمّية أن يتصل بالأفضل، وكان سبب هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالي - وكان في منزلة قريبة جداً من الوزير - فاتصل به أمّية مادحاً وقربّه الأمير مختار، وكان أمّية يخدمه أيضاً بصناعتي الطب والنجوم، فأنس به تاج المعالي كما أنس منه العلم والفضل، وكان جمهور المثقفين من المصريين قد التفوا حول أمّية يأخذون عنه العلم والآداب، فقدّمه

(١) ابن ميسر: ص ٣٠.

تاج المعالي إلى الوزير وأثنى عليه، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء، وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كتّاب وقته، واشتدت صلة أمية بالوزير، ولكن الحساد من الكتّاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أمية بالأفضل، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأمية حتى واتتهم الفرصة؛ ذلك أن الوزير قلب ظهر المجن لتاج المعالي واعتقله، فوجد الكتاب السبيل للنيل من أمية، فوشوا به لدى الأفضل، فحبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر، إلى أن شفع فيه بعض وجوه المصريين، فأطلق سراحه، وسار إلى المغرب، واتصل بالمرتضى أبي طاهر يحيى بن تميم صاحب القيروان، وحظي عنده وحسن حاله، إلى أن توفي بالمهدية سنة ٥٢٩<sup>(١)</sup>.

استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائعهم، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عُرفت بـ«الرسالة المصرية»، وصف فيها مصر جغرافياً، وعرض لبعض المدن المصرية، وتحدّث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه، وروى شيئاً مما قيل في النيل من شعر، وما أنشد في مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه، فنستطيع أن نعدّ هذه الرسالة القيمة من الكتب القليلة الممتعة التي وصلتنا عن هذا العصر، كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية في مصر أو من حفظ لهم شيئاً من الشعر من المصريين. أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر في ذلك الوقت، ولا سيما ممن كانوا يتعاطون صناعتي الطب والتنجيم، يقول أمية عن المصريين: والمصريون أكثر الناس استعماً لأحكام النجوم، وتصديقاً لها، وتعويلاً عليها، وشغفاً بها، وسكوناً إليها، حتى أنه بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تحصر فنونها، ولا تحصل أجزاءها وأنحائها، ولا

(١) راجع ترجمته في عيون الأدباء: ص ٥٢، ومعجم الأدباء: ج ٢، ص ٣٦١، وابن خلكان: ج ١، ص ٨٠.

تضبط جهاتها، ولا تقيد غاياتها، ولا تعدد ضروبها إلا في طوابع يختارونها<sup>(١)</sup>. ويقول عن أطباء مصر في ذلك العصر: «وأكثر أطبائها المزبرقين نصارى أو يهود». وفي ذلك يقول بعضهم:

أقول للمسلمين طمراً      تبغون في طبها اشتهارا  
هيهات حاولتم محالاً      كونوا إذن هوداً أو نصارى<sup>(٢)</sup>

ويحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا بعيدين عن الحضرة، فقال عن القاضي علي أبي الحسن بن النضر، المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب: ذو الأدب الجسم، والعلم الواسع، والفضل البارع، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى، والرتبة الأولى، وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الأفضل تصرفاً وخدمة، فخاب فيه أمله، وضاع رجاءه، فقال يعاتب الزمان:

بين التعزز والتذلل مسلك      بادى المنار لعين كل موفق  
فاسلكه في كل المواطن واجتنب      كبر الأبي وذلة المتملق  
ولقد جلبت من البضائع خيرها      لأجل مختار وأكرم متقي  
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله      لا بد أن نفقت وإن لم تنفق  
ظناً شبيهاً باليقين ولم أقل      إن الزمان بما سقاني مشرق  
ولعائبي بالحرص قول بين      لو كنت شمت سحابة لم تطرق  
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم      أصل الرجاء بحبل غير الأوثق  
وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ      لم تغن فيه حيلة المسترزق  
ولعمرو عادية الخطوب وإن رمت      حظي بسهم تشتت وتفرق<sup>(٣)</sup>

(١) الرسالة المصرية، نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الرسالة المصرية.

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدجر جاوي المنسوب إلى قرية دجرجا بالصعيد، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل قوص وغيرهما، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر أوائل القرن السادس للهجرة.

كان أمية أستاذًا لبعض المصريين، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين تلقوا عنه العلم ورووا شعره: أبو عبد الله الشامي الذي ظلّ مخلصًا لأستاذه، وكان يتردد عليه إبان نكبته وسجنه. وينقل ياقوت عن أبي عبد الله الشامي: وكنت أختلف إليه إذ ذاك، فدخلت إليه يومًا فصادفته مطرقًا، فلم يرفع رأسه إليّ على العادة، فسألته فلم يرد الجواب، ثم قال بعد ساعة: اكتب، وأنشدني:

وكان لي سبب قد كنت أحسبني      أحظى به، فإذا دائي هو السبب  
فما مقام أظفاري سوى قلمي      ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

فكتبت عنه رسالته فقال: إن فلانًا تلميذي قد طعن فيّ عند الأمير الأفضل<sup>(١)</sup>. ويروي ياقوت أيضًا أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن أخذ العلم عن أمية وروى عنه<sup>(٢)</sup>. وكان لأمية عدد من الأصدقاء في طليعتهم ظافر الحداد الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية، وحزن لسفره وبُعده عن مصر، فأرسل إليه قصيدة يشكو فراق الصديقين، ويذكر أمية بالأيام التي قضياها معًا، والقصيدة هي:

ألا هل لدائي من فراقك إفراق      هو السم لكن في لقائك ترياق  
فيا شمس فضل غربت، ولضوئها      على كل قطر بالمشارك إشراق  
سقى العهد عهدًا منك عمر عهده      بقلبي عهد لا يضيع وميثاق  
يجده ذكر يطيب كما شدت      وريقاء كتها من الأيك أوراق

(١) ياقوت: ج ٢، ص ٢٦١.

(٢) ياقوت: ج ٢، ص ٢٦٥.

وأكثر أخلاق الخليفة إخلاق  
ديارك عن داري هموم وأشواق  
جرت ولها ما بين جفني إحراق  
خلال التراقي والترائب تشهاق  
فلي منه في صعب النوائب إنفاق  
لجيش خطوب صدها منه إرهاق  
غرور، وأن الكنز فقر وإملاق  
وليس له من رق ودك إعتاق  
ومطرّد طامي الغوارب خفاق  
طلائح أنضها زميل وإعناق  
يلازم أعناق الحمامم أطواق  
كعهدي، وثغر الثغر أشنب براق  
من القرب كالصنوين ضمهما ساق  
بها حسدت منا المسامع أحداق  
مفيد إلى قلب المحدث سباق  
له كل بحر فائض اللج رقراق  
تضمنها عذب من اللفظ غيداق  
لأبكارها الغر الفلاسف عشاق  
غرام وقلب دائم الفكر تواق  
وأهلوه مشتاق يشم وذواق  
لعائق عذر والمقادير أوهاق  
فإن لم يكن رد علي فإغراق  
مفاتيح في أبوابهن وأغلاق

لك الخلق الجزل الرفيع طرازه  
لقد ضاءلنتي يا أبا الصلت مذنأت  
إذا عزني إطفأؤها بمدامعي  
سحائب يحدوها زفير يجره  
وقد كان لي كنز من الصبر واسع  
وسيف إذا جردت بعض غرارة  
إلى أن أبان البين أن غراره  
أخي، سيدي، مولاي دعوة من صفا  
لئن بعدت ما بيننا شقة النوى  
وييد إذا كلفتها العيس قصرت  
فعندي لك الود الملازم مثل ما  
ألاهل لأيامي بك الغر عودة  
ليالي يدنينا جواب أعادنا  
وما بيننا من حسن لفظك روضة  
حديث، حديث كلما طال، موجز  
يرجيه بحر من علومك زاخر  
معان كأطواد الشوامخ جزلة  
به حكم مستنبطات غرائب  
فلوعاش رسطاليس كان له بها  
فيا واحد الفضل الذي العلم قوته  
لئن قصرت كتبي فلا غرو إنه  
كتبت وآفات البحار تردها  
بحار بأحكام الرياح فإنها

وَمَنْ لِي أَنْ أَحْظِيَ إِلَيْكَ بِنَظْرَةٍ      فَيَسْكُنُ مَقْلَاقَ وَيَرْقَأُ مَهْرَاقًا<sup>(١)</sup>

فهذه القصيدة التي بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبي الصلت، إن دلت على شيء فإنما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وفاء وإخلاص وود، وما كان عليه أمية من علم وفضل، وما كان عليه الصديقان من صفاء ووفاء.

أمّا علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالي، فيقول القفطي: «ودخل مصر في أيام أفضلها فلم ينل منها إفضالاً، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالاً»<sup>(٢)</sup>. ولكنني أشك في قول القفطي، وأزعم أن الأفضل قرّب إليه أمية، وأجزل له العطاء، فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل، وكان الأفضل يجزل له النوال. فمن شعر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدها يذكر تجريده العساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصة، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قومًا من الأجناد وغيرهم أرادوا الفتك بالأفضل، فوقع على خبرهم، وقبض عليهم وقتلهم، والقصيدة هي:

هي العزائم من أنصارها القدر	وهي الكتائب من أشياعها الظفر
جردت للدين والأسياف مغمدة	سيفاً تفل به الأحداث والغير
وقمت إذ قعد الأملاك كلهم	تذب عنه وتحميه وتتصر
بالببيض تسقط فوق البيض أنجمها	والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
بيض إذا خطبت بالنصر ألسنها	فمن منايرها الأكباد والقصر
وذبل من رماح الخط مشرعة	في طولهن لأعمار العدا قصر
يغشى بها غمرات الموت أسد شرى	من الكهاة إذا ما استنجدوا ابتدروا

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة: ج ٢، ص ٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢ م).

(٢) أخبار الحكماء: ص ٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ هـ).

شبهتها خلجًا مرت بها غدر  
 فما يضر ظباها أنها بتر  
 كالشمس طالعة والليل معتكر  
 كأنما الدم راح والظبا زهر  
 قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر  
 عقبى النجاح ووعد الله يتتظر  
 بما يسرك ساعات لها آخر  
 لك الحجول من الأيام والغرر  
 والخيال تردى ونار الحرب تستعر  
 هي الدخان وأطراف القنا شرر  
 كصفحة البكر أدمى خدها الخفر  
 ولا يصدك لا جبن ولا خور  
 سيان عندك قلّ القوم أو كثروا  
 هي الشجاعة إلا أنها غرر  
 سواك كهف ولا ركن ولا وزر  
 أن المنى خطرات بعضها خطر  
 لو كان سدد منه الفكر والنظر  
 وسط العرين ظباء الربرب العفر  
 كوقفة العير لا ورد ولا صدر  
 إن السيوف لأهل البغي تدخر  
 عن الجرائر تعفو حين تقتدر  
 وفي الذنوب ذنوب ليس تغتفر  
 وما هن سوى هام العدا ثمر  
 إلا بحيث ترى الهامات تنتشر

مستلثمين إذا سلوا سيوفهم  
 قوم تطول بيض الهند أذرعهم  
 إذا انتضوها وذيل النقع فوقهم  
 ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربًا  
 وإن هم نكصوا يومًا فلا عجب  
 العود أحمد والأيام ضامنة  
 وربما ساءت الأقدار ثم جرت  
 الله زان بك الأيام من ملك  
 لله بأسك والأبواب طائشة  
 وللعجاج على صم القنا ظلل  
 إذ يرجع السيف بيدي خده علقًا  
 وإذا تسد مسد السيف منفردًا  
 أما يهولك ما لا قيت من عدد  
 هي السباحة إلا أنها سرف  
 الله في الدين والدنيا فما لها  
 ورام كيدك أقوام وما علموا  
 هيهات أين من العيوق طالبه  
 إن الأسود لتأبى أن يروعها  
 أمر نووه ولو هموا به وقفوا  
 فاضرب بسيفك من ناواك منتقمًا  
 ما كل حين ترى الأملاك صافحة  
 ومن ذوي البغي من لا يستهان به  
 إن الرماح غصون يستظل بها  
 ليس يصبح شمل الملك منتظمًا

والرأي رأيك فيما أنت فاعله  
أضحى شهنشاه غيثًا للندى غدقًا  
الطاعن الألف إلا أنها نسق  
ملك تبوأ فوق النجم مقعده  
يرجى نداءه ويخشى عندي سطوته  
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد  
ولا بصرت بشمس قبل غرته  
يا أيها الملك السامي الذي ابتهجت  
جاءتك من كلم الحاكي محبرة  
هي اللالئ إلا أن ناظمها  
تبقى وتذهب أشعار ملفقة  
ولم أطلها لاني جد معترف  
بقيت للدين والدنيا ولا عدت  
ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو في سجنه بقصيدتين إلى الأفضل  
يمدحه بهما: الأولى لامية مطلعها:  
الشمس دونك في المحل  
والثانية بائية مطلعها:  
نسخت غرائب مدحك التشيبيا  
وكفى بها غزلاً لنا ونسيباً<sup>(٢)</sup>  
وفي هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل، وأيادي  
الأفضل عليه، ومدائح أمية فيه، ويعتذر إليه من أقوال الوشاة والحاسدين

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة: ج ٢، ص ٥٦.

(٢) طبقات: ج ٢، ص ٥٢.

الذين أغرو الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه، فمثل هذه الأبيات التي أنشدتها أمية في الاعتذار عن وشاية الواشين، تدل على أن صلة الوزير بالشاعر كانت صلة قوية، وأن الشاعر كان مقرباً للوزير فحسده الناس، وأن الشاعر مدح الوزير فأعطاه الوزير صلوات، ومع ذلك نرى القفطي يدّعي أن الوزير لم يعط الشاعر شيئاً، ويخيل إليّ أن القفطي اتهم الأفضل بذلك لأنه حسب الشاعر مدة طويلة.

ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر، اتصل فيها بالحياة المصرية، وشارك المصريين في أعيادهم وحفلاتهم، وأنشد في ذلك شعراً حُفِظَ بعضه وضاع أكثره، فمما حُفِظَ من ذلك قوله في النيل من قصيدة كتبها إلى الأفضل ليلة المهرجان:

أبدعت للناس منظراً عجباً	لا زلت تحيي السرور والطرباً
ألفت بين الضدين مقتدرًا	فَمَن رأى الماء خالط اللهبًا!
كأنما النيل والشموع به	أفوق سماء تَأَلَّقَتْ شهبًا
قد كان من فضة فصار سماً	وتحسب النار فوقه ذهبًا <sup>(١)</sup>

وخرج إلى المنتزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة، والشعراء خاصة، ووصف بعضها بالثر والشعر، فمن ذلك قوله في بركة الحبش: فافترشنا من زهرها أحسن بساط، واستظللنا من دوحها بأوفى رواق، وطلعت علينا من زجاجات الأقداح شمس في خلع البدور، ونجوم بالصفاء تنور، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء، فقال في ذلك بعضنا (ويقصد نفسه):

لله يومى ببركة الحبش والأفق بين الضياء والغيش

والنيل تحت الرياح مضطرب  
قد نسجتها يد الغمام لنا  
ونحن في روضة مفوفة  
فعاطني الراح إن تاركها  
واسقني بالكبار مترعة  
فأثقل الناس كلهم رجل  
كصارم في يمين مرتعش  
فنحن من نسجها على فرش  
دبج بالنور عطفها ووشي  
من سورة الهم غير منتعش  
فهن أشفى لشدة العطش  
دعاه داعي الصبا فلم يطش<sup>(١)</sup>

وبالرغم من هذه الأبيات التي تدل على أن أمية نَعِمَ في مصر بطبيعتها ولهوها، وقدّرهُ المصريون لعلمه وأدبه، فحظي بصدّاقة عدد كبير منهم، فإنه خرج من مصر غاضبًا يهجو مصر والمصريين، شأنه في ذلك شأن دعبل الخزاعي، وأبي تمام، والمتنبي، وغيرهم من ذوي الأطماع التي لا تقف عند حد، فهؤلاء الشعراء وفدوا على مصر لقصد النوال والعطاء من أمراء مصر، فأغدق هؤلاء عليهم ما وسعهم، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا العطاء السخي، وويل لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مطامعهم، فهذا هو ذا أمية يهجو المصريين جميعًا بقوله:

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدًا  
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا  
يسلي من الهم أو يعدي على النوب  
كانت مواعيدهم كالأل في الكذب<sup>(٢)</sup>

نعم، هكذا زعم أمية، كما زعم دعبل وأبو تمام والمتنبي من قبل، فمصر التي أكرمت هؤلاء الشعراء فمدحوها، هي مصر التي هجوها بعد أن رحلوا عنها.

(١) الرسالة المصرية، وخطط المقرئ: ج ٢، ص ١٥٥، ومعجم الأدباء.

(٢) القفطي: ص ٥٧.

## أبو علي الأنصاري:

قلنا: إنَّ عددًا كبيرًا من شعراء مصر اتصل بالأفضل بن بدر الجمالي، وأنشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم، فمن هؤلاء الشعراء أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي أثنى عليه القاضي الفاضل بقوله: «إنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله»<sup>(١)</sup>. ويقول عنه صاحب الخريدة: وله قصيدة في مدح أفضلهم يصف خيمة الفرخ، يدل إحسانه فيها على أن بحره طامي اللجج، ودره نامي البهج، وأقتبس منها قوله:

وأبدت العجز منها هذه الهمم  
ويقظة ما نراه منك أم حلم؟  
تسمو علوًا على أفق السها الخيم  
في مارن الدهر من تيه بها شمم  
أن احتوت وأنت الناس كلهم  
حتى ليصر علمًا أنها علم  
أضحت تجاورها الآساد والأجم  
لما تحققت منها أنها حرم  
مصور، وكلا الجيشين مزدحم  
فمقدم منهم فيها ومنهزم  
فليس تنزع عنها الحزم واللجم  
فكلهم لغمار الحرب مقتحم  
فقد تسالمت الأسياف والقمم  
لا يستطيل على أعمارهم هرم  
للفرقدين وفي سمعها صمم

مجدًا فقد قصرت عن شأوك الأمم  
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك  
ما كان يخاطر في الأفكار قبلك أن  
حتى أتيت بها شماء شاهقة  
إن الدليل على تكوينها فلكا  
يمد من في بلاد الصين ناظره  
ترى الكناس وآرام الطبء بها  
والطير قد لزمت فيها مواضعها  
لديها جيش، وجيش في جوانبها  
إذا الصبا حركتها ماج موكبها  
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها  
علمت أبطالها أن يقدموا أبدًا  
أمنتهم أن يخافوا سطوة لردى  
كأنها جنّة، فالقاطنون بها  
علت فخلنا لها سرًا تحدثه

(١) الخريدة: ص ١١١.

وقد همت فوقها من كفك الديم  
أصبحت فالأب به تستبشر الأمم

إن أنبتت أرضها زهراً فلا عجب  
يا خيمة الفرخ الميمون طائرها  
ومنها يقول في مدح الأفضل:

وكم له نعم في طيها نعم  
إذن رأيت المعالي فيك تختصم  
في ناظر الشمس من لألائها سقم  
تود لو أنها في المدح تنتظم

ما قال لا قط مذ شدت تمائمه  
لو كنت شاهد شعري حين أنظمه  
أزرتك اليوم من فكري محبرة  
ترى النجوم للفظي فيك حاسدة

ولكن هذا الشاعر النابه، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات، لقي حتفه بسبب حسد الشعراء له؛ ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن بن الحافظ، ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصاري، ودسّهما في رقاعه، ثم سعى به إلى ابن الحافظ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري أمر بقتله، ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء، ولا طول خدمته في ديوان المكاتبات، فإن هذه الأبيات التي رويناها له في وصف الخيمة ومدح الأفضل، إن دلت على شيء فإنما تدل على أن للشاعر خيالاً مخلصاً، ومقدرة مطاوعة للقريض مع حسن ديباجة.

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء، والويل كل الويل للشاعر الذي لا يجعل شعر مدحه لهم، فهو يُبعد ولا يُلتفت إليه، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بابن مكنسة أبي طاهر إسماعيل بن محمد، فقد انقطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من النصارى يُعرف بأبي مليح، وأكثر أشعاره فيه، ولما توفي هذا العالم رثاه الشاعر بقوله:

وكورت شمس المديح  
بعدموت أبي مليح

طويت سماء المكرمات  
ماذا أرجي في حياتي

ما كان بالنكس الدني      من الرجال ولا الشحيح  
كفر النصارى بعد ما      عقدوا به دين المسيح

فلما ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به، ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكنسة في أبي مليح، فلم يقبل مدائحهم، حتى ينس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول:

مثلي بمصر وأنت ملك      يقال ذا شاعر فقير  
عطاؤك الشمس ليس يخفى      وإنما حظي الضرير

وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذي مدحهم أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية، وأثنى عليه بقوله: «ومن شعرائها المشهورين: أبو طاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة، شاعر كثير التصرف، قليل التكلف، يفتن في نوعي جد القريض وهزله، وضارب بسهم في رقيقه وجزله»<sup>(١)</sup>. فمع ذلك كله لم يوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل، فظل بعيداً عن شعراء الوزارة.

ولعل ابن مكنسة كان أحسن حظاً من الشاعر علي بن عباد بن الإسكندري، فقد كان هذا الشاعر منقطعاً لمدح الوزير أبي علي بن الأفضل عندما كان هذا الوزير مستبداً بالبلاد وبالخليفة، بل حبس الخليفة الحافظ، حتى بلغ استبداده حداً لا يطاق، واستطاع الحافظ أن يتمكن منه، وأن يقتله في الميدان، وتتبع كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم، ومنهم هذا الشاعر. ويروي العماد أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها: «تبسم الدهر لكن بعد تعبيس»، وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله:

(١) الرسالة المصرية.

وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن

فكانت هذه القصيدة سبب مقتله، ويقول ابن ميسر: إن الحافظ أمر بإحضار الشاعر، فلما امتثل بين يديه قال له: أنشدني قصيدتك. فأخذ الشاعر في إنشادها حتى قال منها في بيت:

ولا ترضوا عن أنجس المناجيس

يعني الحافظ وآباءه، فأمر حينئذ أن يلكمه الغلمان حتى مات بين يديه<sup>(٢)</sup>. بل كانت هذه القصيدة سبباً في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٣١هـ، فقد روي أن القاضي عندما سمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضيته طرباً، فلما قتل الوزير صُرف القاضي عن عمله وقُتل<sup>(٣)</sup>. وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله: «علي بن عباد الإسكندري، شاعر كان يجلو غرر المدائح، وكانت ممن الوزراء تستعطف أعنة قصائده، فيرد عليهم مسردها»<sup>(٤)</sup>.

وكان بين شعراء الأفضل من نغم عليه فهجاه، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالناجي المصري الذي ذكره أمية في رسالته المصرية، فقد هجا الأفضل بقوله:

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلقة

إن كنت قد نلتها مراغمة فهي على الكلب بعدكم صدقة

فأمر الأفضل بنفيه إلى الواحات، فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضي<sup>(٥)</sup>.

(١) الخريدة: ورقة ٩٨.

(٢) ابن ميسر: ص ٨١.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) مسالك الأبصار: ج ١٢، ص ٢١٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية).

(٥) الخريدة: ١٣٠أ.

### ظافر الحداد:

على أن عصر الأفضل لم يشاهد شاعرًا مثل ظافر الحداد؛ بالرغم من كثرة الشعراء وتفوقهم جميعًا في هذا الفن، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم، وكان أكثرهم من كتّاب الدواوين، أما ظافر فكان حدادًا بالإسكندرية، ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره، واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء، وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته، فيزيد بها مداركه وثقافته، فقد رأيناه صديقًا لأمية بن أبي الصلت. ويحدثنا ابن خلكان أن الحافظ أبا طاهر السلفي وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد<sup>(١)</sup>.

واتصل ظافر برجال الدولة فأعجبوا به وبشعره، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من عامة الشعب في حالة متواضعة من العيش، ويروي ابن خلكان قصة تدل على ذلك كله، تلك هي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسين الأمدي دخل على والي الإسكندرية الأمير السعيد بن ظفر، فوجده يقطر دهنًا على خنصره، فسأله القاضي عن سببه، فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم قبل أن يتفاقم الأمر فيه، فاستدعى ظافرًا الحداد فقطع الحلقة، وأنشد بين يدي الوالي:

قصر عن أوصافك العالم      وكثر الناثر والناظم  
من يكن البحر له راحة      يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر، ووهب لظافر الحلقة، وكانت من الذهب، ويخيل إليّ أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر، وأن ظافرًا الحداد أدرك

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٤١.

ما كان يجول بخاطر الأمير، فاعتنم فرصة وجود غزال مستأنس قد ربض بين يدي الوالي، وجعل رأسه في حجره، فارتجل ظافر:

عجبت لجرأة هذا الغزال      وأمر تخطى له واعتمد  
وأعجب به إذ بدا جائئاً      وكيف اطمأن وأنت الأسد

فزاد الحاضرون في الاستحسان، وكأني بظافر وقد طمع في أن يعترف الحاضرون بسرعة بديته، وقدرته على الارتجال، فقد التفت حوله في قاعة المجلس، فوجد شيئاً كان على الباب ليمنع الطير من دخولها، فأنشد:

رأيت ببابك هذا المنيف      شباناً فأدركني بعض شك  
وفكر فيما رأى خاطري      فقلت: البحار مكان الشبك<sup>(١)</sup>

فهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم الشعر، وأن شعره طبيعي لا تكلف فيه، وأنه كان يرتجل الشعر ببديته، مما جعل الناس في عصره يحبونه، ويعجبون به، وها هو ذا العماد الأصفهاني يحدثنا عنه بقوله: «ظافر بحظه من الفضل ظافر، يدل نظمه على أن أدبه وافر، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله له غافر، حداد لو أنصف لسُمِّي جوهرياً، وكان باعتزائه إلى نظم اللائي حرياً، أهدى بروي شعره الروي للقلوب الصادية رياً، فيا له ناظماً فصيحاً مفلحاً جرياً»<sup>(٢)</sup>. ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جُمع في ديوان كبير، ولكن هذا الديوان فُقد، ولم يبقَ من شعره إلا أبيات من قصائد.

من ذلك قوله:

لو كان بالصبر الجميل ملاذه      ماسح وابل دمه ورذاذه

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) الخريدة: ورقة (٦٠ أ).

حتى وهى وتقطعت أفلاذه  
 إلا رسيس محتويه جذاذه  
 أبداً من الحدق المراض عياده  
 نظري يضر بقلبك استلذاذه  
 سهم إلى حب القلوب نفاذه  
 خربه قد جال من نباذه؟  
 وسنان ذاك اللحظ، ما فولاذه؟  
 أخشى بأن يجفو عليه لاذه  
 وهو الإمام، فمن ترى أستاذه؟  
 إلا وعز على الورى استتقاذه  
 طوعاً وقد أودى بها استحواذه  
 جهدي فدام نفوره ولواده  
 كذليله وغنيه شحاذه

ما زال جيش الحب يغزو قلبه  
 لم يبق فيه مع الغرام بقية  
 من كان يرغب في السلامة فليكن  
 لا تحمدك بالفتور فإنه  
 يأبى الرشأ الذي من طرفه  
 در يلوح بفيك، من نظامه  
 وقناة ذاك القد كيف تقومت  
 رقفاً بجسمك لا يذوب فإنني  
 هاروت يعجز عن مواقع سحره  
 تالله ما علقت محاسنك امرأ  
 أغريت حبك بالقلوب فأذعنت  
 مالي أتيت الحظ من أبوابه  
 إياك من طمع المنى فعزيزه  
 ومنها أيضاً:

قوم غداة نبت به بغداذه  
 طمعاً بهم صرعاه أو جذاذه  
 قد كان ليس يضره إنفاذه<sup>(١)</sup>

دالية ابن دريد استهوى بها  
 دانوا لزخرف قوله ففرقت  
 من قدر الرزق السني لك إنما

فمن هذه الأبيات وغيرها مما حُفِظَ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره سهل طبيعي، ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة، وقد لاحظ العمد أن ظافراً الحداد كان لحنة، واستشهد بقصيدته الزائفة الشهيرة:

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٤٢، ومعجم الأدباء لياقوت: ج ١٢، ص ٣١ (طبعة رفاعي).

حكم العيون على القلوب يجوز  
 كم نظرة نالت بطرف ذابل  
 فحذار من تلك اللواظ غرة  
 ياليت شعري والأمانى ضلة  
 هل لي إلى زمن تصرم عهده  
 وأزور من ألف البعاد وحبه  
 ظبي يناسب في الملاحه شخصه  
 والبدر والشمس المنيرة دونه  
 لولا تشني خصره في ردفه  
 تجفو غلالته عليه لطافة  
 من لي بدهر كان لي بوصاله  
 والعيش مخضر الجنب أنيقه  
 والماء يبدو في الخليج كأنه  
 والروض في حلل النبات كأنها  
 والزهر يوهم ناظريه كأنها  
 فأقاحه ورق، وساقط طله  
 وكأنها القمري ينشد مصرعاً  
 وكأنها الدولاب يزمر كلما  
 يارب غانية أضربقولهها  
 فأجبتها: ما عازني نيل الغنى  
 ما خاب من هضم التفضل ماله

ودواؤها من دائهن عزيز  
 ما لا ينال الذابل المهزوز  
 فالسحر بين جفونها مكنوز  
 والدهر يدرك صرفه ويحيز  
 سبب فيرجع ما مضى فأفوز  
 بين الجوانح والحشا مركزوز  
 فالوصف حين يطول فيه وجيز  
 فالحسن منه يروق والتميز  
 ما خلقت إلا أنه مغرور  
 فبجسمه من جسمها تطريز  
 سمجاً ووعدى عنده منجوز  
 ولأوجه اللذات فيه بروز  
 أيم لسرعة سيره محفوز  
 فرشت عليه ديابج وخزوز  
 ظهرت به فوق الرياض كنوز  
 درر، ونور بهاره إبريز  
 من كل بيت، والحمام يحيز  
 غنت، وأصوات الضفادع شيز  
 أني بلفظة معدم منبوز  
 لكن مطالبة الحميد تعوز  
 كرمًا ووافر عرضه محروز

فأخذ عليه العماد قوله: «عازني»، والصحيح: «أعوزني»، وأخذ عليه قوله: «تعوز» والصحيح: «تُعوز»، وأخذ عليه قوله: «محروز» والصواب: «محرز»<sup>(١)</sup>. ولكن نسي العماد أن الشاعر مصري، وقد ذكرنا في أدب مصر الإسلامية صوراً من اللحن الذي وقع فيه ككتاب مصر وشعراؤها، وقلنا: إنَّ المصريين لا يراعون قواعد الصرف والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد، ونحن لا نستطيع أن نؤاخذ ظافراً الحداد بهذه الألفاظ التي لم يراع فيها قواعد الصرف، فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي مع معرفته، إذا أنشد بيتاً من الشعر لم يقم بإعرابه<sup>(٢)</sup>. ومَن يتتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث، فسيجد عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التي هي من مقومات الشعر.

ومهما يكن من شيء، فإن حياة ظافر الحداد غامضة؛ لعدم وجود ما يكشف عنها، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ..

## [٢] شعراء بني رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية:

قُتِل الخليفة الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة، فكتب خدام القصر إلى طلائع بن رزيك، وإلى قوص وأسوان والصعيد، يخبرونه بقتل الخليفة، ويستنجدونه على القاتل، وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه، ولعب الشعر دوراً هاماً في دعوة طلائع للأخذ بثأر الخليفة، فقد كانت قصيدة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس، التي أرسلها إلى طلائع بن رزيك، من أشد الرسائل التي وصلت إليه أثراً في نفسه، فطلّاع كان شاعراً مجيداً، ويصفه ابن خلكان بقول: «كان فاضلاً سمحاً في العطاء، سهلاً في

(١) الخريدة: ورقة ٨٧، وكتاب روضة الأدب في طبقات الشعراء العرب للشهاب الحجازي: ص ٧٥ (طبعة بمباي الهند).

(٢) الفهرست لابن النديم: ٧٩.

اللقاء، محباً لأهل الفضائل، جيد الشعر، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين»<sup>(١)</sup>. ولذلك كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل.

فمن هذه القصيدة قول الجليس:

دهنتي عن نظم القريض عوادي  
وأرق عيني والعيون هواجع  
بمصرع أبناء الوصي وعتره الند  
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم  
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى  
لقد هدر ركن الدين ليلة قتله  
تدارك من الإيمان قبل دثوره  
وقد كاد أن يطفى تألق نوره  
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم  
وشف فؤادي شجوه المتماذي  
هموم أقضت مضجعي ووسادي  
سبي وآل «الذاريات» و«صاد»  
وما لهم من منعة وذياد  
وسم العدا من حاضرين وباد  
بخير دليل للنجاة وهاد  
حشاشة نفس أذنت بنفاد  
على الحق عاد من بقية عاد  
ومصرعهم لم تكتحل برقاد<sup>(٢)</sup>

جاء طلّاع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة، واستولى على الوزارة، وإذا قلنا الوزارة فإنما نقصد أنه تولى الحكم الفعلي في البلاد، ولذلك لُقّب بالملك الصالح، وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعلماء والشعر والشعراء، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه، ونقل العماد عن خطبة ديوان الصالح: «فقد نشرت أيامه مطوي الهمم، وأنشرت رفات الجود والكرم، ونفقت بدولته سوق الآداب بعدما كسدت، وهبت ريح الفضل بعدما ركدت، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف، كان لهوه بالعلوم والمعارف، وإن عمروا

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٣٨.

(٢) النجوم: ج ٥، ص ٢٩٢.

أوقاتهم بالخمير والقمر، كانت أوقاته معمورة بالنهي والأمر»<sup>(١)</sup>. ووصفه عمارة اليميني بقوله: «فكان مرتاضاً قد شم أطراف المعارف، وتميز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة، وكان شاعراً يحب الأدب وأهله، ويكرم جلسيه ويبسط أنيسه»<sup>(٢)</sup>. ويروي عمارة قصة وفوده على مصر أول مرة، وكيف دخل متنكراً في زي رسول من قبله على الأجل أبي الهيجاء صهر الملك الصالح، وطلب إليه أن يحمل عنه مئونة السجود عند السلام على الخليفة والوزير، فسأله أبو الهيجاء عن عمارة، فقال له: هو فقيه وعنده طرف من الأدب، فقال: تعني شاعراً! قال: نعم. قال: هذه نقيصة في حقه. فلما كان في اليوم التالي استدعي أبو الهيجاء للغداء عند الصالح، فقال أبو الهيجاء: عندي رسول صاحب مكة، وكنت أظنه عاقلاً وإذا هو ناقص. فقال له الصالح: وبأي شيء عرفت نقصه؟ قال: لكونه يحسن شيئاً من هذا السحت الذي تعلمه أنت والجلسيس وابن الزبير. قال الصالح: لعله شاعر؟ قال: نعم. قال الصالح: هاته، هات الرجل. ثم أنشد:

إِنَّ الَّذِي تَكْرَهُونَ مِنْهُ      ذَاكَ الَّذِي يَشْتَهِيهِ قَلْبِي<sup>(٣)</sup>

فهذه القصة إن دلت على شيءٍ، فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان مولعاً بالشعر مقرباً للشعراء، ومن عجب أن يجتمع في بلاطه أكبر أعيان أهل الأدب، مثل: الجليس، والموفق بن الخلال، وابن قادوس، والمهذب بن الزبير، والرشيد بن الزبير... وغيرهم الذين وصفهم عمارة بقوله: «وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، وما زلت أأخذو على طرائقهم، وأعرض جذعي في سوابقهم، حتى

(١) الخريدة: ورقة ٣٢ ب.

(٢) النكت: ص ٤٨.

(٣) النكت: ص ١٢٢.

أثبتوني في جرائدهم»<sup>(١)</sup>. فهو لاء الأعلام كانوا يجتمعون في مجلس الملك الصالح يتناشدون الشعر، ويتناظرون في بعض المسائل العلمية والأدبية، ويستمعون إلى شعر الملك الصالح، وفي ذلك يقول صاحب النجوم الزاهرة: «وجعل له مجلسًا في أكثر الليالي يحضره أهل الأدب، ونظم هو شعرًا ودوّنه، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره، وربما أصلحه له شاعر كان يصحبه، يقال له: ابن الزبير»<sup>(٢)</sup>. ويظهر أن الملك الصالح كان ينشد القصيدة أو المقطوعة، ولكنه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن الزبير، وعلى غير المهذب ممن كان يتوسم فيهم مقدرة وكفاية على تثقيف الشعر؛ إذ يحدثنا عمارة اليميني: «ودخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان، سنة ست وخمسين وخمسة مائة قبل أن يموت بثلاث ليالٍ بعد قيامه من السماط، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليلة، فأمر لي بذهب، وقال: لا تبرح. ودخل ثم خرج إليّ وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة، وهما:

نحن في غفلة ونوم وللمو  
ت عيون يقظانة لا تنام  
قد رحلنا إلى الحمام سنينا  
ليت شعري متى يكون الحمام؟

ثم قال لي: تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء. قلت: هما صالحان»<sup>(٣)</sup>. فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر في عصره لإصلاح شعره، وليس في ذلك ما ينقص من قدرته في الشعر، والمؤرخون يحدثوننا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء، فمروان بن أبي حفصة شاعر هارون الرشيد الرسمي كان يعرض شعره على بشار بن برد، وكان البحثري يعرض شعره على أبي تمام، وكان أكثر الشعراء يعرضون

(١) النكت: ص ٣٥.

(٢) النجوم: ج ٥، ص ٣١٣.

(٣) النكت: ص ٤٩.

شعرهم على الأصمعي أو غيره من اللغويين، فإذا كان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد استعان بالمهذب أو بعمارة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره، فإن ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر، فلم يستبج لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه، ولكن ياقوت ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير: «وقيل: إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير»<sup>(١)</sup>. ولا أدري من أين استقى ياقوت هذا الخبر، وربما اشتبه عليه الأمر فظن أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذي في ديوان ابن رزيك بدلاً من أنه كان يثقف هذا الشعر، وقد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح، منها:

ولنار فطته تريك لشعره	عذباً يروي غلة الظمان
وعقود در لو تجسم لفظها	مارصعت إلا على التيجان
وتنزهت عن أن يرى أفوادها	لمواضع الأقراط والآذان
من كل رائقة الجمال زهت بها	بين القصائد غرة السلطان
سـيارة في الأرض لا يعتاقها	في سيرها قيد من الأوزان <sup>(٢)</sup>

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات، وإن كان ابن الزبير قد غالى في وصفه له، ولكنه كان يمدح صاحب الملك، ومهما يكن من شيء فإن المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مُكثِّراً من قول الشعر، حتى جُمع شعره في ديوان من جزأين، ولكن الذي بقي لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة، من ذلك قوله يتغزل:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى	أعطافه النشوات من عينيه
---------------------------	-------------------------

(١) معجم الأدباء: ج ٩، ص ٤٧.

(٢) الخريدة: ص ٤١.

سيفي غداة الروع من جفنيه  
في خده أليفه لا لاميّه  
أهدابه نفضت على خديه  
فيهم وقلبي الآن طوع يديه  
ويجور سلطان الغرام عليه  
مستقبح لفررت منه إليه<sup>(١)</sup>

ويحدثنا العماد في الخريدة أن أبا الحسن علي بن قيسر أنشد في الملك

الصالح قصيدته التي أولها:

في سرد ماطله وفي تحقيقه

لا فرق بين خياله ووصاله

والتي منها:

وضياء بهجته كبعض شروقه  
فمكلف السلوان غير مطيقه  
تبليغها للحر من توفيقه  
في الفضل عند الناس في عيوقه  
مثل العقاب مفردًا في نيقه  
من ليس ينفق باطل في سوقه  
واعمل بكل الجهد في تطليقه

والله ما للشمس في إشراقها  
لا تجعل الهجران بعض عقوبتي  
بلغ إلى الملك الهام أمانة  
حتام حظي في الحضيض وإنه  
مثلي بمصر وأنت مالك رقه  
ولقد أشاع الناس أنك في الوري  
أبطل بنور العقل سلطان الهوى  
فأجابه الصالح بقصيدة منها:

وبدا اليقين لنا بلمع بروقه  
فيها بديع الوشي من تنميقه  
من ورده وبهاره وشقيقه

نفق التأذب عندنا في سوقه  
أهدى لي القاضي الفقيه عرائسًا  
فأجلت طرفي في بديع رياضه

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٣٨.

يد عاشق تهوي إلى معشوقه  
وأتى فسد عليه مر طريقه  
يعتد من جاره من مسبوقة  
شأ و امرئ أصبحت غير مطيقه  
في جمعه طورًا وفي تفريقه  
فمتى أراه يكف عن تحريقه  
من بحرهِ يومًا نجاة غريقه  
فحظيت من زهر الربا بأنيقه  
غالي فكل الخلق في تصديقه  
من دون حاجاتي أقل حقوقه  
لا مهمل أبدًا أمور صديقه  
قد عمّ فانظر منه في تحقيقه<sup>(١)</sup>

فكانها اجتمع الأحبة فانبرت  
أدب سعى منه إلى غاياته  
ولقد علمت بأن فضلك سابق  
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان في  
وأرى الزمان جرى على عادته  
والشوق في قلبي تضرّم وهجه  
والدمع من عينيّ سحّ، فهل يرى  
نزّهت في بستان نظمك ناظري  
أنت امرؤ من قال فيك مقالة الـ  
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي  
وكذا الكريم فمهمل لأموره  
هذا النجاح فكل ما قدرته

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التي بقيت لنا من شعر الصالح، أن ندرك أن الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني أكثر من عنايتهم باللفظ، وأنه لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات، ولكن التشبيهات تأتي في شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع، ولم يكن الصالح شاعرًا فحسب؛ بل كان من علماء المذهب، ويقول المقريزي: إن له قصيدة سماها الجوهرة في الرد على القدرية، وأنه صنّف كتابًا سماه: «الاعتماد في الرد على أهل العناد»، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه، وهو كتاب يبحث في إمامة علي بن أبي طالب والأحاديث النبوية التي وردت فيه<sup>(٢)</sup>.

(١) الخريدة: ورقة ٦٩ ب.

(٢) خطط: ج ٤، ص ٨٢.

وتوفي الملك الصالح سنة ٥٥٦هـ، وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيق بن الصالح، وكان شاعراً مثل أبيه، ناقدًا للشعر عارفاً بجيده من رديئه. ويقول عمارة عنه: وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر، ويستحسنه، ويشيب عليه<sup>(١)</sup>.

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال:

لا يقولن جاهل بالقوافي      ذهب الناقد السميع البصير  
فالمرجى أبو شجاع عليم      بمقادير أهلهم خير<sup>(٢)</sup>

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله؛ لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل، يقول عمارة: «ومن محاسن أيامه وما يؤرّخ عنها، بل هي الحسنة التي لا توازي، واليد البيضاء التي لا تجازي: خروج أمره إلى والي الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب واستخدامه»<sup>(٣)</sup>. فكان دقة إحساس الملك الناصر، وتذوقه للشعر والكتابة الفنية، ومعرفته للجيد من الشعر والنثر، جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة، ولولا ذلك لظل القاضي الفاضل مغموراً مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تُتَح لهم تلك الحظوة، فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم. فلا غرو أن رأينا عمارة اليميني يرفع من شأن هذا الكشف ويعده «الحسنة التي لا توازي، واليد البيضاء التي لا تجازي»، ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له، وموقف القاضي الفاضل منه، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء، وتلك الحسنة سيئة.

(١) النكت: ص ٥٢.

(٢) النكت: ص ٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ٥٣.

لم تمهل الأيام الملك الناصر؛ إذ قُتِل سنة ٥٥٨هـ، وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام، وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكي في أمر هذه المنازعات، وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه، ثم صلاح الدين الأيوبي الوزارة، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضي على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧هـ.

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر، لم ينسَ الوزراء الشعر والشعراء؛ فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء، ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغامًا قصيدة منها:

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب	دينًا أبا حسن يبقى على الحقب
أيامك البيض لا تحصى، وأفضلها	يوم خصصت به في قاعة الذهب
وفيت للصالح الهادي وقد غدرت	به الصنائع من ناء ومقرب

فقال ضرغام: لو قلت «بعدت» كان أصلح من «غدرت». قلت: إنها أردت مقابلة الوفاء بالغدر. قال: وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر<sup>(١)</sup>.

ولعله هذه القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر، ونفاذ بصيرته في نقده. وفي هذه الأيام العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفي كبار شعراء العصر؛ فالجليس توفي سنة ٥٦١هـ، وفي هذه السنة عينها توفي المهذب بن الزبير، وتوفي الرشيد بن الزبير سنة ٥٦٢هـ، ولم يُعد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبل؛ فقد ذكر عمارة أنه أنشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبس إبان وزارته الثانية، ومن هذه القصيدة:

أسمع بذا الفتح المبين وأبصر	واقصر عليه خطا الهناء وأقصر
فتح أضواء به الزمان كأنه	وجه البشير وغرة المستبشر

ما كان من فتح الوصي خيبر  
طالبت، وأي ولادة لم تعسر  
وضعته تمّا عن ثلاثة أشهر

فتح يذكرونا وإن لم ننسه  
فتح تولد يسره من عسرة  
حملت به الأيام إلا أنها  
ويقول فيها:

خيل، وأول راجل في العسكر  
باع الحياة فلم يجد من يشتري  
في نصر آل محمد لم يضجر  
حشت يمينك يا زمان فكفر  
يهنيك أنك وارث الإسكندر

تلقاه أول فارس إن أقدمت  
هانت عليه النفس حتى أنه  
ضجر الحديد من الحديد وشاور  
حلف الزمان ليأتين بمثله  
يا فاتحاً شرق البلاد وغربها

يقول عمارة: وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوّت عزمي على الاستعفاء من عمل الشعر؛ لأن الناس فيما تقدّم كانوا يغنون الشعراء بما ليس يفوقها جودة<sup>(١)</sup>. وبالفعل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاه عمارة من قول الشعر، وأمر أن ينقل الجاري على الخدمة راتباً على حكم الضيافة؛ لأن التكسب بالشعر والتظاهر به أصبح نقيصة في حقه. فسأله شاور: فما منعك أن تستعفي في أيام الصالح وابنه؟ قال عمارة: كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليس بن الحباب وبابني الزبير الرشيد والمهذب، وقد انقرض الجيل والنظراء. قال: تعفى. ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائه<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعراً في الحوادث التي كانت في هذه الأيام، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة، فقد أنشد عدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على الصليبيين، وبنصره لآل بيت الرسول، ويشبّه جيوش صلاح الدين بأنصار النبي صلى الله عليه وسلم فهو يقول مثلاً:

(١) المصدر نفسه: ص ٨٢ وما بعدها.

(٢) المصدر نفسه: ص ٨٦.

بل الشرف الراقى إلى قمة النسر  
 بها الهمم العليا إلى شرف الذكر  
 أقلتم بها الأقدام من زلة العثر  
 كشفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر  
 جريتم لها مجرى الأمان من الذعر  
 ودائرة الأنصار أضيق من شبر  
 وما اشتقت الأنصار إلا من النصر  
 وأولها بالنيل من شاطئ مصر  
 أضاءت مكان الدين ليلاً بلا فجر  
 تراسلكم في كل يوم مع السفر  
 فككتم بها الإسلام من ربة الأسر  
 وقلتم لأيدي الخيل مري على «مري»  
 عبرتم ببحر من حديد على الجسر  
 ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر  
 كما لز مهزوم من الليل بالفجر  
 بسيفك لم تترك لغيرك من عذر  
 ولكنها بالجود جابرة الكسر  
 وأنت له خير النفائس والذخر  
 بمثلك تيه فهو في أوسع العذر  
 وتحمل عنه ما يثود من الوقر  
 تؤلف أضدادًا من الماء والجمر  
 بما سره في الخطب والدست والثغر  
 لنعمتكم بالمستحق من الشكر  
 لكم آل أيوب إلى آخر الدهر

لك الحسب الباقي على عقب الدهر  
 كذا فليكن سعي الملوك إذا سعت  
 نهضتم بأعباء الوزارة نهضة  
 كشفتم عن الإقليم غمته كما  
 حميتم من الإفرنج سرب خلافة  
 ولما استغاث ابن النبي بنصركم  
 جلبتم إليه النصر أوسًا وخزرجًا  
 كتائب في جيرون منها أواخر  
 طلعتم فأطلعتم كواكب نصرة  
 وآبت إليكم يابن أيوب دولة  
 حمى الله فيكم عزيمة أسدية  
 أخذتم على الإفرنجي كل ثنية  
 لئن نصبوا في البر جسرًا فإنكم  
 طريق تقارعتم عليها مع العدا  
 وأزعجه من مصر خوف يلزه  
 وكم وقعة عذراء لما اقتضضتها  
 وأيديكم بالبأس كاسرة العدا  
 أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم  
 ومن كنت معروفًا له فاستفزه  
 توقره وسط الندي كرامة  
 وتخلفه حربًا وسلماً خلافة  
 وكم قمت في بأس وجود ورتبة  
 ولو أنطق الله الجهادات لم تقم  
 يد لا يقوم المسلمون بشكرها

وآمن أركان الثنية والحجر  
بساط الهدى من ساحة البر والبحر  
غدا لفظها يشفق من شدة الأزر  
وبشر أن الكل يتلو على الإثر  
تمتها في ذمة البيض والسمر  
وملتمسًا أجر الكهانة والزجر  
أرجى بهانيل المثوبة والأجر  
ولي سنوات منذ تبت عن الشعر  
مصرفة بالنهي منك وبالأمر  
وملثاكم لي بالطلاقة والبشر<sup>(١)</sup>

بكم آمن الرحمن أعظم يشرب  
ولو رجعت مصر إلى الكفر لانطوى  
ولكن شدتكم أزره بوزارة  
فهنيتم فتحًا تقدم حله  
وما بقيت في الشرك إلا بقية  
وعند تمام الملك آتي مهنتًا  
ولولا اعتقادي أن مدحك قرينة  
لما قلت شعرًا بعد إعفاء خاطري  
فأوص بي الأيام خيرًا فإنها  
وجائزتي: تسهيل إذني عليكم

ولما قُتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة، وجدنا بعض الشعراء يعرضون في أشعارهم بالوزير المقتول، بل يهجونه أقبح هجاء، فالشاعر حسّان عرقلة - ولم يكن مصريًا؛ إنما وفد مع صلاح الدين إلى مصر، وأنشد شعرًا في الحوادث التي جرت في هذه الأوقات - قال لما قُتل شاور وتولى شيركوه قال:

له شيركوه العاضدي وزير  
على لديه شبير وشبير  
وشاور كلب للرجال عقور  
على مثلها كان اللعين يدور  
ولا زال فيها منكر ونكير

لقد فاز بالملك العظيم خليفة  
كأن ابن شاذي والصلاح وسيفه  
هو الأسد الضاري الذي جل خطبه  
بغى وطغى حتى لقد قال قائل  
فلا رحم الرحمن تربة قبره  
وقال في قصيدة أخرى:

(١) كتاب الروضتين: ج ١، ص ١٦٣ (طبعة مصر سنة ١٢٨٧).

إن أمير المؤمنين الذي      مصر حماه وعلي أبوه  
نص على شاور فرعونها      ونص موساها على شيركوه<sup>(١)</sup>

وما كادت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون ملوكهم، ويقدحون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر، وستحدث عن ذلك في كتابنا عن الأيوبيين، ويكفي أن نأتي الآن بمثال لهذه الأشعار، فقد قال أحد الشعراء يمدح الأيوبيين:

ألستم مزيلي دولة الكفر من بني      عبيد بمصر، إن هذا هو الفضل  
زنادقة سبعة باطنية      مجوس وما في الصالحين لهم أصل  
يسرون كفرًا، يظهرون تشيعًا      ليستروا شيئًا وعمهم الجهل<sup>(٢)</sup>

وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء، فالشعراء كانوا يلتمسون الأحداث ليمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم، حتى دالت الدولة الفاطمية.

### المهذب بن الزبير:

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المهذب، كان من أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان، وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر، رحلًا من أسوان إلى القاهرة، وما زالوا يرتقيان في مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسًا الوزراء والأمراء... أمّا المهذب فقد قدّمه القاضي الجليس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيق، فحظي عنده، وحصل له من الملك مال جم، لم يَنَل غير المهذب منه أحد مثله، وأوفد المهذب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن، وهناك أُتيحت له فرصة جمع كتب الأنساب، اتخذها مصدرًا لكتاب كبير صنّفه في عشرين مجلدًا هو «كتاب

(١) الروضتين: ج ١، ص ١٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٠٢.

الأنساب» اطلع ياقوت الحموي على بعض أجزاء منه، فوصفه بقول: «فوجدته مع تحقيقي هذا العلم، وبحثي عن كتبه، غاية في معناه لا مزيد عليه، يدل على جودة قريحة مؤلفه وكثرة اطلاعه، إلا أنه هذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، وأوجز في بعض أخباره عن البلاذري، إلا أنه إذا ذكر رجلاً ممن يقتضي الكتاب ذكره لا يتركه حتى يعرفه بجهده، من إيراد شيء من شعره وخبره»<sup>(١)</sup>. فجمع ابن الزبير بين العلم والشعر، وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير لتقويمه وإصلاحه قبل عرضه على الناس، ووصف العماد شعره بقوله: «محكم الشعر كالبناء المشيد، وهو أشعر من أخيه، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه... ولم يكن في زمانه أشعر منه، وله شعر كثير، ومحل في الفضائل أكثر»<sup>(٢)</sup>. ووصف المهذب شعره مرة وهو يعرض بابن الصياد الملقب بالمفيد الشاعر:

فيا شاعرًا قد قال ألف قصيدة      ولكنها عن بيته ليس تبرح  
ليهنك، لا هנית، أن قصائدي      مع النجم تسري أو مع الريح تسرح

وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيق، وكان الوزير يغري الشعراء بعضهم ببعض، ويسر للاستماع إلى نقائض الشعراء وأهاجيهم:

يا أيها الملك الذي أوصافه      غرر تجلت للزمان الأسفح  
لا تطمع الشعراء فيّ فإنني      لو شئت لم أجبن ولم أتخشع  
إن لم أكن ملء العيون فإنني      بالقول يابن الصيد ملء المسمع  
فليمسكوا عني فلولا أنني      أبقى على عرضي إذن لم أجزع  
وأهم من هجوي لهم مدح الذي      رفع القريض إلى المحل الأرفع  
ولو أنه ناجى ضميري في الكرى      طيف الخيال بريية لم أهجع

(١) معجم الأدباء: ج ٩، ص ٤٩.

(٢) الخريدة: ورقة ٣٨ أ.

وإذا بدا لي الهجر لم أر شخصه  
والناس قد علموا بأني ليس لي  
وإذا يقال لي الخنالم أسمع  
مذ كنت في أعراضهم من مطمع<sup>(١)</sup>

فنحن أمام شاعر عف اللسان، محترم لنفسه بابتعاده عمّا يعرضه إلى هجاء زملائه، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنها يعرض له من ناحية واحدة هي ناحية فن الشعر، فقد كان المهذب شاعرًا من فحول شعراء العربية، ولا أعالي إذا قلت: إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب، ومنذ عرفت الشعر العربي، ولم تُنجب من أبنائها شاعرًا له شاعرية المهذب، وقوة شعره، وحسن ديباجته، وقد وصلت إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله، فمن ذلك قصيدته التي أرسلها إلى داعي اليمن عندما قبض على أخيه الرشيد، يمدحه ويستعطفه، حتى أطلق سراح أخيه، ففيها يقول:

يا ربع أين ترى الأعبة يمموا  
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما  
وتعوضت بالأنس روعي وحشة  
لولا هم ما قمت بين ديارهم  
أمنازل الأحباب؟ أين هم وأي  
يا ساكني البلد الحرام وإنما  
يا ليتني في النازلين عشية  
فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة  
إني لأذكركم إذا ما أشرقت  
لا تبعثوا لي في النسيم تحية  
إني امرؤ قد بعث حظي راضيًا  
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا  
هل أنجدوا من بعدنا أم أنهموا  
يسري إذا جن الظلام الأنجم  
لا أوحش الله المنازل منهم  
حيران أستاف الديار وألثم  
من الصبر من بعد التفرق عنهم؟  
في الصدر مع شحط المزار سكتتم  
بمنى، وقد جمع الرفاق الموسم  
منكم إذا لبى الحجيج وأحرموا  
شمس الضحى من نحوكم فأسلم  
إني أغار من النسيم عليكم  
من هذه الدنيا بحظي منكم  
منكم وزهدت إلا فيكم

(١) المصدر نفسه: ورقة ٤٣ ب.

ورأيت كل العالمين بمقلّة  
 ما كان بعد أخي الذي فارقه  
 هو ذاك لم يملك علاه «مالك»  
 أقوت مغانيه، وعطل ريعه  
 ورمت به الأهوال همة ماجد  
 ياراحلاً بالمجد عنا والعلا  
 يفديك قوم كنت واسط عقدهم  
 لك في رقابهم وإن هم أنكروا  
 جهلوا فظنوا أن بعدك مغنم  
 فلقد أقر العين أن عداك قد  
 لم يعصم الله ابن معصوم من الآ  
 واعتضت بعدهم بأكرم معشر  
 فلعمر مجدك إن كرمت عليهم  
 أقيال بأس، خير من حملوا القنا  
 متواضعون ولو ترى ناديمهم  
 وكفاهم شرفاً ومجداً أنهم  
 هو بدر تم في سماء علاهم  
 ملك حمّاه جنة لعفاته  
 أثنى عليك بما مننت وأنت من  
 فاغفر لي التقصير فيه وعده  
 مع أنني سيرت فيك شوارداً  
 تغدو وهوج الذاريات رواكد

لو ينظر الحساد ما نظرت عموا  
 ليوح إلا بالشكايه لي فم  
 كلا ولا وجدي عليه «متمم»  
 ولربما هجر العرين الضيغم  
 كالسيف يمضي عزمه ويصمم  
 أتري يكون لكم إلينا مقدم؟  
 ما إن لهم مذغت شمل ينظم  
 منن كأطواق الحمام وأنعم  
 لما رحلت وإنما هو مغرم  
 هلكوا ببغيهم وأنت مسلم  
 فات، واخترم اللعين الأخرم<sup>(١)</sup>  
 بدءوا لك الفعل الجميل وتموا  
 إن الكريم على الكرام مكرم  
 وملوك قحطان الذين هم هم  
 ما استطعت من إجلالهم تتكلم  
 قد أصبح الداعي المتوج منهم  
 وبنو أبيه بنو ربيع أنجم  
 لكنه للحاسدين جهنم  
 أوصاف مجدك يا مليكاً أعظم  
 مع ما تجود به علي وتنعم  
 كالدر بل أبهى لدى من يفهم  
 وتبيت تسري والكواكب نوم

(١) الأخرم: هو صاحب الدعوة الدرزية التي ظهرت أيام الحاكم، ونادت بألوهيته.

وإذا المآثر عددت في مشهد  
وإذا تلا الراوون محكم آيها  
وكفى برأي إمام عصرك ناقضاً  
فبذكرها يبدأ المقال ويختم  
صلى عليك السامعون وسلموا  
ما أحكم الأعداء فيك وأبرموا<sup>(١)</sup>

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الزبير كان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديابجته، وأنه كان من الشعراء الذين لم يندعوا ببهرج اللفظ، ولم تبهرهم زينتته، حقيقة قد ألمَّ ببعض مقابلات بديعية، ولكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البديعية، فأفرطوا فيها إفراطاً جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته، وأخلوا بالمعنى في سبيل اللفظ. ولنأخذ مثلاً آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك؛ لنستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن الشعراء فحول الأمويين والعباسيين:

أقصر فديتك عن لومي وعن عذلي  
من كل طرف مريض الجفن تنشدنا  
إن كان فيه لنا، وهو السقيم، شفا  
إن الذي في جفون البيض إذ نظرت  
كذلك لم يشتهه في القول لفظهما  
وقد وقفت على الأطلال أحسبها  
أبكي على الرسم في رسم الديار فهل  
وكل بيضاء لومست أناملها  
تغني من الدر والياقوت لبستها  
بالخذ مني آثار الدموع كما  
كان في سيف سيف الدين عن خجل  
أو، لا فخذلي أمأنا من يد القتل  
ألحاظه «رب رام من بني ثعل»  
«فربما صحت الأجسام بالعلل»  
تطرياً في جفون البيض والخلل  
إلا كما اشتبها في الفعل والعمل  
جسمي الذي بعد بُعد الظاعنين بلي  
عجبت من طلل يبكي على طلل  
قميص يوسف يوماً قد من قُبَلِ  
لحسنها فلها حلي من العطل  
لها على الخد آثار من القُبَلِ  
من عزمه ما به من حمرة الخجل

(١) معجم الأدباء: ج ٩، ص ٥٠.

هو الحسام الذي يسمو بحامله  
إذا بدا عارياً من غمده خلعت  
وإن تقلد بحرًا من أنامله  
من السيوف التي لاحت بوارقها  
ومنها:

أعداك غير صليل البيض في القل  
أنصار لولائك لم ينطق ولم يقل  
فضاق منها عليه أوسع السبل  
يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل  
بالعجز خوف الردى نفس فلم تبل  
فما أبيت على بأس ولا أمل  
مني طروق الليالي عود مكتهل  
قدمًا وما جاوزت بي سن مقبل  
وأين ضوء الضحى من ظلمة الأصل  
تعاضم لينال المجد بالجبيل  
ظنًا ويصغر في الأفهام عن زحل  
أجاب دمعي وما الداعي سوى ظلل  
زهوًا على مدح سيف الدولة البطل<sup>(١)</sup>

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت  
مقال ناء غريب الدار قد عدم ال  
يشكو مصائب أيام قد اتسعت  
يرجوك في دفعها بعد الإله وقد  
فما تخاف الردى نفس وكم رضيت  
إني امرؤ قد قتلت الدهر معرفة  
إن يرو ماء الصبا عودي فقد عجمت  
تجاوزت بي مدى الأشياخ تجرّبتني  
وأول العمر خير من أواخره  
دوني الذي ظن أي دونه فله  
والبدر يعظم في الأبصار صورته  
ما ضر شعري أي ما سبقت إلا  
فإن مدحي لسيف الدين تاه به

ولعلك تلاحظ في هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر في البيت الثاني إشارة  
امرئ القيس إلى بني ثعل، وقول امرئ القيس:

مخرج كفيه من ستره

رب رام من بني ثعل

وكيف ضمن ابن الزبير في البيت الثاني عجز بيت للمتنبى من قوله:

لعل عتبك محمود عواقبه      فربما صحت الأجسام بالعلل

والشاعر في هذه القصيدة، بل في كل قصائده التي وصلت إلينا من ديوانه الذي فُقد، يُظهر شاعرية فحول الشعراء، تلك الشاعرية الطبيعية التي يصدر عنها هذا الشعر الجزل الرصين الذي لا نجد له مثيلاً بين شعر مصر الفاطمية، ولعل ذلك يرجع إلى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ في القاهرة أو الفسطاط، ولكنه نشأ في أسوان، وتطبع هناك بالبيئة التي أحاطت به، فهي محافظة أكثر من بيئة القاهرة، وهي إلى البداوة أقرب، لبُعدها أولاً عن بقية بلاد القطر، وليبيتها الجغرافية التي جعلت منها بلداً يتميز بجو خاص، وتربة هي مزيج من اقسام صحراوية وأخرى صخرية وثالثة خصبة، فالذين يعيشون في هذا البلد أو ينشئون فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضرة، فلعل هذا هو السبب في أن شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصين جزل، لا نجد فيه طراوة شعر أهل القاهرة والفسطاط، ولا نعومة شعر الأمير تميم أو إبراهيم الرسي أو حيدرة العقيلي، ولا شعبية شعر ظافر الحداد.

أصيب هذا الشاعر في أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريئاً منها؛ فقد حبسه شاور ظلماً بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب إبان حصار الإسكندرية، فأخذ المهذب يستعطف شاور، ويرسل إليه الأشعار في مدح ابنه الكامل بن شاور؛ فمن ذلك قوله:

إذا أحرقت في القلب موضع سكنها	فَمَنْ ذا الذي من بعد يكرم مثاها
وإن نزلت ماء العيون بهجرها	فمن أي عين تأمل العيس سقيها
وما الدمع يوم البين إلا لآلئ	على الرسم في رسم الديار ثرناها
وما أطلع الزهر الربيع وإنما	رأى الدمع أجياد الغصون فحلاها
ولما أبان البين سر صدورنا	وأمكن فيها الأعين النجل مرماها

دروغاً من الصبر الجميل نزعناها  
لعيني عما في الضمائر عينها  
ندين بأديان النصارى عبدناها  
جلا اليوم مرآة القرائح مرآها  
سراي وفي ليل الذوائب مسراها  
بأنفاس ريا آخر الليل رباها  
من الراح تسقيننا الذي قد سقينها

لسائله غير الشبية أعطاهها  
سياسة من قاس الأمور وقاسها  
فعاين أهوال الخطوب فعانها  
صداه فلني دائماً أتصداها<sup>(١)</sup>

فأطلقته هذه الأشعار من سجنه، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه.

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان، ويتألم لأخلاق الناس حوله،  
فهم سواسية في اللؤم، وكان يتطلع إلى المجد، فهو يفخر بنفسه، ويفخر بشعره،  
فهو يقول في إحدى قصائده:

تشابه الناس في خلق وفي الصور  
إلا وأصبحت من عقلي على غرر  
فما أصدق لا سمعي ولا بصري  
يوماً إذا كنت من نفسي على حذر  
من أن أقيم وآمالي على سفر

عددنا دموع العين لما تحدرت  
ولما وقفنا للوداع وترجمت  
بدت صورة في هيكل فلو أننا  
وما طرباً صغنا القريض وإنما  
ليالي كانت في ظلام شبيبي  
تأرج أرواح الصبا كلما سرى  
ومهما أدرنا الكأس باتت جفونها  
ومنها:

ولو لم يجديوم الندى في يمينه  
في ملك الدنيا وسائس أهلها  
ومن كلف الأيام ضد طباعها  
عسى نظرة تجلو بقلبي وناظري

تشابه الناس في خلق وفي خلق  
ولم أبت قط من خلق على ثقة  
لا تخدعني بمرئي ومستمع  
وكيف آمن غيري عند نائبة  
تأبى المكارم والمجد المؤثل لي

(١) معجم الأدباء: ج ٩، ص ٦١.

شمس، وأسير في الآفاق من قمر  
تسري بها الشهب إن سارت على خطر  
أو الردى فإليه متهى البشر<sup>(١)</sup>

إني لأشهر في أهل الفصاحة من  
وسوف أرمي بنفسي كل مهلكة  
إما العلا وإليها متهى أملي  
ويقول مرة أخرى:

أكابد عيشًا مثل دهر أنكدا  
لقد صدقوا إن الثقات هم العدا<sup>(٢)</sup>

ومن نكد الأيام أي كما ترى  
أمنت عداتي ثم خفت أحبتي  
وقد توفي هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ.

### القاضي الرشيد بن الزبير:

أمّا ثاني المهذبين الأخوين الشعارين، فهو أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير الغساني، وكان الرشيد أعلم من أخيه، وأخوه أشعر منه، فقد ضرب الرشيد بسهم وافر في الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى والنجوم، كما كان جيد الثر، وله تصانيف منها: كتاب «منية الأملعي وبلغة المدعي»، وكتاب المقامات، ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب «جنان الجنان وروضة الأذهان» الذي تحدّث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها، وجعله ذيلًا على يتيمة الدهر للثعالبي، وهو الكتاب الذي أخذ عنه العماد الأصفهاني أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة.

وللرشيد عدة كتب أخرى منها كتاب «الهدايا والطرف»، وكتاب «شفاء الغلة في سمت القبلة»، ومجموعة رسائله، وديوان شعره، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم. ويحدّثنا العماد أن محمد بن عيسى اليميني

(١) الخريدة: ٤٩ ب.

(٢) الخريدة: ٤٩ ب.

أخذ عن الرشيد باليمن علم الهندسة<sup>(١)</sup>، ولكن الرشيد عُرف بالشعر أكثر مما عُرف بهذه العلوم، حتى قيل: إن سبب تقدمه في الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر، وحضر المأتم مع الشعراء، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التي مطلعها:

ما للرياض تميل سكرًا      هل أسقيت بالمزن خمرًا  
إلى أن وصل إلى قوله:

أفكربلاء بالعراق      وكربلاء بمصر أخرى

فضجَّ القصرُ بالبكاء، وانثالت عليه العطايا؛ ومن ثمَّ بدأت صلته بالقصر والوزراء، ثم أوفد مبعوثًا إلى اليمن، ولا ندري الأمر الذي من أجله أوفد إليها، وإن كان صاحب كتاب «الفترات والترانات» يشير إلى أن الرشيد لم يكن رشيدًا في بعثته، ولعل هذه إشارة إلى ما رُوِيَ أن الرشيد قُلد قضاء اليمن ولُقِّب هناك «بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن»، وأنه مكث هناك عامين فقليل: إنه مدح الأمير علي بن حاتم الهمداني بقصيدة منها:

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا      فلست أنال القحط في أرض قحطان  
وقد كفلت لي مأرب بمآربي      فلست على أسوان يومًا بأسوان  
وإن جهلت حقي زعانف خندف      فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فحسده داعي عدن، وكتب بهذه الأبيات إلى مصر، فكانت هذه الأبيات سببًا في غضب أولي الأمر بمصر عليه، كما غضب أولو الأمر بعدن، فأخذ الرشيد وحُبس، ثم صُفِّح عنه، وقيل: بل إن السبب غير ذلك؛ وذلك أن نفسه سمت إلى مرتبة الخلافة في اليمن فسعى فيها، وأجابه قوم وسلم عليه بها، وضربت له السكة فنقش على وجهه: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾، وعلى

الوجه الآخر: «الإمام الأجد أبو الحسن أحمد»، فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلاً، ثم أفرج عنه، ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية، فإن الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم وعقل، لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعي الإمامة في الوقت الذي أنكرت فيه إمامة الحافظ والفائز والظافر والعاقد، ودُعي فيه للإمام المستور ولقائم القيامة، ثم إن مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الأمر بأحكام الله، فكيف يدعي الرشيد الإمامة في اليمن، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة؛ وأهمها: أن يكون الإمام من نسل النبي، وأن يكون الإمام قبله قد نصَّ عليه. ولعل القائمين بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من الغباء والبله لدرجة العفو عن مثل هذا الرجل الدعي، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيق، وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر تعصباً للمذهب والإمامة، لهذا كله أرى أن الرشيد إنما أمسك وسُجن بسبب حقد داعي عدن عليه. وقد رأينا قصيدة أخيه المهذب التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد؛ فلم نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة، وقد علم الرشيد بأمر هذه القصيدة فأجاب أخاه بقصيدة هي:

رحلوا، فلا خلت المنازل منهم  
وضياء نور الشمس ما لا يكتم  
روت جفوني أي أرض يمموا  
نزلوا، وفي قلب المتيم خيموا  
نار الغرام، وسلموا من أسلموا  
أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا  
بعد المزار فصفو عيشي معهم  
عندي، ولكن التفرق أعظم  
جفني ولكن سح بعدكم الدم

ياربع، أين ترى الأجرة يمموا  
وسروا، وقد كتموا الغداة مسيرهم  
وتبدلوا أرض العقيق من الحمى  
نزلوا العذيب، وإنما في مهجتي  
ما ضرهم، لو ودعوا من أودعوا  
هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا  
وهم مجال الفكر من قلبي، وإن  
أجابنا، ما كان أعظم هجركم  
غبتم فلا والله ما طرق الكرى

وزعمتم أني صبور بعدكم  
 وإذا سئلت بمن أهيم صبابة  
 النازلين بمهجتي وبمقلتي  
 لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى  
 فأقمت حين ظعنتم، وعدلت لمـ  
 يا محرّقا قلبي بنار صدودهم  
 أسعرتهم فيه لهيب صبابة  
 يا ساكني أرض العذيب سقيتم  
 بعدت منازلكم وشط مزاركم  
 لا لوم للأحباب فيم قد جنوا  
 أحباب قلبي أعمروه بذكركم  
 واستخبروا ريح الصبا تخبركم  
 كم تظلمونا قادرين وما لنا  
 ورحلتهم وبعدهم وظلمتم  
 هيهات لا أسلوكم أبداً وهل  
 وأنا الذي واصلت حين قطعتم  
 جار الزمان عليّ لما جرتم  
 وغدوت بعد فراقكم وكأنني  
 ونزلت مقهور الفؤاد ببلدة  
 في معشر خلقوا شخوص بهائم  
 إن كورموا لم يكرموا، أو علموا  
 لا تنفق الآداب عندهم ولا الـ  
 صم عن المعروف حتى يسمعوا

هيهات لا لقيتم ما قلتم  
 قلت: الذين هم الذين هم هم  
 وسط السويدا والسواد الأكرم  
 أني حفظت العهد لما خنتم  
 ما جرتم، وسهرت لما نمتم  
 رفقا ففيه نار شوق تضرم  
 لا تنظفي إلا بقرب منكم  
 دمعي إذا ضن الغمام المرزم  
 وعهودكم محفوظة مذ غبتم  
 حكمتهم في مهجتي فتحكموا  
 فلطالما حفظ الوداد المسلم  
 عن بعض ما يلقي الفؤاد المغرم  
 جرم ولا سبب، لمن نتظلم؟  
 ونأيتم وقطعتهم وهجرتم  
 يسلو عن البيت الحرام المحرم؟  
 وحفظت أسباب الهوى إذ خنتم  
 ظلماً ومال الدهر لما ملتم  
 هدف يمر بجانيه الأسهم  
 قلّ الصديق بها وقلّ الدرهم  
 يصدى بها فكر اللبيب ويهم  
 لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا  
 إحسان يعرف في كثير منهم  
 هجر الكلام فيقدموا ويقدموا

فَاللّٰهُ يَغْنِي عَنْهُمْ وَيَزِيدُ فِي زَهْدِي لَهُمْ وَيَفْكَ أَسْرِي مِنْهُمْ<sup>(١)</sup>

فهذه القصيدة التي أجاب بها عن قصيدة أخيه، والتي قالها الرشيد وهو أسير في اليمن، تؤيد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه، إنما هي قصة موضوعة، فالرشيد لم يُشِر إليها ولم يعتذر عنها، وإنما يتحدث عن أعدائه الذين لم يقدرُوا شعره، فلم تنفق الآداب عندهم، ولم يقدرُوا إحسانه إليهم، فهم صمٌّ عن المعروف، وهم «شخص بهائم». فالرشيد لم يكن بالرجل الذي يطلب الإمامة لنفسه، ثم يقول مثل هذا القول.

كان الرشيد كما وصفه ياقوت: على جلالته وفضله ومنزلته من العلم والنسب، قبيح المنظر، أسود الجلد، جهم الوجه، سمج الخلق، ذا شفة غليظة وأنف مبسوط كخلقة الزنوج قصيراً<sup>(٢)</sup>؛ فكان ذلك سبباً في تهكم شعراء مصر به، فقد قيل: إن الرشيد ولي على المطبخ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك:

يُولِي عَلَى الشَّيْءِ أَشْكَالَهُ      فَيَصْبِحُ هَذَا لِهَذَا أَخَا  
أَقَامَ عَلَى الْمَطْبَخِ ابْنَ الزَّبِيرِ      فَوَلَّى عَلَى الْمَطْبَخِ الْمَطْبَخَا<sup>(٣)</sup>

ومما يُروى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء والفضلاء؛ فألقى الصالح مسألة في اللغة، فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد؛ فأعجب به الصالح، فقال الرشيد: ما سُئِلت قطُّ عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهمًا. فارتجل الشاعر ابن قادوس:

إِنْ قَلَّتْ: مِنْ نَارِ خَلْقِ—      ت، وَفُقَّتْ كُلُّ النَّاسِ فَهَمًا  
قَلْنَا: صَدَقْتَ، فَمَا الَّذِي      أَطْفَاكَ حَتَّى صَرْتَ فَحَمًا

(١) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٦٢.

(٢) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٥٨.

(٣) الخريدة.

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله:

يا شبه لقمان بلا حكمة      وخاسرًا في العلم لا راسخًا  
سلخت أشعار الورى كلها      فصرت تدعى الأسود الساخا

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت نقش صورة الشيطان على الخاتم، ولعل سواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب التي جعلته يكثر من ذم الدهر والناس، وأن يظهر في شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان وغدرهم به، فقد أنشد وهو في اليمن:

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما      ظننت بأنى قد ظفرت بمنصف  
فإنك قد قلدتني كل منة      ملكت بها شكري لدى كل موقف  
لأنك قد حذرتني كل صاحب      وأعلمتني أن ليس في الأرض من

وأنشد مرة أخرى وهو في مصر:

تواصى على ظلمي الأنام بأسرهم      وأظلم من لاقيت أهلي وجيراني  
لكل امرئ شيطان جن يكيده      بسوء، ولي دون الورى ألف شيطان<sup>(٢)</sup>

اتصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه، ولي سنة ٥٥٩ هـ. النظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي أثناء محاصرته الإسكندرية، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه، فاختفى الرشيد بالإسكندرية، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلاقس هذه الأبيات:

تدانيت دارًا والوصول نسوع      فخلك ذو الود الوصول قطوع  
حجبت ولم تحجب محاسنك التي      تأنق منها يا غمام ربيع  
وضيعت في صون فضعت وهكذا      يصان فتيت المسك وهو يوضوع

(١) الخريدة: ورقة ٣٦ ب.

(٢) الخريدة.

لكالقلب قد ضمت عليه ضلوع  
لينضى بكف إذ يروق يروع  
فما ذاك من صنع الإله بديع  
ولا سيما قد كان منه طلوع  
لهافوق هاتيك الربوع ربوع  
وبيض، وبيض أشرقت ودروع  
بعيد، ولا العالي الرفيع رفيع  
وإنك في الشهر الأصم سميع<sup>(١)</sup>

وإنك والبيت الذي قد عمرته  
وما أنت إلا العضب لازم جفنه  
سيفتق عن زهر بديع كما مه  
وتسفر عن صبح شريق دجنة  
كأنى بها يابن الكرام مغيرة  
بحيث تريك البر كالبحر ذبل  
وفرسان حرب لا البعيد عليهم  
بذلك لا تعجب فإني قائل

وظلَّ الرشيد مختفياً إلى أن قبض عليه، وأشهر على جمل وعلى رأسه  
طرطور، ووراء من ينال منه، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال:

إن كان عندك يا زمان بقية مما تهين به الكرام فهاتهما

ثم صلب شتقاً ودُفن حيث شتق، ومن غريب الاتفاق أن يُدفن شاور بعد  
أيام قليلة في نفس المكان الذي دُفن فيه الرشيد. ورثى الجليس بن الحباب  
صديقه الرشيد بقوله:

ومحل العلابعدك قفر  
وتمر الأيام حيث تمر  
ليس منه سوى إيابك عذر<sup>(٢)</sup>

ثروة المكرمات بعدك فقر  
بك تجلى إذا حللت الدياتجي  
أذنب الدهر في مسيرك ذنباً

القاضي الجليس:

هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي الجليس  
السعدي، ولُقّب بأمين الدين<sup>(١)</sup>، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقتدي

(١) ديوان ابن قلاقس: ص ٦٥.

(٢) ابن خلكان: ج ١، ص ٥١.

بهم عمارة اليميني في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك، والاثنان الآخران هما ابنا الزبير المهذب والرشيد، ولكن يُخيل إليّ أن الجليس كان أقل الثلاثة جودة في الشعر، وأقلهم إنتاجاً في القريض، وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع الموفق بن الخلال أيام الفائز<sup>(٢)</sup>، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام زميليه ابني الزبير، وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر الخليفة الظافر، والقدماء يذكرون أن الجليس له المعاني المبدعة في شعره، ومثّلوا لذلك بقوله:

ومن عجب أن الصوارم في الوغى      تحيض بأيدي القوم وهي ذكور  
وأعجب من ذا أنها في أكفهم      تأجج نارًا والأكف بحور<sup>(٣)</sup>

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتى بها في البيت الأول، فإني لا أعجب بها كإعجاب القدماء، وإن كنتُ أعجب بالبيت الثاني. ومن مقطوعاته التي حُفظت لنا قوله يتهكم بطيب:

وأصل بليتي من قد غزاني      من السقم الملح بعسكرين  
طيب طبه كغراب بين      يفرق بين عافيتي وبينني  
أتى الحمى وقد شاخت وبأخت      فعاد لها الشباب بنسختين  
ودبرها بتدبير لطيف      حكاه عن سنان أو حنين  
وكانت نوبة في كل يوم      فصيرها بحذق نوبتين<sup>(٤)</sup>  
ثم قوله في مدح طيب:

يا وارثاً عن أب وجد      فضيلة الطب والسداد

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله: ج ١٢، ص ٢١٨٧، نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

(٢) فوات الوفيات: ج ١، ص ٣٧٨.

(٣) النجوم الزاهرة: ج ٥، ص ٣٧١.

(٤) فوات: ج ١، ص ٣٧٨.

وحاملاً رد كل نفس  
أقسم لو قد طيبت دهرًا  
همت عن الجسم بالعباد  
لعاد كوثًا بلا فساد<sup>(١)</sup>

وكان الجليس من كبار رجال الدولة، ولُقّب بالجليس لأنه كان جليس الخلفاء مقرَّبًا إليهم، فلا غرو أن رأينا شعراء عصره يلوذون به، وينشدونه مدائحهم فيه<sup>(٢)</sup>؛ فقد مدحه ابن قلاقس بعدة قصائد منها قوله:

عفا طربي إلى عافي الرسوم  
وكنت أبا المنازل والفيافي  
أميل إلى سلافة بنت كرم  
هدتنا للسرور نجوم راح  
وكف الصبح يلقط ما تبدى  
فإن توجت راحي كأس راح  
ولما أفقرت أوكار وفري  
إلى القاضي الجليس استنجدتها  
فقال لها لسان الدهر: هذا  
تقسم بين شمس ضحى وبحر  
وجلى ظلمتي خطب وجدب  
وملك حاسديه فجازبته  
عجبت لوجهه ولراحتيه  
ومطلب مداه كبا فقلنا  
وقافية أهز بها إذا ما  
تسير وإن أقام بها ثناه

فلا روى الغمام ربي الغميم  
فصرت أختا المدامة والنديم  
وأذنو من سوائف أم ريم  
بها قذفت شياطين الهموم  
بجيد الليل من درر النجوم  
فشرب الإثم أولى بالأثيم  
عمرت بعزمتي أكوار كومي  
أزمة نجدة وحداء خيم  
تمام الفضل أودع في تميم  
هداية قاصد، وغني عديم  
برأي مجرب وندى عميم  
خلاثقه إلى الطبع الكريم  
سنا شمس تبدى في غيوم  
ألیم العيش أولى باللئيم  
نطقت معاطف الطرب الرميم  
وأعجب ما ترى سفر المقيم<sup>(١)</sup>

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخطط: ج ٢، ص ٢٢٦.

ومدحه رضي الدولة أبو سليمان داود بن مقدم، الذي أنشد قصيدة في وصف حاله ومدح فيها الجليس، ومنها:

وقد بكرت تلوم على خمولي	كأن الرزق يجلبه خيالي
تقدر أنني بالحرص أحوي الثـ	ـراء وذاكم عين المحال
تقول إذا رأت إرشاد قولي	هبلت ألا تهب إلى المعالي
ومن لم يعشق الدنيا قديماً	ولكن لا سبيل إلى الوصال
لو أدليت دلوك في دلاء	متحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن	بلا بلبل يرد على قذالي
ولا أنا بالكفاف النزر راضي	ولا أنا عن طلاب الكثر سال
ولكن ذاك من قبل اعتماذي	على عبد العزيز أبي المعالي <sup>(٢)</sup>

كما مدحه الشاعر عمارة اليمني بعدة قصائد.

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان مولعاً بهجاء القاضي الجليس، كثير التهكم بأنفه الكبير، حتى قيل: إن ابن الصياد أنشد أكثر من ألف مقطوعة في أنف الجليس<sup>(٣)</sup> إلى أن انتصر له الشاعر أبو الفتح بن قادوس الذي هجا ابن الصياد بقوله:

يا مَنْ يعيب أنوفنا الشـ	ـم التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا	وقرونك الشم اكتساب <sup>(٤)</sup>

وتوفي الجليس سنة ٥٩١هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد، وقيل: إنه لما مات ابن الحباب شمت به المهذب، ومشى في جنازته بثياب مذهبة،

(١) ديوان ابن قلايس: ص ١٠٠.

(٢) الخريدة: ورقة ٩٩ ب.

(٣) فوات الوفيات: ج ١، ص ٧.

(٤) المصدر نفسه.

فاستقبح الناس فعله ونقص بهذا السبب<sup>(١)</sup>، ورثى الجليس عدد من الشعراء منهم ابن قلاقس، فمن قوله يرثي الجليس ويمدح ابنه:

فيا حسنات الدهر عدن مساويا  
فأعوزنا لماعدنا موازيا  
ولم تنتصر فيها الكهامة العواليا  
فأيقنت لكنني خدعت فؤاديا  
تقلص عن ياسي جناح رجائيا  
فلا بد أن يلقي بشيرا وناعيا  
ولم أستطع عقرا عقرت القوافيا  
شوائد بالذكر الجميل شواديا  
وما كان إلا قاضب الحد قاضيا  
فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا  
وبالبرق ملطوما وبالغيث باكيا  
إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا  
فخلف حتى الري في الماء صاديا  
لراح كما لا يشتهي عنه شاكيا  
وشد على «عاد» و«شداد» عاديا  
أقاما زمانا يشربان التصافيا  
لفقدك فاسمع صالحات بواقيا  
فوا أسفا كيف استحالت تعازيا  
حلاك ملأت الخافقين مراثيا  
وأعلاق قلبي باقيات كما هيا

علمنا وقد مات الكمال التساويا  
وقمنا نرجي في المصاب مواسويا  
ومما شجا أن المعالي تجدلت  
سألت فقالوا مصرع لو علمته  
فحين احتوت كف المنون على المنى  
ومن يسأل الركبان عن كل غائب  
ولما سرى بي نحوه الوجد قاعدا  
وسيرت منها بالنوادي نوادبا  
وعضب جدال فلل الدهر حده  
ونور هدى أسرى به خابط الهدى  
لمنعاه قام الرعد بالجوائجا  
وأسلبت الظلماء نور غدائر  
تخرمه الدهر المخاتل صائدا  
ولورامه شاكي السلاح محسدا  
وهيهات جر الدهر من قبل «جرهما»  
وكدر ندماني «جذيمة» بعد ما  
جليس أمير المؤمنين أقمتهها  
وقد كنت أجلوها عليك تهنئا  
ولولا سليلك اللذان توارثا  
هما ألبساني عنك ثوب تصبر

سقى الرائح الغادي ضريحك صوبه  
ولا برحت فيك القلوب عقيرة  
وإن كان يسقي الرائحات الغوايا  
تسيل بأسراب الدماء المآقيا<sup>(١)</sup>

### عمارة اليميني:

هو الشاعر الذي يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمي؛ بالرغم من أنه لم يكن مصرياً، ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة، وأنشد قصيدته التي مطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم  
حمداً يقوم بما أولت من النعم

فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته، فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليس، وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وابن قادوس، والمهذب بن الزبير... وغيرهم. ومكث عمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠هـ ثم عاد إلى مكة، ومنها رحل في صفر سنة ٥٥١هـ إلى وطنه الأصلي اليمن، وفي هذه السنة نفسها ذهب لتأدية فريضة الحج، فطلب منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى، فجاء إلى مصر حيث أمضى ما بقي من سني حياته.

اتصل عمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع بن رزيق حتى انقرضت الدولة الفاطمية؛ لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان. ويُعدُّ شعر عمارة من السجلات والوثائق التي تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التي أدت إلى زوال الدولة الفاطمية، فإن الجزء الذي بقي لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد في كل

(١) ديوان ابن قلاؤس: ص ١١٥.

حادثة أَلَمَّتْ بمصر في هذه السنين؛ فقد كان يمدح الوزراء الذين كان بيدهم مقاليد الأمور، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح، كما أنه وجد منها مادة لكتابة «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية»، وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية، كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم، ونحن نعلم أن عمارة كان سُنيَّ المذهب؛ بل كان متعصبًا لمذهبه، ولم يتحول عن هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يعتنق مذهب الفاطميين، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثر بما كان يجري في مصر، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة بعقائد الفاطميين، وقد ذكرنا طرفًا من ذلك فيما قبل. ونستشهد الآن بقصيدته النونية التي قالها في رثاء أهل البيت في عاشوراء، وضمنها مدحًا للملك الصالح، وهي القصيدة التي أولها:

فيه، وإن كنت الشفيق الحاني  
صلة الغرام مطامع السلوان  
فبدت خفية شأنه للشاني  
سرى أسيرًا في يد الإعلان  
وجد يبيح ودائع الأجنان

رأي الرشاد، فما الذي تريان؟  
تنتهى النهي عن طاعة العصيان  
وتجلد قاص وهم دان  
آل الرسول نواعب الأحزان  
إن فات نصر مهند وسنان

شأن الغرام أجل أن يلحاني  
أنا ذلك الصب الذي قطعت به  
ملئت زجاجة صدره بضميره  
غدرت بموثقها الدموع فغادرت  
عنفت أجناني فقام بعنذرها  
وفيها يقول عمارة:

يا صاحبي وفي مجانبه الهوى  
قبضت على كف الصبابة سلو  
أمسى وقلبي بين صبر خاذل  
قد سهلت حزن الكلام لنادب  
فابذل مشايعة اللسان ونصره

تشبيب شكوى الدهر والخذلان  
سفهاً وشنت غارة الشنان  
وتقابل البرهان بالبهتان  
ظهر النفاق وغارب العدوان  
لم بينها لهم «أبو سفيان»  
أخذوا بثأر الكفر في الإيمان  
تركت «يزيد» في النقصان  
وتشبهت بهم بنو «مروان»  
غيث الورى ومعونة اللهفان  
وجسومهم صرعى بكل مكان  
باعت جزيل الربح بالخسران  
بالنص فيه شواهد القرآن  
بالصالح المختار من «غسان»  
كم أول أربى عليه الثاني<sup>(١)</sup>

واجعل حديث بني الوصي وظلمهم  
غصبت أمية إرث آل «محمد»  
وغدت تخالف في الخلافة أهلها  
لم تقتنع أحلامها بركوبها  
وقعودهم في رتبة نبوية  
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم  
فأتى «زياد» في القبيح زيادة  
حرب، بنو «حرب» أقاموا سوقها  
لهفي على النفر الذين أكفهم  
أشلاؤهم مزق بكل ثنية  
مالته عليهم بالتالي أمة  
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم  
ما كان أولاهم به لو أيديوا  
أنساهم المختار صدق ولائه

فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جارى القوم في عاداتهم،  
وفي أشعارهم، فهو لم يتشبع، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء  
مصر في رثاء أهل البيت في أيام ماتمهم، وشارك المصريين في احتفالاتهم، فله  
عدة قصائد في كسر الخليج؛ من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسمائة في  
مدح العاضد:

ووارث علم النمل والنحل والحجر

سجوداً فهذا صاحب الركن والحجر

وفيهما يقول:

(١) النكت: ص ٣٦٣ وما بعدها.

تزورك من صوم شريف ومن فطر  
 فعام إلى عام وشهر إلى شهر  
 ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر  
 تعجبت من بحر يسير إلى نهر  
 يسد هبوب الريح بالأسل السمر  
 أسنته مطبوعة بسنا الفجر  
 كتائبها سطر يضاف إلى سطر  
 رأيت عليها غرة العز والنصر  
 تطرز بالإحسان والعدل والبر  
 وحافظ حكم الله في محكم الذكر  
 فمتعك الرحمن بالناصر الذخر<sup>(١)</sup>

تمل أمير المؤمنين مواسمًا  
 يواصلها سعد بجدك مقبل  
 ركبت إلى كسر الخليج وإنما  
 ولما رأيت البر بحرًا من الظبا  
 غدوت بفتح السد في زحف أرعن  
 يرد ظلام النقع فجرًا كأنها  
 كأن على البيداء منه صحيفة  
 إذا خفقت أعلامه وبنوده  
 وقد خلع التأيد فوقك حلة  
 أوارث مجد الحافظ بن محمد  
 إذا ما استجاب الله صالح دعوة

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر  
 الفاطمي، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره، بل بلغ به تأثره  
 بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم في الوقت الذي تحلى عنهم جميع  
 المصريين، وشمته بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة، فعمارة اليميني  
 السني المذهب كان وفيًا لهم الوفاء كله، فأنشد قصيدته التي مطلعها:

رميت يا دهر كف المجد بالشلل  
 وجيده بعد حسن الحل بالعطل  
 وفيها يقول بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشأتهم:

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم  
 ولا سقي الماء من حر ومن ظمًا  
 ولا رأى جنة الله التي خلقت  
 ولا نجا من عذاب الله غير ولي  
 من كف خير البرايا خاتم الرسل  
 من خان عهد الإمام العاضد بن علي

إذا ارتهنت بما قدمت من عملي  
لأن فضلهم كالوابل الهطل  
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل  
وحبهم فهو أصل الدين والعمل  
الغيث إن ربت الأنواء في المحل  
من محض خالص نور الله لم يغل  
ما أحر الله لي في مدة الأجل<sup>(١)</sup>

أئمتي وهداتي والذخيرة لي  
تالله لم أفهم في المدح حقهم  
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت  
باب النجاة هم دنيا، وآخرة  
نور الهدى ومصايح الدجى ومحل  
ائمة خلقوا نورًا فنورهم  
والله ما زلت عن حبي لهم أبدًا

فكانت هذه القصيدة، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين لإعادة ملكهم بتولية ابن العاضد، سببًا في القبض عليه معهم وصلبه سنة تسع وستين وخمسمائة، واتهمه الفقهاء بالكفر، وقال فيه تاج الدين الكندي الشاعر:

وبايع فيها بيعة وصليبًا  
فأصبح في حب الصليب صليبا  
تجد منه عودًا في النفاق صليبا  
ويسقى صدايد في لظى وصليبا<sup>(٢)</sup>

عمارة في الإسلام أبدى خيانة  
فأمسى شرك الشرك في بغض أحمد  
وكان خبيث الملتقى إن عجمته  
سيلقى غدًا ما كان يسعى لأجله

وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه أموالهم وعطايهم، وأكرموا الإكرام كله، فقابل ذلك كله بوفاء الوفي الأمين.

ابن قلاقس:

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي الإسكندري، ولُقِّبَ بالقاضي الأعز، وُلِدَ بالإسكندرية سنة

(١) الخطط: ص ٣٩٣.

(٢) النكت: ص ٣٩٧.

٥٣٢هـ، وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبي طاهر السلفي وعن غيره، ثم رحل عن مصر إلى اليمن، فدخل عدن سنة ٥٦٣هـ متكسباً بشعره، فمدح بها ياسر بن بلال، ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥هـ ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر، وصنّف باسمه كتاباً سماه: «الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم»، وشاء العودة إلى مصر، وتوفي بعيذاب سنة ٥٦٧هـ<sup>(١)</sup>، فالشاعر كان يتجر بشعره، ويرحل إلى الممدوحين بقصد الكسب؛ مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نواهم. مدح الخليفة الفاطمي بقوله:

فافسح رجاءك واطلب فسحة الأجل	في مرتقى الوحي تعلقو مرتقى الأمل
فقد تأملت منه واهب الدول	لا تنتجع للأماني بعده دولا
للناس أيامه عن صفوة الرسل	وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت
لعاد واهي قرون الرأس كالوعل <sup>(٢)</sup>	لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته

ومدح الوزير شاور، وعرض بشيركوه بقوله:

ورأى البأس أن تطيع السباحا	عارض الصفح في يديك الصفاحا
ب بعفو خفضت منه الجناحا	فرفعت الجناح عن جارم الذنـ
عزم والرأي إن وضعت السلاحا	وضعت السلاح حين أراك الـ
ح فلم يتدر إليه افتاحا	أي ثغر سما إليه أبو الفتـ
ر فراحت بها تباري الرياحا	بخيول طارت بأجنحة النصـ
ل وساقوه في العجاج صباحا	وكهامة غرق قد اقتطعوا الليـ
ب شقيقاً ما كان قبل أقاحا	ورماح تجني فنجنيك في الحرـ
ألقت بالضراب جباً لقاحا	وظبي تقطع الترائب مهـ
ل وصاحت به فصاحاً فصاحا	شاركت شيركوه في النفس والمـ

(١) راجع معجم الأدباء: ج ١٩، ص ٢٢٦، وابن خلكان: ج ٢، ص ١٥٦.

(٢) ديوان ابن قلاؤس: ص ٨٨.

سرف منك الطلاب إلا النجاحا  
 سبلاً غودرت لديه فساحا  
 ضربت بالقننا عليه القداحا  
 ح طليقاً ليضكم حيث راحا  
 ترك المجد والمعالي صحاحا  
 أوضحاه لمبصر إيضاحا  
 حاً، وهذا أعطاك ملكاً صراحاً<sup>(١)</sup>

طلب الأمن فاستجيب وما يع  
 بعد ما ضيق الحمام عليه  
 وأقامته كالجدور حماة  
 فليطل بعدها الفخار فقد را  
 يا معل الظبا البواتر ضرباً  
 فيك لله والخليفة سر  
 ذاك أعطاك آية النصر تصريـ

ومدح الكامل بن شاور، والقاضي الجليس، والقاضي ابن خليف،  
 والحافظ السلفي، وابن مصال، والقاضي الفاضل... وغيرهم من رجال مصر؛  
 فمن مدائحه للكامل بن شاور قوله:

من بعد ذم غدوه ورواحه  
 من حسن رأيك فيه ظل جناحه  
 لقد انبرى والصفح تلو صفاحه  
 لقد اغتدى والعزم من أرباحه  
 متقلد بنجاده ووشاحه  
 وندى تبسم في ثغور أقاحه  
 بدر جلا الإمساء عن إصباحه  
 فاستخدمتها في رءوس رماحه  
 فاستغرقته في بحور سماحه  
 للملك كالأرواح في أشباحه  
 وعلى أياديكم ثناء فصاحه  
 ونذاك قوام بأمر لقاحه<sup>(١)</sup>

حمد السرى من كنت وجه صباحه  
 ورأى النجاح مؤمل ألحقته  
 وأما وعزمك وهو أنهض فاتك  
 وبديع مدحك وهو أينق متجر  
 فالدهر بين فريده وفرنده  
 بأس تورد في حدود شقيقه  
 والكامل المسعود في آفاقه  
 بمناقب سمت النجوم لنيلها  
 ومواهب عان السحاب معينها  
 يا آل شاور أنتم دون الورى  
 وإلى معاليكم إشارة خرسه  
 لم لا يكون الشكر عندك متجاً

ولكنه كان مولعاً بالأسفار وركوب البحر، ولذلك يقول:

والناس كثر ولكن لا يقدر لي إلا مرافقة الملاح والحادي<sup>(٢)</sup>

ويقول في مدح ياسر بن بلال الداعي بمدينة عدن، وكان قد فارقه، ولكن سفينته غرقت فعاد إليه مرة أخرى، وأنشده هذه القصيدة يصف فيها غرقه، ويتحدث عن ولعه بالأسفار:

سافر إذا ما شئت قدراً	سار الهلال فصار بدراً
والماء يكسب ما جرى	طيباً ويخبث ما استقرّاً
وبنقلة الدرر النقي	ة بدلت بالبحر نحراً
وصلاً إذا امتلأت يدك	فإن همما حلتا فهجرا
فالبدر أنفق نوره	لما بدا ثم استسرا
حركات عيسك ما أرد	ت مهاد عيشك أن يقرا
إما ترينني شاحب الـ	وجنات قد ألبيت طمرا
فوقائع الأيام تخـ	رج أهلها شعثاً وغبرا
مدت إلى الأربعـ	ن يداً وقد قهقرت عشرا
واسـتحدثت في لمتي	نقطاً فهلاً كنّ حبرا
ما قلت أف فإنها	شرر بأف يعود جمرا
وكفراك أي إن نظـ	ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الغض لـ	لاً فاستنار الشيب فجراً
ولئن تقلب بي الزمـ	ن كما اشتهى بطناً وظهراً
فبما قتلت صروفه	وقتلته جلدًا وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما	ء الغدر أنهاراً وغدرا

(١) المصدر نفسه: ص ٢٧.

(٢) ابن خلكان: ج ٢، ص ١٥٧.

عرفًا، وليس تراه نكرًا  
 في نسله وهلم جرا  
 سب أنبي ارتاع بحرًا  
 هيل المصاعب منه أدرى  
 نحوي وسوف تعود يسرًا  
 أيامه كسرًا وجبرًا  
 أحكامه نهيًا وأمرًا  
 أولى سببها بأخرى  
 في إثره بالجهد قطرا  
 أنفاسه تعبًا وبهرا  
 ب فأنبتت حمدًا وشكرًا  
 عمرا أو استتجدت عمرا  
 سوداء أعدته طرًا  
 فأبادهم قتلى وأسرى  
 نهر الدلاص الرعف نهرا  
 بل خلفهم بيضًا وسمرا  
 بثقيفه، والضيف يقرى  
 خبرًا ولم يعرفه خبرًا  
 وقل السلام عليك بحرًا  
 بالبحر، اللهم غفرًا  
 جمًا، ونلت بذاك فقرًا  
 ح لها بطرف الحقد شزرا

فانظر بعينك هل ترى  
 خلق جرى من آدم  
 ومروعي بالبحر يحـ  
 أو ما درى أني بتـ  
 أعددت نظرة «ياسر»  
 من صرف الأقدار في  
 واسـتخدم الأيام في  
 وانتاشني في نظرة  
 فالسحب ترشح إذ جرت  
 والرعد رجوع جاهدًا  
 غرس الصنائع في الرقا  
 يقظان إن نبهته  
 ولرب طرة معرك  
 أسرى إلى أبطالها  
 من كل متشع على  
 جروا الذوائب والذوا  
 فالسيف يقرع بينهم  
 يارايًا عن شخصه  
 والشم بنان يمينه  
 وغلظت في تشبيهها  
 أو كنت نلت بذا ندى  
 بنوافذ ترنو الريا

لا زال ينظر عودها —————  
بنداه لادن المتن نصراً<sup>(١)</sup>

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البديعية في شعره؛ بخلاف بعض الشعراء الذين عاصروه أمثال المهذب والرشيد والجليس وغيرهم، وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألموا بالمحسنات البديعية، ولكنهم لم يتعمدوها كما تعمدها ابن قلاقس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه المقابلات والتوريات وغيرها من ألوان الزينة اللفظية.

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعر في العصر الفاطمي، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم، ويأخذون عطاياهم، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء أنفسهم إبان سطوتهم وقوة ملكهم، ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع المتفرقة أو القصائد الناقصة، ومع ذلك فالذي بقي لنا من الشعر يدلنا على أن نهضة الشعر كانت قوية، وأن تياره كان جارفاً، وأن عدد الشعراء المجيدين تضاعف بحيث يُحِيل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينشد الشعر، وأن كتاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء. ويكفي أن نُلقِيَ نظرة على مجاميع الشعر، أمثال اليتيمة والدمية والخريفة، أو كتب التراجم؛ لندرك أن عدداً كبيراً جداً من المصريين أنشد الشعر، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر أن تبرز غيرها في مضمار القريض.

(١) ابن خلكان: ج ٢، ص ١٥٧، وديوان ابن قلاقس: ص ٣٨.

## الفصل الرابع الشعر والحروب الصليبية

يُحْيَلُ لكل مَنْ يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة ولين، ألم يتحدث المؤرخون عن النعيم الذي كان في العصر الفاطمي، والترف الذي كان يرفل فيه المصريون، والحياة الناعمة اللينة التي كان يجيهاها الناس؟ ولكن المؤرخين أنفسهم تحدّثوا أيضًا عن لون آخر من الحياة، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم، منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب، ويتحسّنون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت لتشل عرش العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين العتيد - أعني الروم - ودول جنوب أوروبا التي كان يهددها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشتبكون في حروب صعبة المراس، هي التي عُرفت في التاريخ بالحروب الصليبية. أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضًا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية في مصر وفي ممتلكاتها، وحروب بين الأمراء لتولي الوزارة. فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية، وسجّل الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بالله عندما هزم هفتكين الشرابي التركي - مولى معز الدولة البويهبي - في دمشق، ثم طلب العفو من العزيز، فوصف تميم هذا الحادث بقوله:

وإنَّ لقوم نروع الزمان      وللسنا نراع إذا ما سطا

به عاد سيف الهدى متضى  
 بها الحرب نزاعة للشوى  
 وقوم من زيغها ما التوى  
 وعاد كجنح الظلام الضحى  
 هل؟ ولا من مجيب: أنا  
 وصلت لبيض السيوف الطلى  
 غناء يعيد الفرادى ثنى  
 بها الخيل في النقب قب الكلا  
 تداركها وهي لا تصطلي  
 وأمسك من سجله ما انهمى  
 كصبح بدأ طالعا في الدجى  
 عبوس الكهامة به قد بدا  
 ولم يسكن الروع منه حشا  
 أسود رجال كأسد الشرى  
 لفدتك صارخة بالعدا  
 ولم تغمد السيف حتى انفرى  
 ولولاك ما خاب ذاك اللظى  
 بها الفارس الملك المتقى  
 وفدتك منهم ذوات اللمى  
 ولم يجردوا غيره ملتجا  
 عليه وأخلفه مارجا  
 جيوشك واستوقفته الربا  
 لكننت له غافرا ما مضى  
 وليس الفتى كل يوم فتى

ومنا الإمام العزيز الذي  
 سعى للشأم وقد أصبحت  
 فكشف من ليلها ما سجا  
 ولما تقابلت الجحفلان  
 ولم يبق في الصف من قائل:  
 وقد ولغت في الصدور الرماح  
 وغنت على البيض بيض الذكور  
 كأن الرماح سكارى تجول  
 فلولا الإمام العزيز الذي  
 فسكن عارض شؤبوبها  
 بدا لهم دارعا في العجاج  
 يكر وييسم في موقف  
 ولم يخذل السيف منه يدا  
 يقود إلى الحرب من جنده  
 فلوفدت الحرب قوما، إذن  
 فلم تصدر الرمح حتى انثنى  
 ولم يحمل الموت حتى حملت  
 فما انفرجت عنك إلا وأنت  
 فجاءك منهم ملوك الرجال  
 ولاذوا بعفوك مستأمنين  
 ولما رأى فتحها هفتكين  
 تولى لينجو فخفت به  
 ولو طلب العفو قبل الهروب  
 ولكننه اعتاد فيها الإباق

وقد بلغ الماء أعلى الزبى  
 وإن كان في بأسه المتهى  
 فلما رآك غداً لا يرى  
 وقد مُلئت مقلتهاه عمى  
 على وقعات الدهور الألى  
 تذود عن المارقين الكرى  
 وتمسي على مثل جمر الغضا  
 أساءوا الظنون وحلوا الحبا  
 تدور عليهم بقطب الرحى  
 ويندبهم وهورهن البلى<sup>(١)</sup>

ورام الخلاص وكيف الخلاص  
 ولم يك كفوؤك في حربيه  
 وقد هزم الأسد حتى انتهاك  
 فراح وحشو حشاه أسى  
 أريتهم وقعات تزيد  
 ببغداد من ذكره جولة  
 فأنفس ديلمها تغتدي  
 إذا سمعوا بالإمام العزيز  
 يخافون من بأسه وقعة  
 ينادي «بويه» بنيه بها

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون، وأن نمر بالأشعار التي أنشدتها شعراؤهم في وصف تلك المعارك، لتحدث عن شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون، وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي، ووقفت أمام مسيحيي أوروبا تكافح وتناضل طوال هذه القرون، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوروبيين، وجعلت آمالهم وأحلامهم قصوراً بُنيت في الهواء.

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٩٠ هـ في عهد المستعلي ووزيره الأفضل بن بدر الجمالي، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية، ونكتفي بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة في أول الأمر، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تحاذله وتهاونه؛ بيد أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعة النعمان

سنة ٤٩١ هـ، وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس، فاضطر حينئذ على أن يعبئ جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر، ولكن جيوشه هُزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بجوار بيت المقدس، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان، ثم إلى العودة إلى مصر.

على أن شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين؛ بل سببها ثورة بعض الجنود على الأفضل وتآمرهم للفتك به، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يعتذرون عن الأفضل، وعن انهزامه في هذه الحرب الصليبية الأولى. وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود، كما أن الشاعر يصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالذود عن الدين ونصرة المسلمين، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي دهمهم، فهو يقول:

جردت للدين والأسياف مغمدة سيفاً تفل به الأحداث والغير

وبعد أن تحدّث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب، أخذ في الاعتذار عن هزيمته، وتوعّد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم، والانتصار عليهم:

وإن هم نكصوا يوماً، فلا عجب قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

العود أحمد والأيام ضامنة عقبى النجاح ووعد الله ينتظر

وربما ساءت الأقدار ثم جرت بما يسرك ساعات لها آخر

ونقل المقرئ عن ابن الطوير: أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد الفرنج، فوصل إلى عسقلان، وزحف عليها بذلك العسكر، فخُذِل من جهة عسكره، وهي نوبة النصبة، وعلم أن السبب في ذلك من جنده، وكان عند الفرنج شاعر متجع إليهم، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج:

نصرت بسيفك دين المسيح      فله درك من صـنجل  
وما سمع الناس فيما روه      بأقبح من كسرة الأفضل  
فتوصّل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر<sup>(١)</sup>.

وعاد الأفضل إليهم، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكرة، ولكنه لم ييأس من الظفر، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولي الملك الصالح طلائع بن رزيق، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج، فكان ينتصر حيناً وينهزم حيناً آخر، وسجل شعراؤه هذه الحروب، فمن ذلك قول شرف الدولة ابن جبر أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المعارك التي خاضها ابن رزيق ضد الفرنج:

أطفى ابن رزيق لهيب ضرامه      والبيض تخطب في الرءوس فتسمع  
وكتائب للشرك كنت إزاءها      متعرّضا فانفض ذاك المجمع  
ولكم صرعت من الفرنج سميذعا      بلقائه لك قيل: أنت سميذع<sup>(٢)</sup>

وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزيق، ولم يذكر العماد الواقعة التي كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها:

وتلقى الدهر منه بليث غاب      غدت سمر الرماح له عرينا  
تخال سيوفه إما انتضاها      جداول والرماح لها غصونا  
وتحسب خيله عقبان دجن      يرحن مع الظلام ويغتدينا  
إذا قدحت بجنح الليل أورت      سنأ يغشى عيون الناظرينا  
وإن صبحت مع الإصباح عدواً      أثار للعجاج به دجوننا  
كأن الشمس حين نثير نفعاً      تحاذر من سطاها أن تينا

(١) المقرئ: ج ٢، ص ٣١٠.

(٢) الخريدة: ١٢.

أسى إذ أبصرت منه الجينا  
 مخافة أن يحطمها مينا  
 يدق بها الكواهل والمتونا  
 وتوصف بالظها، بحرًا معينا  
 نطافًا من دروع الداريننا  
 وقد شربت دماء الكافريننا  
 حسبت نصالها تلك العيوننا  
 إذا ما مد بالقضب اليميننا<sup>(١)</sup>

وما كسفت بدور الأفق إلا  
 وما اضطربت رماح الخط إلا  
 وما تندق يوم الروع حتى  
 عجبت لها تصافح من يديه  
 ويوردها ولا تحظى بـري  
 وهل يشفى لها أبدًا غليل  
 إذا لقيت عيون الروم زرقًا  
 تحال البحر مدبه خليج

ومرة أخرى ذكر العماد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣ هـ  
 لحرب الصليبيين، وانتصر الأسطول، فأنشد المهذب يمدح الصالح ويصف  
 الأسطول، ومن هذه القصيدة ندرك أن الموقعة كانت بالقرب من العريش:

أن القلوب مواقع النيران  
 بصوارم سلمت من الأجنان  
 بشبا ضراب صادق وطعان  
 منه ومن دمهم معًا بحران  
 في يوم حربهم من الأقران  
 ممن تجاوب بالنجيع القاني  
 كشقائهم نُثرت على الرياح  
 وطففت عليه منابت المرجان  
 لم يأت في حين من الأحيان  
 من فتكها ولها العداة شواني  
 وفعلن فعل كواسر العقبان

أعلمت حين تجاوز الحيان  
 لما أبوا ما في الجفان قريتهم  
 وثللت في يوم العريش عروشهم  
 ألجأتهم للبحر لما أن جرى  
 ومدح الوري بالبأس إذ خضبوا الظبا  
 ولأنت تحضب كل بحر زاخر  
 حتى يرى دمهم وخضرة مائه  
 وكأن بحر الروم خلق وجهه  
 ولقد أتى الأسطول حين غزا بما  
 أحجب إلي بها شواني أصبحت  
 شبهن بالغربان في ألوانها

ففيها القنا عوصاً من الأشطان  
 في كل بكر عندهم وعوان  
 شعبان كيما يلام الشعبان  
 سدو الشام وهو عليهما قسان  
 وجعلته من أقرب الإخوان  
 ما لم يكن ليعد في الإمكان  
 لما عسا في البغي والعدوان  
 مر الجنايبدو على المران  
 أوفي برتبته على كيوان<sup>(١)</sup>

وقرتها عدد القتال فقد غدت  
 حرب عوان حكمتك من العدا  
 وأعدت رسل ابن القسيم إليه في  
 والفأل يشهد باسمه أن سوف يغـ  
 وأراك من بعد الشهيد أباله  
 وهو الذي ما زال يفعل في العدا  
 قتل البرنس ومن عساه أعانه  
 وأرى البرية حين عاد برأسه  
 فليهنه أن فاز منك بسيد

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون في كتبهم، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين، تلك هي علاقة الملك الصالح بن رزيق بنور الدين زنكي إبان الحروب الصليبية، فالشاعر هنا يذكر نور الدين، مرة يذكره «بابن القسيم» أي ابن قسيم الدولة أتاك زنكي، ويذكره مرة ثانية باللقب الذي عُرف به وهو «الشهيد»، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذي كان بين الملك الصالح وبين نور الدين، ويقضي هذا الاتفاق على أن يواصل الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين، هذا الاتفاق الذي أشار إليه المهذب في هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين، ويغلب على ظني أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التي كانت بين الشاعر والملك الصالح، لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذي كان بين العاهلين.

وفي عهد الملك الصالح طلائع بن رزيق، كان الصليبيون يمعنون في شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان، ووردت الأنباء بأن عسكر

(١) الخريدة: ورقة ٤٠ وما بعدها.

المصريين استولوا على عسقلان، وقتلوا من بها من عسكر الفرنج، وسرَّ المصريون بذلك الانتصار سرورًا عظيمًا نلمح أثره في قصيدة الملك الصالح التي أرسلها إلى أسامة بن منقذ صاحب حصن شيزر، وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين زنكي في حروبه ضد الصليبيين:

وتنضي لدى الحرب السيوف الصوارم  
وليس سوى سمر الرماح سلام  
ويوطأ حماها والأنوف رواغم  
وإن بذلت فيها النفوس الكرائم  
ثنى حتى اثنى وهو غانم  
مفاوز، وخذ العيس فيهن دائم  
عزيمته جهد الظما والسائم  
إذا هي ما انقضت نسور قشاعم  
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم  
تهون على الشجعان فيها الهزائم  
إذا ما تلاقى العسكر المتضاحم  
رءوس وحزت للفرنج غلاصم  
ولا قيل: هذا وحده اليوم سالم  
ولا حكمت فيه الليالي الغواشم  
وتظهر فتورًا إن مضت منك (حارم)  
يعض عليها للملوك الأباهم  
علمنا يقينًا أنه بك راحم  
بأنك قد لاقيت ما الله حاتم  
وحلت بها تلك الدواهي العظام  
فسيقت سبايا واستحلت محارم

ألا هكذا في الله تمضي العزائم  
وتستنزل الأعداء من طول عزهم  
وتغزي جيوش الكفر في عقر دارها  
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهم  
نذرنا مسير الجيش في صفر فما اند  
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعًا  
فما هاله بعد الديار ولا ثنى  
يباري خيولاً ما تزال كأنها  
يسير بها «ضرغام» في كل مآزق  
وواجههم جمع الفرنج بحملة  
وما زالت الحرب العوان أشدها  
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت  
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر  
فقولوا «لنور الدين» لا فل حده  
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن  
فما مثلها تبدي احتفالاً به ولا  
فعندك من أطفاف ربك ما به  
أعادك حيًا بعد ما زعم الورى  
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها  
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر

فَقُمْ واشكر الله الكريم بنهضة  
فنحن على ما قد عهدت نروعهم  
وغاراتنا ليست تفر عنهم  
فأسطولنا أضعاف ما كان سائراً  
إليهم فشكر الله للخلق لازم  
ونحلف جهداً أننا لا نسالم  
وليس ينجي القوم منا الهزائم  
إليهم فلا حصن لهم منه عاصم<sup>(١)</sup>  
ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة:

يا سيدياً يسموا بهمة  
أنت الصديق وإن بعد  
يهنيك أن جيوشنا  
سارت إلى الأعداء من  
فتغير هذي بكرة  
فالويل منها للفرنج  
جاءت رءوسهم تلوح  
تته إلى الرتب العلية  
ت وصاحب الشيم الرضية  
فعلت فعال الجاهلية  
أبطالها مائتاً سرية  
وتعاود الأخرى عشية  
فقد لقوا جهد البلية  
على رءوس السمهرية<sup>(٢)</sup>

وفي قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعه بين الملك الصالح  
والصليبيين، وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سمّاه ابن الصياد «بأرناط»،  
واسمه الصحيح «رينولد» Renault.

قال ابن الصياد:

عن سيف دين الله سلّ «أرناط»  
والمشرفية قد حكمت في جيشه  
قد سام طير الكفر منه منسراً  
هو ملبس جيش العدا في الحرب من  
حيث المينة كأسها يتعاطى  
في العل والنهل القطا الفراطا  
أشغى وعابن مخلباً عطاطا  
حلل النجيع مجاسداً ورياطا

(١) الروضتين: ج ١، ص ١١٥.

(٢) الروضتين: ج ١، ص ١١٦.

وترد خرصان الرماح سياتا  
من دينه الأطراف والأوساط  
لما أثار من العجاج عطاطا  
في الروح شيطان الحروب فشاطا<sup>(١)</sup>

فجواده تشكو مزاحمة القنا  
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا  
كم قد أنار من الأسنة أنجماً  
فتخاله ملكاً رمى بشهابه

ويحدثنا عمارة اليميني في النكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون مصر، ووصلوا إلى إقليم الحوف، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل الناصر خلفهم، وطاردهم إلى أبي عروق من إقليم فلسطين، وعاد بجيوشه منتصراً إلى بلبس، ففرق في الجيش مالا كثيراً، وخلع على الأعيان.

ويذكر عمارة أن له ولغيره من شعراء مصر شعراً في هذه الموقعة، ولكن لم يصل إلينا من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لعمارة منها قوله:

عليه إن جلّ خطب أو طرا وطر  
وتجمل الشمس مهما لاح والقمر  
فللنوائب عن سكانه سفر

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره  
متوج تشرق الدنيا بطلعته  
إذا أقامت على ثغر صوارمه  
ومنها قوله:

من بعد ما غالها الإشفاق والحذر  
والنصر يقسم لا فاتوك والظفر  
تلح له منهم عين ولا أثر  
نجا، وكم قدرة قد عاقها القدر  
يفنى بها الأكثران: الرمل والمطر  
تكاد من حره الأجفان تستعر<sup>(٢)</sup>

أغاث أعمال «بلبس» وأمنها  
وحين أبلت عذراً في اللحاق بهم  
وقال: عزمك لما أن ألح ولم  
إن ينج منها «أبو نصر» فعن قدر  
وعدت نحو مقر العزم في عصب  
وللصوارم في أجفانها أسف

(١) الخريدة: ورقة ٦٧.

(٢) النكت: ص ٥٤ وما بعدها، وص ٢٤٧.

هذا الشاعر الذي مدح الوزير بانتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجا من هذه الموقعة (عن قدر)، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يُقتل فيها ابن الوزير، ولكن القدر فقط هو الذي أنجاه من خطر محقق. ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة في مدح الملك الصالح، وفيها ذكر لهذه الموقعة؛ منها قوله:

ديارهم لم ينجهم منك مهرب	تيقنت الإفرنج أنك إن ترد
فجاءتك يا ليث الشرى تتغلب	وخافتك إن لم تعطها الأمن منعماً
ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب	وأهدوا رجال السلم آلة حربهم
بسيئك يا سيف الهدى سوف يسلب <sup>(١)</sup>	وذلك فال صادق أن عزهم

وهذه الموقعة هي إحدى الغلطات الثلاث التي كان يعدها الصالح نفسه؛ إذ يروي ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات: خروج الملك الصالح إلى بلبس بالعساكر، ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس، ويستأصل شأفة الفرنج<sup>(٢)</sup>. وفي هذه الموقعة نفسها قال عمارة أيضاً في مدح الملك الناصر بن الصالح:

علا فنجوم الأفق عنه سفال	رأيتك لم تقنع بمنصبك الذي
حرام المنايا بينهن حلال	فباشرت مكروه الوغى في مواطن
وإن راق منه جوهر وصقال	وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه
وليس لها غير القتال كمال	كأنك خلت السلم نقصاً على العلا
وكاد الهوى يسطو عليه ضلال	ولما تشكى الخوف حيفاً على الهدى
تغل بها أعناقهم وتغال	نهضت إلى الإفرنج تزجي كتاباً
سباسبب حالت دونهم ورمال	فولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم

(١) النكت: ص ١٧٦.

(٢) ابن خلكان: ج ١، ص ٢٢٠.

وأتبعتهم ركضًا على كل سابع إذا الريح كلت لم يصبه كلال<sup>(١)</sup>

والمؤرخون يذكرون قصة شاور، واستنجاهه بالصلبيين ضد أسد الدين شيركوه وصلاح الدين، ففي موقعة بلبيس التي انتصر فيها شاور والفرنج، قال عمارة يمدح شاور ويعرض بالغزو:

ولقد دفعت إلى ثلاث نواب  
من معشر تغدو الساحة والندى  
فعصابة غزية غادرتها  
وعصابة رومية عاشرتها  
وعصابة مصرية بك أصبحت  
وتداركت بلبيس منك عواطف  
أقسمت لولا حسن رأيك لاغتندى  
بلد لو انهدمت قواعد سوره  
أبقيتها للمسلمين وإنه  
كادت تشيب لهوها ولدانها  
فيما حوت أجفانها وجفانها  
وأجل ما نرجوه منك أمانها  
فتأدبت وتمهذت أذهانها  
فوق البرية راجحًا ميزانها  
يسع الزمان وأهله غفرانها  
الناقوس في بلبيس وهو أذانها  
بيد النصارى لم يعد بنيانها  
ليعز بعد خرابها عمرانها<sup>(٢)</sup>

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين، ولولا هذا الاتفاق لاستولى الفرنج على بلبيس، ولدثر الدين في هذا البلد، ولذلك لم يهجم الصليبيون في هذا الشعر، وإن كان عرض بهم تعريضًا خفيًا، ونستطيع أن نعرف رأي عمارة في الإفرنج إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير، بل هي أبيات صادرة عن عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والنكبات التي جرّتها سياسة شاور على البلاد، فهو يقول:

يارب إنى أرى مصرًا قد انتبهت  
فاجعل بها ملة الإسلام باقية  
لها عيون الأعادي بعد رقدتها  
واحرس عقود الهدى من حل عقدتها

(١) النكت: ص ٣٠٧.

(٢) النكت: ص ٣٦٩.

وهب لنا منك عونًا نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقدتها<sup>(١)</sup>  
 وفي مديحه لصالح الدين، وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على  
 الصليبيين بقيادة مري، يقول عمارة:

حمى الله منكم عزيمة أسدية  
 لئن نصبوا في البر جسرًا فإنكم  
 طريق تقارعتم عليها مع العدا  
 أخذتم على الإفرنج كل ثنية  
 وأزعجه من مصر خوف يلزه  
 فككتم بها الإسلام من ربة الكفر  
 عبرتم ببحر من حديد على الجسر  
 ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر  
 وقلتم لأيدي الخيل مري على «مري»  
 كما لز مهزوم من الليل بالفجر<sup>(٢)</sup>

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم  
 الإسلامي عدة قرون، ولم يرَ العصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن فقط،  
 ومع ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعارًا حماسية  
 يمدحون شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من  
 فلسطين، على حين بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة  
 عدم اكتراث. وقد سجّل المصريون في هذه الحروب جهودًا كثيرة سجّلها  
 الشعراء الفاطميون في شعرهم، كما سجّلها شعراء الأيوبية وشعراء الفاطميين  
 في شعرهم، كما سجّلها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك في العصور  
 التالية لهذا العصر الذي نُورِّخه الآن.

(١) النكت: ص ١٩٠.

(٢) النكت: ٢٧٠.

## الفصل الخامس الفكاهة والمجون

رأينا في كتاب «أدب مصر الإسلامية» كيف تطورت الحياة في مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين، وكيف كثر المجون واللهو بتأثير التطور الذي حلَّ بالبلاد، ولكن مصر في العصر الفاطمي تطورت تطوراً آخر، فقد كانت حياة المرح واللهو على أشدها بالرغم مما ألمَّ بمصر في هذا العصر من كوارث ونكبات، وكانت أعياد الفاطميين ومواسمهم التي ابتدعوها تزيد في لهو الشعب ومجونه. أضف إلى ذلك ما كان يحدث في مصر في أعياد الأقباط التي شارك المسلمون في إحيائها والاحتفال بها، فقد كان الفاطميون يحتفلون «بعيد الميلاد» ويفرقون فيه على أرباب الرسوم من الأستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم الجلمات من الخلاوة القاهرية والمثارد التي فيها السميد وقربات الجلاب وطماير الزلابية والسمك المعروف بالبوري<sup>(١)</sup>. وينقل المقرئزي عن المسيحي أنه في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فرضت الخيام والمضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان، وأوقدت له الشموع والمشاعل، وحضر المغنون والملهون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف<sup>(٢)</sup>. وقال: إنه في سنة ٤١٥ هـ نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم، وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً<sup>(٣)</sup>. ونقل المقرئزي عن ابن المأمون أنه في غطاس سنة ٥٢٧ هـ فرق أهل

(١) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٢٥.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه.

الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم<sup>(١)</sup>. وفي خميس العدس كانت تضرب خمسمائة دينار فتعمل خرايب تفرق في أهل الدولة<sup>(٢)</sup>. وفي يوم النوروز كان اللعب بالماء ووقود النيران، ويقول ابن زولاق في سنة ٣٦٤هـ: وطاف أهل الأسواق وعملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام أظهروا فيها السجاجات<sup>(٣)</sup>. ويروي ابن المأمون أنه حل موسم النوروز في سنة ٥١٧هـ ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز من ثغر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريري والسوادج، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم<sup>(٤)</sup>. فالفاطميون كانوا يشاركون المسيحيين في أعيادهم ومواسمهم ويحتفلون بذلك احتفالاً يكاد يكون رسمياً، فلا شك أن الشعب كان يحتفل بذلك كله؛ مع ما كان للمسلمين من أعياد خاصة بهم، كما كان في مصر أيام ليست دينية، إنما هي مصرية يساهم فيها المسلمون وغير المسلمين؛ مثل يوم فتح الخليج مثلاً، وقد وصف الرحالة ناصر خسرو ما شاهده في هذا اليوم، وختم حديثه بقوله: «وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة»<sup>(٥)</sup>. ووصف المسيحي ما كان في يوم الثلاثاء لحمس بقين من المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان ثالث الفتح - أي فتح الخليج - بقوله: فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين في الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم، وركب أمير المؤمنين - يعني

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣١.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) سفر نامه (ترجمة يحيى الخشاب) ص ٥٥.

الظاهر - في مركبه إلى المقس وعليه عمامة مشرب مفوطة بسواد وثوب ديبقي من شكل العمامة، ودار هناك طويلاً وعاد إلى قصره سالمًا، وشوهد من سكر النساء وتمتكنهنّ وحملهنّ في قفاف الحمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره<sup>(١)</sup>. فكل هذه الأعياد التي كانت في العصر الفاطمي أدت بمصر إلى الاندفاع نحو حياة كلها فرح وحبور. أضف إلى ذلك كله ما كان عليه ثراء مصر في هذا العصر وبذخ الخلفاء والأمراء، وقد لمس ناصري خسرو وهذا الثراء فذكر أن أهل مدينة مصر (ويقصد الفسطاط) كانوا في غنى عظيم حين كنت هناك<sup>(٢)</sup>. فهذا الثراء جعل المصريين يتأنقون في ملبسهم ومسكنهم ومأكلمهم، ويتباهون بذلك كله، ويتنافسون عليه، وقد حدثنا المؤرخون عن ذلك كله بصور مختلفة هي أقرب إلى الصور التي تحدثنا عنها القصص. ومع ذلك فإن ما بقي لنا من آثار الفاطميين يدل على أن ما ذكره المؤرخون لم يكن من وحي الخيال إنما كان من الواقع المشاهد<sup>(٣)</sup>.

كانت هذه الحياة المرححة في مصر وثراء المصريين من أشد العوامل على تطور الحياة في مصر الفاطمية؛ وذلك أن حياة اللهو انتشرت واشتد تيارها، فخاض غمارها المصريون، وقد وصف «أبو الصلت» أخلاق المصريين التي شاهدها فقال: «أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهاك في اللذات»<sup>(٤)</sup>.

وفي حديث المقرئزي عن خزانة البنود قال عن الظاهر لإعزاز دين الله: «وكانت أيام الظاهر هذا سكوناً وطمأنينة، وكان مشغلاً بالأكل والشرب

(١) الخطط: ج ٣، ص ٢٣٥.

(٢) سفر نامه: ص ٦٢.

(٣) راجع كتاب «كنوز الفاطميين» للدكتور زكي حسن.

(٤) الخطط: ج ١، ص ٧٧.

والنزه وسماع الأغاني، وفي زمانه تأنق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ الأغاني والرقاصات، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة»<sup>(١)</sup>.

ويحدثنا المقرئزي أيضًا أن اللحاكم ألزم الناس بالوقيد، فاستكثروا منه في الشوارع والأزقة، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة، وصار الناس في القاهرة ومصر طول الليل في بيع وشراء، وأكثروا أيضًا من وقود الشموع العظيمة، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل، وعظم الازدحام في الشوارع والطرق، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات في الحوانيت وبالشوارع من أول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة<sup>(٢)</sup>.

ويروي المقرئزي: قال إبراهيم بن الرقيق في تاريخه: حدثني محمد الكهيني - وكان أديبًا فاضلاً قد سافر ورأى بلدان الشرق - قال: ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يسخون فيها بأموالهم رغبةً في القصف والعزف؛ وذلك أنه لا يبقى صغير ولا كبير إلا خرج إلى بركة الحبش متنزهًا، فيضربون عليها المضارب الجليلة والسرادقات والقباب والشراعات، ويخرجون بالأهل والولد، ومنهم من يخرج بالفتيات المسمعات المماليك والمحمرات، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكهون وينعمون<sup>(٣)</sup>.

وظهر أثر ذلك كله في الشعر، وكان شعر مصر الفاطمية أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة الماجنة، فوصف الشعراء مجالس الشراب واللهو، وتغزلوا بالمدكر حينًا وبالْمؤنث حينًا آخر، وتهادوا الجوّاري والغلمان، ودعا بعضهم

(١) الخطط: ج ٢، ص ٢٧٨.

(٢) الخطط: ج ٣، ص ١٧٦.

(٣) الخطط: ج ٣، ص ٢٥١.

بعضاً للاستمتاع بلحظات يختلسونها للهوهم ومجونهم، وخرجوا إلى الأديرة ينتهبون فيها اللذات، واشترك الشعراء في ذلك كله حتى لا نستطيع أن نجد شاعراً لم يأخذ بنصيب من حياة المجون، إلا إذا استثنينا المؤيد في الدين الذي لم يُعرف عنه فحش في القول، ولم يسهم في هذه الحياة مثل غيره من الشعراء؛ بل هو القائل:

قد شبيت مني العذار العفه      ما زالت من ميزانها في الكفه  
ما شاق قلبي وتر أوزهر      ولم تدب في عروقي خمرة  
عبادتي كل الزمان عادي      ما ملكت يد الهوى مقادتي

أمّا غير المؤيد من الشعراء فقد كانوا جميعاً يشتركون في المجون واللهو، وها هو ذا الشاعر أبو الرقعمة يعرض في مجونه بالمذاهب الدينية، ويصرح بأجزاء من الجسم في قصيدة يمدح بها الإمام العزيز:

أظن ودادها من غير نيه      وهل هي فيه إلا مدعيه  
فتاة لا تمل عذاب قلبي      ولا تخليه وقتاً من أذيه  
ولا ذنب له إلا التوافي      لمن في الحب ليست بالوفيه  
ويعجبني التمتع والتشاجي      من الخود الممنعة الشجيه  
فواأسفاً على حر يعزي      أحرارزء على عظم الرزيه  
وذلك أن أيري فيه رطل      وما في حرها إلا وقيه  
ومن بعث المدام فليس بد      ولا تك غير بكر بابليه  
فثم هناك حر شافعي      عظيم الشأن واست مالكيه  
ونفسي غير مائلة إليها      لأحوال مقبحة بذيه  
وجملة أمرنا أني بغبي      وأيضا فهني فاجرة بغيه  
أحب دنوها وتحب قربي      وهذا لا يكون بلا بليه  
وما لاقيتها إلا تلاقي      مبالانا ياسقاط التقيه

فلا تحفل بأقوال الرعيه  
وثقب من صبي أو صبيه  
سوى نيك العجوز القزليه  
بعين النقص والحال الدنيه  
تفرد بالعلا دون البريه

وهذا الرأي لا رأي سواه  
ولا عيش سوى تقليب بظر  
على أي أقول بكل شيء  
ولا ألوي على أحد يراني  
ولكني أقول بمدح قوم

ويستمر أبو الرقعمق في مدح العزيز بعد أن قدم للمدح بهذا المجون، وربما كان أبو الرقعمق من أشد الشعراء إمعاناً في الحماقة والفُحش في الشعر، فقد اتخذ لنفسه هذه الطريقة العجيبة في الشعر حتى عرفت به، فهو يشبه ابن الحجاج في هذه الناحية؛ ولكن أبا الرقعمق إذا شاء أن يترك هذه الحماقات في الشعر، وأن يعود إلى الجد، فهو يأتي بشعر جيد لا ياباه السمع ولا يزوي عنه أهل الفضل، فهو يقول مثلاً:

تفنى الليالي وليلي ليس بالفاني  
يا ليل أنت وطول الدهر سيان  
مخيم بين أشجان وأحزان  
لننوم إذ بعدوا عهد بأجفاني  
إلا تذكرت أيامي بعمان  
إلا تكنفني شوق لنجران  
إلا مواطن أطراي وأشجاني  
ورق الحمام على دوح وأغضان  
قطعتهن وعين الدهر ترعاني  
في ذروة المجد من ذهل بن شيان  
وإن أردت غناء منه غناني  
وجادي طرفه عفواً ومناني

ليلي بتنيس ليل الخائف العاني  
أقول إذ ليج ليلي في تطاوله  
لم يكف أي في تنيس مطرح  
حتى بليت بفقدان المنام فما  
ما صاعد البرق من تلقاء أرضهم  
ولا حننت إلى نجران من طرب  
لا تكذبين فما مصر وإن بعدت  
ليالي النيل لا أنساك ما هتفت  
أصبو إلى هفوات فيك لي سلفت  
مع سادة نجب غر غطارفة  
وذي دلال إذا ما شئت أنشدني  
سقيته وسقاني فضل ريقته

ما زلت أجنبي بلحظي ورد وجته  
ما زال يأخذها صفراء صافية  
الله يعلم ما بي من صبابته  
كم بالجزيرة من يوم نعمت به  
سقيا لليلتنا بالدير بين ربا  
والطل منحدر والروض مبتسم  
والنرجس الغض منهل مدامعه  
وأستغير على تفاح لبنان  
حتى توسد يسراه وخلاني  
وما علي جناه طرفه الجاني  
على تصاحب نايات وعيدان  
باتت تجود عليها سحب نيسان  
على أصفر فاقع أو أحمر قاني  
كأن أجفانه أجفان وسنان

فإذا قارنا بين هذه القصيدة وبين قصائده الأخرى التي يظهر فيها الحمق نجد أن الشاعر كان له لوان من الشعر، ذلك اللون الذي يظهر فيه مجونه وحماقته، ولون آخر هو الذي يظهر فيه الجد؛ ولكن أبا الرقعم عرف بالمجون أكثر مما عرف بالجد، وقد ذكرنا لونا من شعره الماجن في مقدمة المدح، وله في ذلك عدة قصائد منها القصيدة الرائية المعروفة التي مطلعها:

كتب الحـصير إلى السـرير أن الفـصيل ابن البـعير

وفي أشعاره الماجنة يتحدث الشاعر عن تصافع الشعراء الماجنين، وهذه ظاهرة بدأت في الشعر المصري في العصر الإخشيدي واستمرت إلى أوائل العصر الفاطمي، فقد كان الشعراء يذكرون في قصائدهم هذا اللون من المزاح بينهم ويتنادرون به، وكان أكثرهم ذكراً للتصافع هو الشاعر كشاجم وأبو الرقعم؛ فأبو الرقعم يقول في إحدى قصائده - يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين -:

ولكم بتنا على طرب  
وكئوس الصفع دائرة  
وانتخبناها وهامهم  
وكان الصفع بينهم  
ورءوس القوم تستلب  
ملؤها اللذات والطرب  
وأكف القوم تصطخب  
شعل النيران تلتهب

ويقول في قصيدة أخرى:

ولا أتـرك في مـصر  
فمن بعدي لطيبـ  
ومن يلعب في الرأس  
ومن من شدة الصفع  
ومن هامته أقبوى  
إذا أمراني الصفع  
وهيهات ترى صفعاً  
لذكر الحمق من أثر  
— في السنظم وفي الشر  
من العصر إلى الفجر  
له رأس بلا شعر  
على الصفع من الصخر  
تجشأت من الدبر  
لغيري أبداً يمري<sup>(١)</sup>

ويقول في قصيدته الرائية المشهورة:

لا تنكرن حماقاتي لأن بها  
ولست أبغي بها خلاً ولا بدلاً  
لا عيب في سوى أي إذا طربوا  
والأخدعان فما زالا يرى بهما  
وذا الفعال مع الأعراض مطرد  
لواء حمقى في الآفاق منشور  
هيهات غيري بترك الحمق معذور  
وقد حضرت يرى في الرأس تفجير  
لكثرة المزح توريم وتحمير  
صفع ونقع وتيسير وتعسير<sup>(٢)</sup>

فالشاعر في هذه المقطوعات يظهر حماقاته ومجونه؛ وهذا المزاح الثقيل الذي كان بين الماجنين ظهر في العصر الإخشيدي وأوائل العصر الفاطمي، ويخيل إليّ أن هذا المزاح أتى به الشعراء الوافدون على مصر؛ فكشاجم أحد أبطال التصافع لم يكن مصرياً، وأبو الرقعمق لم يكن مصرياً، ولم أجد في شعر المصريين الذي وصلنا هذا النوع من المزاح، ولكن كشاجم وأبا الرقعمق تحدثا عنه في أشعارهما التي أنشدها في مصر، ولعلهما كانا يعثان في شعرهما بذكر هذا المزاح، وإذا ذكر شعراء مصر الصفع فإنها يكون ذلك في الهجاء،

(١) اليتيمة: ج ١، ص ٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٤٩.

فالشاعر صالح بن مؤنس الذي كان يعيش في عصر أبي الرقعمق هجا زميله الشاعر ابن أبي الجوع فقال:

وقال قوم قد غدا شاعراً  
فقلت لا لوم على مثله  
أن الذي ألبسته حسرة  
والله لا يجهل من بعدها  
أبين به من ميسم واضح  
والشعر لا يعرف للمفحم  
من أخذ الصفع قفاه حمى  
بما جرى من ذكره في فمي  
وفي قفاه للردى ميسمي  
يضيء كالغرة في الأدهم<sup>(١)</sup>

فالصفع في هذه الأبيات ليس للمزاح كالذي رأيناه في شعر كشاجم أو في شعر أبي الرقعمق؛ إنما هو في معرض الهجاء.

كان أبو الرقعمق أستاذاً لمدرسة في شعر الهزل والمجون، وسنرى أن صريع الدلاء وابن مكنسة وغيرهما ساروا على نهجه.

وفي هذا العصر الذي كان فيه أبو الرقعمق، عاش عدة شعراء مثلوا في مصر جماعة أبي نواس في العراق، فقد كان هؤلاء الشعراء يجتمعون وينشدون أشعارهم ويتبارون في النشيد وهم يقصفون ويلهون، فجماعة كانت تضم صالح بن رشدين وعبد الله بن أبي الجوع ومحمد بن الحسن اليمني والحسن بن محمد الشهواجي وصالح بن علي بن مؤنس وابن أبي الزلازل وأبا تميم سليمان بن جعفر وأحمد بن عبد الله بن أبي العصام وغيرهم من شعراء ذلك العصر. وكانت هذه الجماعة على صفاء أحياناً وفي خصام أحياناً أخرى. وكان أكثر هؤلاء الشعراء يتغزلون في صالح بن رشدين، أحد أئمة الكتاب في الديوان، ولقي المتنبى في مصر، وروى شعره، كما كان شاعراً بارعاً جيد المعاني، ففيه يقول صالح بن مؤنس:

عن زماني حين أسخط  
بك في العالم أغبط  
ت على قلبي مسلط  
ب ومن بعدي يغلط  
بنسده أتبسط

بك يا صالح أرضي  
فأدم لي الوصل إني  
أنت والرحمن مذكن  
ومصيب أنا في الح  
يا جوادًا في لهاه

وفيه يقول محمد بن الحسن اليميني:

كاسف البدر المنير  
ومماتي ونشوري  
(صالح) لي بسرور

فاضح الغض النضير  
أنت عذري في حياتي  
ماسرور غاب عنه  
وأنشد فيه ابن أبي الجوع:

وأطيب الناس راحا  
طراب والأفراحا  
لأعرف الأقداحا  
من أن يطير ارتياحا  
لح اعتمدت الصلاحا  
أن تفسد الأرواحا

يا أطيّب الناس ريحا  
ومن به أتصدى الأ  
هات اسقني، أو تراني  
واحفظ علي فؤادي  
لو كنت كاسمك يا صا  
لكن أبى الله إلا

ويطول بي الأمر لو ذكرت كل الأشعار التي بقيت لهذه الجماعة في صالح بن رشدين، وكان هؤلاء الشعراء يقصفون ويلهون ويدعو بعضهم بعضًا على الشراب والقصف وسماع الموسيقى والغناء، ويتهادون الجوّاري. وقد روى الثعالبي أنّ القائد أبا تميم سليمان بن جعفر كتب إلى صالح بن رشدين رسالة يستدعيه فيها إلى الشراب فامتنع عليه، وكتب له هذه الأبيات:

أصبح بالمكرمات يفتخر

يا أيها القائد الجليل ومن

كانت ذنوب المدام تغتفر  
تجنبي على عقله ويعتذر

أليست لا أشرب المدام وإن  
يكفي أخوا العقل أن سورتها  
فكتب إليه القائد أبو تميم:

من أن أراك الغداة تعتذر  
يكاد شوقاً إليك يستعر  
ساعداً فيه السحاب والمطر

أباعلي حاشاك يا أملي  
قلبي إذا غبت ساعة قلق  
فسر إلينا فوقتنا حسن

ويروى أيضاً أن ابن رشد بن قال: حضرت عند القائد أبي تميم في ضيعة له، فلما عمل فينا الشراب نظرت إلى جارية له تسمى عبدة ذاهبة جائية، فحملني النبيذ أن أخذت رقعة وكتبت فيها إليه:

من كريم يصفي الأخلاء وده  
من ولي يولي لمولاه مجده  
فتفضل أبا تميم بعبده

صالح لا يزال يطلب عبده  
قد بثت الغداة وجددي وحببي  
فإذا شئت أن أرى لك عبداً

فقرأها وأمسك، وتماديت في الشرب معه، ثم نهضت إلى منزل أنزلني فيه بقربه، فلما استقر بي أنفذ لي الجارية ومعها درج فيه طيب كثير وعليها ثياب رقيقة حسنة ورقعة فيها شعر:

وقضينا بذلك حق الموده  
أسأل الله أن يهنيك حمده  
وهي ما عشت كاسمها لك عبده

قد بعثنا أبا علي بعبده  
وحمدناك إذ خطبت إلينا  
فاتخذها فأنت أكرم كفاء

ويروى ابن سعيد في المغرب أن أبا علي أحمد بن صدقة الكاتب أرسل إلى صالح بن رشد بن:

إلى عقار أدركت تبعا  
وخذ من السكر لها مصرعا

بالله يا صالح قم مسرعاً  
وساعد الليلة في شربها

كما رأيناك لها موضعا

فقد بذلنا لك أرواحنا

فجاوبه صالح:

خذي كما ألزمته مسرعا

يا سيذا يسمع ما قد دعا

كأسترينا للسننا مطلعا

منادما ما شئت أعمالها

يهدي ولا يدري لنا موضعا

نشرها حتى ترى الهم لا

ومن الجماعات التي كانت في أوائل العصر الفاطمي جماعة الأمير تميم والرسي والعقيلي وغيرهم، وكلهم عُرف بالمجون والفحش، وقد ذكرنا أن المعز منع الإمامة من ابنه الأكبر الأمير تميم لمجونه وفسقه؛ انظر إليه وهو يقول:

قرة عين من تمناه

وشادن شرط الصبا مرهف

إليه محتاجا فأغناه

كأنما الحسن رأى وجهه

وانكسرت باللحظ جفناه

وانتشرت بالغنج ألفاظه

المسك والقهوة مجناه

ولاح بريق الثغر من مبسم

وأرهف الخصر وأضناه

وبتل الأرداف فاستثقلت

والليل في صبغ برياه

زرنابه منزل خمارة

كعطفة الحاجب محناه

وقد علا الأفق هلال بدا

صحبنا في المشي أذناه

حتى إذا الخمار أصغت إلى

بالراح يمناه ويسراه

قام إلينا عجلا شاغلا

أشرق منه ليل مغناه

ماسل من إبريقه قهوة

قطب غيظا حين سمناه

حتى إذا سمناه في بيعها

قبلكم فيما علمناه

وقال ما استام بها ماجد

درا وتبرا، ووزناه

دونكموها وززنوا مثلها

ثمت وافاننا ودناه

فغاب عن الحاظنا ساعة

لولا قناه لشرناه  
 لكنها في السكر عيناه  
 ألثمه فاه وغناه  
 يا كاشحًا قد زاد معناه  
 فقد على رغمك نكناه  
 نشرها شهرًا ومثناه  
 وهزنا الساقى أجنبناه  
 يحنو إلى الوالد ابناه  
 يأتي به السكر عذرناه<sup>(١)</sup>

فقام بالكأس هضم الحشى  
 كأنه في كفه حده  
 إذا سقى ندمانه كأسه  
 ولم تنكه غير الحاظنا  
 فإن تداخلك بناظنة  
 ولم تزل في بيت خمارها  
 إذا أشاب الصبح رأس الدجى  
 نحنو إذا نادى إليه كما  
 وإن بدا من صاحب بعض ما

ثم اقرأ قوله - وفيها يذكر مجونه في دير القصير -:

ولا تتأذى النفس منه ولا القلب  
 وإن قلت: أصبو، قال: لا بد أن أصبو  
 ألا هاتها، طاب التنادم والشرب  
 يهون عليه في رضى خله الصعب  
 وللغيم دمع ما يكف له سكب  
 عيرية الأنساب طاب لها الترب  
 إلى زولة شمطاء منزلها رحب  
 وحسبك ملك جده قيصر خصب  
 تقاصر منها الحظ واحدودب الصلب  
 وفي يدها نجم محيط به قعب  
 وقل لكم مني البشاشة والرحب  
 دعاهم إليك القصف والعزف واللعب

ولي صاحب لا يمرض العقل جهله  
 إذا قلت: «لا» في قصة لم يقل: «بلى»  
 وإن قلت هاك الكأس، قال مبادرًا  
 سريع إذا لبي، صبور إذا دعا  
 غدوت به يومًا إلى بيت حانة  
 وقد نفحت ربح الصبا بمنافس  
 فأفضى بها الإدلاج بعد تعسف  
 مدثرة، أما أبوها فقيصر  
 قصيرية ديرية هرقلية  
 فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا  
 فقالت لنا: أهلاً وسهلاً ومرحبًا  
 من أنتم؟ فقلنا عصابة من بني الصبا

(١) ديوان الأمير تميم، (مخطوط).

فعندي الفتاة الرود والأمرد الرطب  
 فجاءت كما يذري مدامعه الصب  
 وألطف من نفس تداولها الحب  
 إذا أقبلت من كيلة الدن تنصب  
 ولا يك فيما قلت خلف ولا كذب  
 على الأرض زنجي بلا هامة يجبو  
 حباب كما ينساب من سكله الحب  
 ملاطفها سلم وألحظها حرب  
 لياناً ولطفاً مثل ما تدرج الكتب  
 وضاق بها الخلخال وامتلأ القلب  
 مع الكأس، أو قذى ملاحظتها الشرب  
 وما كان قبل السكر في لثمه عتب  
 من الشكل رفع تحت ضمته نصب  
 سوى قولها إن المسيح لها رب  
 ذبيت عن الإسلام إذ أمكن الذب  
 تقر له البيض المهنددة القضب  
 فهل لي في فتكي بها بعد ذا ذنب؟  
 فقد شاب رأس الشرق واحلولك  
 مصابيح، إلا أنها قد بدت تجبو  
 به فله مني التخصص والقرب  
 شفيت ولا واش علينا ولا شغب  
 ويعذب فيها ماء ديمته العذب<sup>(١)</sup>

فقلت: على اسم الله خطوا رحالكم  
 وراح نفي إقذاءها طول عمرها  
 أرق إذا رقرقتها في زجاجة  
 كأن سراجاً في ترائب دنها  
 فقلنا لها: كيلى لنا وتعجلي  
 فجاءت تجر الزق نحوي كأنه  
 فلما مزجناها بدا فوق رأسها  
 وطافت بها هيفاء مهضومة الحشا  
 تمايل ردفاها وأدرج خصرها  
 شكا كشحها الزنار مما يجيعه  
 أغار على أعطافها كلما انثنت  
 أحلت لي الصهباء تقبيل وجهها  
 كأنى وقد أضجعتها وعلوتها  
 وما فض لامي صادها بجناية  
 فلما أغاظتني بإظهار كفرها  
 وخرجت فخذيتها دمًا بمصمم  
 فما برحت حتى أنابت وأسلمت  
 أبا حسن، هات المدامة واسقني  
 كأن الثريا في ملاءة فجرها  
 سلام على دير القصير ومرحباً  
 فكم لذة فيه قضيت وغلة  
 منازل يستن الصبا في عراصها

(١) ديوان الأمير تميم، (مخطوط).

والأمير تميم هو الذي يقول في إحدى مقطوعاته:

دع مقال العاذلات	واله عن سعي السعادة
واشرب الراح وشبها	بالثنايا العطرات
وانتقل إن شئت تفأ	ح رياض الوجنات
أنا ما بين ناداما	ي وراحي وسقائي
ممل لأعرف الصبح	وولا وقت الصلاة
فإذا نومني السك	ر على تلك الهبات
لم ينهنني سوى حس	ن مثاني الغايات
وغناهن سحرًا:	«اسقنيها بحياتي»

فهذا الشاعر الماجن لم يتورع عن التهكم بالدين المسيحي طورًا وبالدين الإسلامي طورًا آخر، حتى يخيل إلينا من شعره الذي وصلنا في المجون أنه رجل عاش للذاته وفجوره، ولم يفكر إلا في قصفه وهوه، حتى أنه في شعره الذي كان يمدح فيه أباه الإمام المعز أو أخاه الإمام العزيز كان يقدم لمدائحه بالغزل حينًا وبشعر ماجن حينًا آخر؛ مع أنه كان يمدح شخصًا أخص ما يمتاز به هو صفته الدينية. ولكن نجد في ديوان تميم بعض قطع في الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق إيمان عن شعر أشد الشعراء تمسكًا بالدين وأشدهم خوفًا من عذاب الآخرة، فهو يقول مثلًا:

يا عجبًا للناس كيف اغتدوا	في غفلة عما وراء المات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن	لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي	أصيب في تمييزه بالسبات
يحييهم بعد البلى مثل ما	أخرجهم من عدم للحياة
ويقول مرة أخرى:	

أفنيست دهرك تتقي فيه الحوادث والمصائب

ولو اتقيت معاصي الر  
لأمنت من نار الجحيم  
حمن فيما أنت راكب  
م وفي الحياة من المعائب  
إن لم تراقب من له  
حكم عليك فمن تراقب

فالأمير تميم شأنه في مجونه وزهده شأن كثير من بني البشر الذي يعصون الله؛ ولكنهم في الوقت نفسه يخافون عقابه، فهؤلاء لهم شخصيتان: شخصية الماجن اللاهبي وشخصية الزاهد المتعبد، ولكن الأمير تميم كان يغلب عليه المجون حتى عُرف به.

أمّا أصدقاؤه الذي كان يقصف ويلهو معهم، فلعل أشدهم صلة به هم ولدا الرسي: أبو إسماعيل الرسي، وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسي، وهؤلاء جميعاً من الأشراف العلويين الذين وفدو على مصر قبل العصر الفاطمي واستقروا بها. وكان لبيت الرسي نقابة الطالبين في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين، وكان هؤلاء جميعاً من شعراء مصر، ويتحدث صاحب المغرب عن الحسين بن إبراهيم الرسي فيقول: «وهذا الشريف الرسي هو الذي كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم، وكان يكثر التنزه معه في بساتينه وفرجه».

ويروي الثعالبي للرسي أبياتاً في الدعوة إلى الله منها:

شم النسيم لذيذاً  
واصرف عن القلب ما اسطع  
ممن قبل ألا تشمه  
ت بالمسرة همه  
ت لست تملك حكمه  
فلا تصم وتكمه  
وقد نصحتك جهدي

وهذا الشاعر هو الذي كتب إليه الأمير تميم يصفه بقوله:

يا شاعراً جلّ عن أن  
يقاس به الشعراء

ويأظريفًا بليغًا      أربى على البغاء  
 قد جاء شعرك يشفي      قاربه من كل داء  
 كالقرب بعد بعاد      والوصل بعد جفاء  
 وأنت للنفس أشهى      من الغنى والبقاء

كان بنو الرسي يكتبون الأمير تميم بالشعر كلما بعد عنهم، وكانوا يكتبونهم يستهدونه بعض الطرائف أو يدعونه إلى الشراب، ويصرح الأمير تميم في إحدى قصائده إلى الحسين بن إبراهيم الرسي أن الإخاء بينهما قوي وثيق؛ لأنهما متفرعان من أسرة واحدة:

وليس الإخاء الذي بيننا      ببعد إذا ما استوى وانعقد  
 لأننا إلى والد واحد      تفرعنا حين ندعى وجد

وكان إذا تأخر الرسي عن مكاتبته يرتاع الأمير ويسأل عن سبب هذا الانقطاع ويرسل إليه يعاتبه؛ من ذلك قول تميم من قصيدة طويلة:

أبا عبد الإله ووجه ودى      مزال عن أسرته القناع  
 علام وأنت فيما صح عندي      صديق ما لخلته انصداع  
 تأخرت الرسائل منك عني      وأبطت عن تعاهدي الرقاع  
 أسهوا يا ابن إبراهيم عني      فأسهوا أم أعاتب أم أراع  
 ومثلك لا يبيع أخا ببخس      على حال ومثلي لا يباع  
 ولسنا نلتقي لقيما اجتماع      فيغنيا عن الكتب اجتماع  
 ولكن تعرب الأقلام عنا      إذا افترقت بشخصينا البقاع  
 وأكثر حظنا في البعد أنا      أمنا أن يروعنا الوداع  
 فأجابه الرسي بقصيدة منها:

عدلت عن المقال إلى السماع      يضيق عن الجواب مدى ذراعي

رتاع أو شبيهاه الرتاع  
وقطر مودتي حلف انقشاع  
لتأخيري موالاة الرقاع  
ستنسبني إلى حسن الطباع

أميري ظلت في نعم جسام  
أعهدي كالسراب لدى الموالى  
عتبت علي يا ترب المعالي  
وعادتك التي سلفت إلينا

### ابن وكيع التنيسي:

أمّا هذا الشاعر الماجن فهو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد المعروف بابن وكيع التنيسي؛ أصله من بغداد ومولده بتنيس، وذكره الثعالبي في اليتيمة وقال في حقه: شاعرٌ بارع وعالم جامع قد برع على أهل زمانه، فلم يتقدمه أحدٌ في أوانه، وله كل بديعة تسحر الأوهام وتستعبد الأفهام. ويضيف ابن خلكان إلى ما رواه عن الثعالبي أن لابن وكيع ديوان شعر جيد، وكتاباً بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه «المنصف» ولم يعرف عن ابن وكيع أنه اتصل بأمير أو أنه تكسب بشعره، وكل شعره الذي وصلنا في وصف الطبيعة وفي المجون، فمن قوله في المجون والطبيعة معاً:

وخلعت في طرق المجون عذاري  
تهوى النفوس ممحق الأعمار  
فالعيش أجمع في ركوب العار  
للعيش فهو تهتك الأستار  
فبيت من الحسرات والأفكار  
برم بقرب الصاحب المهذار  
ولججت في الإرهاب والإنذار  
بجميل عفو الواحد القهار  
تعذيب ذي جرم على الإقرار  
فيه عليك طرائف الأنوار

جانبت بعدك عفتي ووقاري  
ورأيت إيثار الصباية في الذي  
لا تأمرني بالتستر في الهوى  
إن التوقر للحياة مكدر  
من تابعت أمر المروءة نفسه  
لا تكثرن على أن أخ الحجا  
خوفتني بالنار جهدك دائباً  
خوفي كخوفك غير أني واثق  
أقررت أني مذنب، ومحرم  
انظر إلى زهر الربيع وما جلت

شهدت بحكمة منزل الأمطار  
 من درهم بهج ومن دينار  
 جلست عن الأثمان والأخطار  
 مثل الشموس قرن بالأقمار  
 عرس السرور وماتم الأطيّار  
 لم يحفلوا بنعيم تلك الدار  
 مازال يسكن حانة الخمار  
 مسك ترضوعه يد العطار  
 وأدق إطفافاً من المقدار  
 أحكام صرف الدهر في الأحرار  
 مازال ذا سخط على الأقدار  
 ذوب تحلل في عقيق جاري  
 يسي العقول بطرفه السحار  
 عند التأمل وهو غرس الباري  
 حتى ظنناه بلا زنار  
 بالحسن منه حجة الكفار  
 ويرى فساد صنيعه بالنار  
 ألا تنافر رنة المزمّار  
 تحريكه لسواكن الأوتار  
 باعوا بطيب السخف كل وقار  
 إلا أطار العقل كل مطار  
 وسؤال رسم الدار والأحجار  
 ييكي على الأطلال والآثار

أبدت لنا الأمطار فيه بدائعاً  
 ماشئت للأزهار في صحرائه  
 وجواهر لولا تغير حسنها  
 من أبيض يقق وأصفر فاقع  
 ناحت لنا الأطيّار فيه فأرهجت  
 دار لو اتصل البقاء لأهلها  
 فانفض بنا نحو السرور فإنه  
 فاشرب معتقة كأن نسيمها  
 أخفى ديباً في مفاصل شربها  
 أحكامها في العقل إن هي حكمت  
 يرضى على الأقدار شاربها الذي  
 وكأنها والكأس ساطعة بها  
 لا سيما من كف أغيد شادن  
 فضل الغصون لأنها من غرسنا  
 قد غيب الزنار دقة خصره  
 متنصر قويت على أسلامنا  
 قالوا: أيصنع مثل هذاربكم  
 مع مسمع حلفت له أوتاره  
 فظن يحرك كل عضو ساكن  
 شدو إذا الخلاء زار حلومهم  
 والشدو أحسنه الذي لم يستمع  
 ذا العيش لا نعت المهامه والفلا  
 لا فرج الرحمن كربة جاهل

فالشاعر هنا يتهكم بالأديان أيضًا؛ ولكنه في الوقت نفسه يظهر قدرة الرحمن في وصفه لأزهار الطبيعة، وينعى على الناس أنهم لم يأبهوا بالطبيعة ومناظرها البهيجة، ويختم شعره بأن الحياة هي في المجون، والتمتع بالرياض، وليس في وصف صحراء وما فيها من رسوم وأطلال، بل يلعن هؤلاء الذي يكتفون بالبكاء على الأطلال والآثار. فنحن أمام شاعر يختلف عن شعراء المجون الذي رأيناهم من قبل؛ لأن المجون عند ابن وكيع مذهب في الحياة، فهو ليس بحمق أبي الرقعق ولا فسق تميم وجماعة صالح بن رشدين، إنما ابن وكيع يمتاز بهذا اللون من فلسفة خاصة في الحياة، فهو يدعو إلى الفجور، ولكن في الوقت نفسه يتأمل الطبيعة ويفكر فيها طويلًا. وقد يستهويه جمالها فتمتلئ بها نفسه، فيخلع عليها هذه الصفات، ويصورها بهذه الصورة الملونة؛ فيزداد سرورًا، فإذا به يدعو إلى الشراب فيصف الخمر وديبها في المفاصل وسلطانها على شاربها، ويصف الساقى وجماله ومجلس الغناء والموسيقى. تحدث عن كل ذلك في صور متلاحقة متتابعة، وهذه هي الحياة عنده.

وفي قصيدة أخرى يجذب هذه الحياة التي اختارها لنفسه، ودعا إليها فهو يقول:

لا يشغلنك عن اللهو الأباطيل  
من العواذل لا قال ولا قيل  
ميزت في الناس محمود ومعزول  
فقل لهم: إنني عن ذاك مشغول  
ونبله بفناء العمر موصول  
إلا امرؤ خامل في الناس مجهول  
ترجو، فذلك أمر شأنه الطول  
روحي فإن دم الصهباء مطلول

علل فؤادك، والدنيا أعاليل  
ولا يصدنك عن أمر هممت به  
فخير يوميك يوم أنت فيه إذا  
وإن أتوك فقالوا كن خليفتنا  
فإن ذلك أمر مع نفاسته  
وارض الخمول فلا يحظى بلذته  
ولا تبع عاجل الدنيا بأجل ما  
واسفك دم القهوة الصهباء تحيا به

يا خائف الإثم فيها حين يشربها  
 قم فاسقني النض مما حرموه ولا  
 من قهوة عتقت في دنها حقبًا  
 عروس كرم أنت تحتال في حلل  
 كأنها بأكف القوم إذ جلبت  
 في فنية جعلوا للهو طاعتهم  
 جليسهم ليس يروى من حديثهم  
 لا كالذين إذا ما كانت حاضرهم  
 ترى مجالسهم مملوءة لجبًا  
 لا تقنطن فعفو الله مأمول  
 تعرض لما كثرت فيه الأقاويل  
 كأنها في سواد الليل قنديل  
 صفر على رأسها للمزج إكليل  
 ذوب من الذهب الإبريز محلول  
 فما لهم عن طريق اللهو معدول  
 يومًا وبعض حديث القوم مملول  
 ففي سكوتهم المأمول والسول  
 وكل ذاك فضول عنك معزول<sup>(١)</sup>

وعلى هذا النحو يسير الشاعر في وصف حياته التي اختارها لنفسه. ولعل قصيدته المربعة التي وردت في اليتيمة تدلنا على أن الشاعر كان ماجنًا خليعًا، وقد شهد على نفسه بأنه «شيخ الملاهي والغزل» وذلك بقوله في ختام قصيدته المزدوجة التي أنشدها في وصف فصول السنة:

دونك هذي صفة الزمان  
 فأصغ نحو شرحها كي تسمعا  
 وارض بتقليدي فيما قلت  
 ولا تعارضني في هذا العمل  
 مشروحة في أحسن التبيان  
 ولا تكن لحقها مضيعا  
 فإنني أدري بما وصفته  
 فإنني شيخ الملاهي والغزل

الشريف العقيلي: شاعر الطبيعة والخمر:

أمّا الشاعر الذي خلف ابن وكيع التنيسي في وصف الطبيعة والخمر معًا، فهو الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حيدرة العقيلي؛ من ولد عقيل بن أبي طالب من رجال النصف الأول من القرن الخامس الهجري، فهو شاعر

حبَّاه الله بسطة في الرزق، فلم يكلف نفسه مشقة الوقوف على أبواب الأمراء والخلفاء يستجدي عطاءهم، ولم يشتغل بخدمة سلطان، ووهبه الله دقة حس ورقة شعور، فأولع بجمال الطبيعة، وجرى على لسانه شعر رقيق هو ذلك الشعر الذي يصدر عن عاطفة قوية وإحساس عميق. وقد أكثر من تنسيق متنزهاته بجيزة الفسطاط، ولا أشك في أنها كانت آية من آيات عبقريته المحبة للفن والجمال، كان يزور هذه المتنزهات ويمتع ناظره بما حوته من أزهار وجداول مياه، ويشرف على هذه المناظر الممتعة، ويصف مجلسه هذا بشعر جُمع في ديوان لم يقدر له أن يصل إلينا؛ ولكن صاحب المغرب أخذ من ديوان ابن حيدرة العقيلي عدة مقطوعات وقال عن ذلك: «ثم وقع لي ديوان شعره، فنقلت منه ما يشهد بعلو قدره، وهو من أئمة المشبهين». فمن قول ابن حيدرة:

وزهر الدياتجي مثل در مبدد  
إلى الباب يمشي كالأسير المقيد  
فقلت: جواد ذو محل وسؤدد  
وملك لدى ذي الخلة المتودد  
على ضامر الأحشاء كالبرق أجرد  
تشتت شمل الهم عين كل مكمد  
كوجنة معشوق الشائل أغيد  
كشمس الضحى أو كاللظى المتوقد  
من الدر طوق في غلالة عسجد  
تروح عليها الغاديات وتغتدي  
من التبر صيغت في غصون زبرجد  
على الورد دمع فوق خد مورد  
على الأيك عن شدو الغريض ومعبد  
يردد لحظ المستهام المسهد

ألارب خمار طرقت فناءه  
فقام وقد أقلفته من منامه  
ينادي: من الساري إلي ومزعجي  
حسام على الأعداء ماض غراره  
أتيتك أطوى الأرض شرقاً ومغرباً  
فقال: وما تبغي؟ فقلت: مدامة  
فقال: نعم عند سلافة كرمه  
وأبرزها عذراء أحلى من المنى  
إذا مزجت أبدت حباً كأنه  
فسرت بها وهي الحياة لروضة  
كأن البهار الغض فيها مداهن  
كأن انتشار القطر والزهر زاهر  
وأطيأرها تغني النديم إذا شدت  
ونرجسها بين الشقائق شاخص

من الدن ما بين الربا بتمدد  
صريعاً على شدة الحمام المغرد  
وأعدل عن تفتيد كل مفند

فما زلت بالإبريق أقبض روحها  
وأشربها حتى انشيت مجدلاً  
أنا ذاك أعطي اللهو ما عشت مقودي  
وقوله من قصيدة أخرى:

وجنح الليل مسود الجناح  
لغاماً في الغدو وفي الصباح  
وإن كانت أخف من الرياح  
تسربل بالمكّارم والسماح  
فقلت له: أرح روعي براح  
معمنة بكافور رباحي  
على الظلماء أنوار الصباح  
ألذ إلى الأسير من السراح  
على ورد جنى في أقاح  
دقيق الخصر غرثان الوشاح  
ومن تيه على الغيد الملاح  
محبك ما عليه من جناح  
وصرف الدهر ذو وجه وقاح  
بأفراح، ولهواً باصطباح<sup>(١)</sup>

وخمار دخلت عليه وهنا  
على هوجاء تنشر في الفيافي  
إذا وخذت تخال الريح تحتي  
فقال: من الفتى؟ فأجبت: ضيف  
فقال: وما تريد فدتك روعي  
فقام إلى دنان مترعات  
وفض ختام أقدمها فلاح  
وأبرز منه في الإبريق راحاً  
كأن حبابها طل تبدى  
وجاء بأهيف عذب الثنايا  
تراه يتيه من أدب وظرف  
يقول إذا رآه كل لاح:  
هي الأيام تدرج اندراجاً  
فصل قصفاً بقصف واغتباقاً

ففي هاتين المقطوعتين من شعر ابن حيدرة العقيلي نستطيع أن ندرك أن الشاعر كان يجمع بين وصف الطبيعة ووصف الشراب، ويأخذ من الطبيعة التي أحبها وهام بها صوراً يصور بها حباب الخمر في الكئوس، فهو في كل

شعره الذي انتهى إلينا لا يصف الطبيعة دون أن يتحدث عن الخمر، ولا يتحدث عن الخمر إلا إذا تحدث عن الطبيعة، فهو يقول:

الروض في ديباجة خضراء	والجو في فرجية دكناء
والأرض قد نظم الربيع لجيدها	عقدًا من الصفراء والحمراء
والراح يثر من مذاب عقيقتها	درر الفواقع جوهرى الماء
فاقصد رضى رضوانها بالشرب إن	أحببت سكنى جنة السراء <sup>(١)</sup>

وقد كان شعر هذا الشاعر سبياً في أن يتهم المستنصر بالله الفاطمي بالمجانة والفسق؛ فقد روى المقرئزي أنه كان من عادة الخليفة المستنصر بالله أبي تميم معد بن الظاهر في كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة - وهو موضع نزهة - بهيئة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة، وربما حمل معه الخمر في الروايا عوضاً عن الماء ويسقيه من معه، وأنشده مرة الشريف ابن حيدرة العقيلي في يوم عرفات:

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء	ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نعزهم	إلى من قصفهم مع كل هيفاء
وعج على مكة الروحاء مبتكرًا	فطف بها حول ركن العود والناء

ويضيف المقرئزي نقلاً عن ابن دحية: فخرج في ساعته بروايا الخمر تزجى بنغمات حدادة الملاهي وتساق، حتى أناخ بعين شمس في كبكبة من الفساق، فأقام بها سوق الفسوق على ساق، وفي ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر نفسه: ص ٥٢.

(٢) الخطط: ج ٢، ص ٣٨٣.

ولعل القصة وضعت على هذا النحو للطعن على الفاطميين؛ فلم نعرف عن المستنصر أنه كان ماجناً فاسقاً، ولم نعرف أن الشريف ابن حيدرة اتصل بإمام من أئمة الفاطميين، وقد تكون القصة أن المستنصر كان يخرج إلى جب عميرة في عيد الأضحى بقصد النزهة، واتفق أن سمع ابن دحية بهذا الخبر وسمع أبيات ابن حيدرة السابقة، فنسج خياله قصة لهو المستنصر وخروجه على هذا النحو الذي وصفه استهزاء بالحج، ولكن تعصب المؤرخين ضد الفاطميين جعلهم يبدعون في حياكة مثل هذه القصص عنهم، وهكذا كان شعر ابن حيدرة سبباً في هذه القصة.

وكان ابن حيدرة شاعراً يحب الدعابة ويمجد الفكاهة، وله عدة مقطوعات منها قوله يداعب من خضب شبيهه:

يا من يدلّس شبيهه بخضابه  
 إن المبدلس لا يزال مريباً  
 هب ياسمين الشيب عاد بنفسجاً  
 أيعود عرجون القوام قضيباً<sup>(١)</sup>  
 وقال مرة أخرى:

قد هجوننا وكان غير صواب  
 وورمينا بعنبر في تراب  
 وظلمنا الحسام وهو صقيل  
 إذ جعلناه في أخس قراب  
 يالها غلطة، وإلا فماذا  
 ينفع الباز صيده للغراب  
 وقال:

سألت أبا يوسف حاجة  
 فقالت أبا يوسف حاجة  
 فقد سلط السل من مطلقه  
 فقال: أجيء به في غد  
 فأضنى به جسد الموعد

وبجانب شعره في المجون والدعابة والطبيعة نرى لابن حيدرة شعراً في الفخر بنسبه إلى آل أبي طالب، فهو يقول:

وبنا تأدبت الأمم  
ينهل من سحب الهمم  
تركوك من أهل النعم<sup>(١)</sup>

من عندنا أتت الحكم  
ولنا نوال هاطل  
قوم إذا استترفتهم  
ويقول مرة أخرى:

ولها على قطب الفخار مدار  
ورق ومن معرو فهم أثمار  
روض خلاثقه له أزهار<sup>(٢)</sup>

نحن الذين غدت رحا أحسابهم  
قوم لغصن ندهم من رفدهم  
من كل وضاح الجبين كأنه

كان ابن حيدرة يمتاز بناحية خاصة في فنه الشعري هي تلك الناحية التي أشار إليها صاحب المغرب وقال: «إنه كان من أئمة المشبهين»، وكأن صاحب المغرب أراد أن الشاعر كان من المكثرين من الزينة اللفظية والبيانية في شعره، ولعل هذه الأبيات القليلة التي رويها له تدلنا على صدق ما ذهب إليه ابن سعيد.

### القليوبي الكاتب:

ومن يجري في حلبة ابن وكيع التنيسي وابن حيدرة العقيلي وغيرهما من شعراء المجون والطبيعة شاعر كان يكتب في ديوان العزيز بالله الفاطمي والحاكم، وتوفي أيام الظاهر، ويروي ابن شاعر عن ابن سعيد أن ابن الزبير وصفه بالإجادة في التشبيهات، وأنه غلا في ذلك فقال: إن أنصف لم يفضل عليه ابن المعتز. ذلك الشاعر الكاتب هو علي بن محمد بن أحمد بن حبيب القليوبي الكاتب. قيل: إنه كان أحد الشعراء الذين مدحوا الأئمة والقواد

(١) المغرب: ص ٧٨.

(٢) المغرب: ص ٦٩.

والكتاب، ولكن مدائحها ضاعت ولم يبق منها شيء، بل قل: إن شعره كله فُقد ولم يبق منه إلا عدة أبيات؛ منها قوله:

وصافية بات الغلام يديرها  
كأن حباب الماء في وجناتها  
ولا ضوء إلا من هلال كأنها  
وقد حال دون المشتري من شعاعه  
كأن الثريا في أواخر ليلها  
على الشرب في جنح من الليل أدعج  
فرائد در في عقيق مدرج  
تفرق منه الغيم عن نصف دملج  
وميض كمثل الزئبق المترجرج  
تحيمة ورد فوق زهر بنفسج

ولست أدري ما الذي حدا بهذا الشاعر إلى أن يذكر أسماء الكواكب ويتحدث عن النجوم، وذلك في كل المقطوعات التي بقيت لنا من شعره، ولعل الشاعر كان من المشتغلين بالأرصاد في عصر اهتمت الدولة بها، فالشاعر يقول مثلاً:

نجمت نجوم الزهر إلا أنها  
وكانها الجوزاء منها شارب  
ويقول من قصيدة أخرى:

وصفراء من ماء الكروم كأنها  
كأن حباب الماء في وجناتها  
قطعت بهاليلاً كأن نجومه  
تراها بأفاق السماء كأنها  
ومنطقة الجوزاء تبدو كأنها  
وبانت بعيني الثريا كأنها  
فبت أراعي الفجر حتى تشمرت  
دجى الليل منها في إزار معصفر  
من الدم إكليل لتاج مزعفر  
إذا اعترضتها العين نيران عسكر  
مطالعها منها معادن جوهر  
وسائط در في قلائد عنبر  
على الأفق منها غصن ورد منور  
ذيول الدجى عن مائه المتفجر<sup>(١)</sup>

## قتيل الغواني:

ولقب أيضًا بصريع الدلاء، ونبز بذي الرقاعتين، ويسميه ابن خلكان بأبي حسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي، وسماه مرة أخرى بأبي الحسن محمد بن عبد الواحد القصار البصري، ولم يحقق أحد الاسمين، واكتفى بقوله: «والله أعلم»<sup>(١)</sup>. أمّا ابن شاعر فاكتفى في ذكر اسمه بأن قال: محمد بن عبد الواحد الملقب بصريع الدلاء وقتيل الغواني. ويرى السيوطي أن اسمه علي بن عبد الواحد، ويخيل إليّ أن اسمه محمد بن عبد الواحد؛ لأن ابن خلكان ذكر أنه قرأ ذلك في نسخة ديوان شعره.

لم يكن هذا الشاعر مصرياً ولكنه وفد على مصر سنة اثنتي عشرة وأربعمائة من الهجرة، ومدح الإمام الظاهر، وعرف بمجونه، وسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق في هزله ومجونه، ومن ذلك قصيدته التي عارض بها مقصورة ابن دريد، وفيه يقول:

يحملها في كفه إذا مشى  
فلبسه خير له من الحفا  
فأسأله من ساعته عن العمى  
وراح صحن خده مثل الدجا  
أن يصفعوه فعليهم اعتدى  
وسال عن مفرقه شبه الدما  
سال على شاربه ذاك الدوا  
طار من القدر إلى حيث يشا  
أطال ترداداً إلى بيت الخلا  
مازحه السبع مزاحاً بجفا

من لم يرد أن تثقب نعاله  
ومن أراد أن يصون رجله  
من دخلت في عينه مسلة  
من أكل الفحم تسود فمه  
من صفع الناس ولم يدعهم  
من ناطح الكبش يفجر رأسه  
من أكل الكرش ولم يغسله  
من طبخ الديك ولم يذبحه  
من شرب المسهل في فعل الدوا  
من مازح السبع ولم يعرفه

(١) ابن خلكان: ج ١، ص ٣٥٩.

وألف حمل من متاع تستر  
والدرج يلقى بالنشا ملصقاً  
والذقن شعر في الوجوه نابت  
من فاته العلم وأخطاه الغنى  
فاستمعوها فهي أولى لكم  
وقال في آخرها مشيراً إلى ابن دريد:

فتلك كالدريضيء لونها  
وهذه في وزنها مثل الحذا<sup>(١)</sup>  
وهذا الشاعر هو الذي أشار إليه أبو العلاء المعري في قوله:

دعيت بضارع فتداركته  
مبالغته فرد إلى فعي<sup>(٢)</sup>  
ولكن هذا الشاعر لم يمكث طويلاً في مصر؛ إذ توفي في السنة التي وفد  
فيها.

وفي القرن السادس نرى عددًا كبيراً من شعراء الفكاهة والمجون خلعوا  
على أنفسهم ألقاباً فكاهية؛ فالشاعر يحيى بن علي الكتبي نبز «بالوضيع»، وهو  
صاحب الأبيات التي يفخر فيها بنسبته إلى مذهب أبي نواس في المجون:

أنا نائب الشرع النواسي  
أهوى الغزاة كاعباً  
من كل معتدل رشيق الق  
متعكرش فإذا اختبر  
لكن لإفلاسي جيب  
لي منزل لا شيء في  
دعني وباطيتي وكاسي  
وأهيم بالظبي الخماسي  
دم مشوق خلاسي  
ت وجدت منحل الأساس  
ت السامري بلا مساس  
ه كأنه كيسي وراسي<sup>(١)</sup>

(١) فوات الوفيات: ج ٢، ص ٢٣٧.

(٢) ابن خلكان: ج ١، ص ٣٥٩.

والشاعر الفقيه، ونبز «بالسناس»، ومن شعره:

خلعت رداء التصابي المعارا  
وكم خضت باللهو ليل الشباب  
لئن كدر الشيب صفو الشباب  
فلا بأس أن مد لج البعاد  
وكان بفودي غراب فطارا  
إلى أن أراني المشيب النهارا  
وبات برغمي ديارًا ديارا  
فإن لكل مسيل قرارا<sup>(٢)</sup>

والشاعر محمد بن إسماعيل وعرف «بالتاريخ»، ومن مجونه:

ألا فاسقياني ما تدير ثناياه  
ولا تنكرا سكري بغير مدامة  
إذا كان كاسي مترعًا من رضابه  
كفاني ريجانًا وراحًا سلاف ما  
غزال ينابيع المدامع ورده  
سل البان عنه هل إلى البان أصله  
فله ما أشجى فؤادًا ملكته  
وما أودعت من خمرها بابل فاه  
فسيان عندي ريقه وحمياه  
ونقلي ما تبدى من الورد خداه  
حوى ثغره أو أنبتة عذاراه  
وروض القلوب المستهامة مرعاه  
فربى جدياه ودوياه روياه  
وأغراه بالبيض الحسان وأصباه<sup>(٣)</sup>

ومن شعره:

لاه بغانيمة وراح  
ما زال يشرب كأسه  
ما بين زمزمة البنود  
حتى مضى مسك الدجى  
نناه لعاذلة ولاح  
صرفًا على ضرب الملاح  
وبين وسواس الوشاح  
وأنار كافور الصباح

(١) الخريدة: ورقة ١٠٥.

(٢) الخريدة: ورقة ١٠٦.

(٣) المصدر نفسه.

والشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي سعد، نبز «بالكاسات»، ووصفه ابن الزبير بقوله: «إنه كان خفيف الروح كثير المجون، يضحك بنوادره وسخفه المحزون». ولكن فقد شعر هذا الشاعر الماجن، ولم يبق له سوى أبيات في المدح.

والقائد أبو طاهر إسماعيل بن محمد عرف «بابن مكنسة» وهو يُعد من فحول الشعراء في أواخر القرن الخامس، وشهد القرن السادس، وهو الشاعر الذي ذكرنا أن الأفضل هجره وأبعده لمدائحه في أبي المليح النصراني، وهو أحد الذين أشاد بذكرهم أمية بي أبي الصلت في رسالته المصرية. وكان ابن مكنسة في بعض هزله يذهب مذهبه أبي الرقعمق في الحماسة والمجون؛ من ذلك قوله:

أنا الذي حدثكم	عنه أبو الشمقمق
وقال عنني إنني	كنت نديم المتقي
وكنت كنت كنت	ت من رماة البنديق
حتى متى أبقى كذا	تيسًا طويلاً العنق
بلحية مسبلة	وشارب محلق
ياليتها قد حلقت	من وجهه شيخ خلق <sup>(١)</sup>

وفي مقطوعة أخرى يشكو كبره وضعفه:

عشت خمسين بل تز	يد رقيعاً كما ترى
أحسب المقل بنديقاً	وكذا الملح سكرًا
وأظن الطويل من	كل شيء مـدورا
قد كبر بربر بربر	ت وعقـلي إلى ورا
عجباً كيف كل	شيء أراه تغـيرا

لا أرى البيض صار يـؤ      كـل إلا مقـشرا  
وإذا دق بالحجـجـا      رزجـاج تكـسرا<sup>(١)</sup>

وانظر إلى هذه المقطوعات في وصف منزله وضيقة:

لي بيت كأنه بيت شعر      لابن حجاج<sup>(٢)</sup> من قصيد سخيف  
سأبقتني بنات وردان حتى      أنافيه كفأرة في كنيف  
أين للعنكبوت بيت ضعيف      مثله، وهو مثل عقلي الضعيف  
وإذا هب فيه ريح السراويل      فسلم على اللحى والأنوف  
بقعة صد مطلع الشمس عنها      فأنا منذ سكتتها في الكسوف  
وهو لو كان من حجيجي ونسكي      صدني بغضه عن التطويف<sup>(٣)</sup>

فابن مكنسة في هذه الأبيات يتحامق كأستاذه أبي الرقعمتق، وذلك بجانب قصائده التي كان يجد فيها، فلا نجد أثرًا لهذه الحماقات وهذا الهزل وتلك الدعابة، فهو يقول مثلاً في إحدى مدائحه:

ملك بكفيه وأسيافه      تقسم آجال وأرزاق  
ذلت لنعمائك نفوس كما      ذلت لأسيافك أعناق  
ويقول في إحدى مقطوعاته:

أقول ومجرى النيل بيني وبينكم      ونار الأسي مشبوبة بضلوعي  
تراكم علمتم أنني لو بكيتمكم      على النيل لاستغرقت بدموعي  
وهكذا نرى الشاعر قد ضرب بسهم في جد الشعر وهزله.

(١) المصدر نفسه: ورقة ١٩٤.

(٢) يقصد الحسين بن الحجاج الشاعر العراقي الماجن.

(٣) الخريدة: ورقة ١٩٢.

ومن شعراء المجون في القرن السادس الشاعر أبو علي حسن بن إسماعيل المعروف «بالمكربل»؛ وكان شاعرًا هجاء، وصفه ابن الزبير بقوله: كان لسانه مقراض الأعراض، بلغ المائة من العمر، ولم يسمع له في المديح شعر إلا نزر يسير، ولا قبل من أحد جائزة، ولا امتد أمله إلى نيل رغبة<sup>(١)</sup>. ومقطوعاته كلها التي وصلت إلينا هي في الهجاء المقذع؛ فمن ذلك قوله في الشاعر ابن باقي الجزار، وكان في مقدمة الشعراء في عصره:

قالوا ابن باقي شاعر  
قلت نعم قد قدمو  
كأنما يمزغ في إنشا  
وقوله في ابن باقي الجزار أيضًا:

لا تظن أنني أهجو كما  
وقوله في بعض علماء عصره:

فهل عندكم من مفخر أو فضيلة  
طوال بلا طول، قصار عن العلى  
وقوله:

قولوا لمن يكرمني في السلام  
أشهى إلى النفس وأحلى من الـ  
بهزة القامة لي والقيام  
قيام يا سيدي أن تنام

وعلى هذا النحو كان هجاء هذا الشاعر المنبوز بالمكربل، وقد وجد المكربل من الشعراء من يقف له ويهجو، فالشاعر ابن قتادة المعدل المصري

كان يضطر إلى الرد عليه، فكلما هجاه المكربل أجابه ابن قتادة، فمن قوله في المكربل:

مانال خلق في الهجا      ماناله المكربل  
كل الهجاء آخر      وهو الهجاء الأول  
لأنه يأخذ من      عرضه ويعمل<sup>(١)</sup>

ومن شعراء المجون في آخر عصر الدولة الفاطمية الشاعر علي بن حسن بن إسماعيل، ففي إحدى مقطوعاته المأجنة يقول:

قم قبل تأذين النواقيس      واجل علينا بنت قسيس  
عروس دن لم يدع عتقها      إلا شعاعاً غير ملموس  
تجلى علينا باسمًا ثغرها      فلا تقابلها بتعبيس  
مذهبة اللون إذا صفتت      مذهبة للهم والبوس  
لا غرو ما تأتية من ريبة      لأنها عنصر إبليس  
ليس لها عيب سوى أنها      حسرة أقوام مفاليس  
في روضة كانت أزاهيرها      كأنها ريش الطواويس  
فاغتم اللذات في دولة      صافية من كل تعكيس<sup>(٢)</sup>  
وقوله:

وليلة كاغتماض الطرف قصرها      وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل  
بتنا نجادب أهداب الظلام بها      كف الملام وذكر الصد والملل  
وكلما رام نطقًا في معاتبتي      سددت فاه بطيب اللثم والقبل  
وبات بدر تمام الحسن معتنقي      والشمس في فلك الكاسات لم تفل

(١) الخريدة: ورقة ١٠.

(٢) ورقة ١٣٥.

فبت منها أرى النار التي سجدت  
 راح إذا سفك الندمان من دمها  
 لها المجوس من الإبريق تسجد لي  
 ظلت تقهقه في الكاسات من جذل  
 مغرى بها مثلما أغريت بالعدل<sup>(١)</sup>  
 فقل لمن لام فيها إنني كلف

ومن شعراء المجون أيضًا الشاعر أبو الغمر الإسناوي محمد بن علي الهاشمي المتوفى سنة ٥٤٧ هـ، الذي وصفه العماد بقوله: أشعر وقت زمانه، وأفضل أقرانه. وروى له من شعره عدة مقطوعات تدل على رقة الشاعر وعذوبة شعره مع سهولة هذا الشعر؛ فمن ذلك قوله:

أيها اللائم في الحـ  
 لست أعصي أبدًا  
 سب لحاك الله حسي  
 في طاعة العذال قلبي

وقوله في غلام لبس في عاشوراء ثوبًا من الصوف:

أيأ شادنا قد لاح في زي ناسك  
 رويدك قد أدركت ما يعجز الظبا  
 فباح بمكنون الهوى كل ماسك  
 وأنضمت نيران الجوى المتدارك  
 فتنأر منا بالجفون الفواتك  
 أنحن فتكنا بابن بنت محمد  
 وقوله -وقد أفحش في مجونه-:

بي شادن هو أدنى  
 فقد تعجلت قبل المـ  
 إلي منذ كان مني  
 سمات جننة عدن  
 به تعففت عما يصـ  
 لأننه صان عرضي  
 وزادني فيه حبًا  
 لم يتسع خرقه لي  
 فحلقة الظهر منه  
 صبيغت لإصبع بطني  
 كلاً ولا ضاق عني  
 صبيغت لإصبع بطني

ومن قوله:

ولحظنا يجرحكم في الحدود  
فما الذي أوجب جرح الصدود

ألحاظكم تجرحنا في الحشا  
جرح بجرح فاحسبوا ذا بذا

ومن قوله:

ولم يك ذا موعد ينتظر  
فيا ليت كان سواد البصر  
على طيب رياه نشر الشجر  
مطرزة بالتقى والخفر  
وسكر الرضاب وسكر الحور  
ين وتاه على الليل ليل الشعر  
وأعداه مني نسيم عطر  
ومن حسن معناه إحدى العبر  
أريه السها ويريني القمر

أياليلة زار فيه الحبيب  
وخاض إلى سواد الدجا  
وطابت ولكن ذمنا بها  
وبتنا من الوصل في حلة  
وعقلي بها نهب سكر المدام  
وقد أخجل البدر بدر الجب  
وأعدى نحولي جسم الهوى  
فمني معتبر العاشقين  
ومن سقمي وسنا وجهه

وله مقطوعة يذم الزمان ويبرم بالناس حوله:

كأن به سكرة العاشق  
جحدت بهم حكمة الخالق

زمان يخلط في فعله  
وخلق إذا مات أملتهم

وقد ذكرنا شيئاً عن دعابة ابن الصياد في أنف ابن الحباب حتى بلغت مقطوعاته ألف مقطوعة، ولم يرده عنه سوى تعرض ابن قادوس له، وذكرنا فكاهة الجليس في الطيب، وها هو ذا ابن قادوس يداعب رجلاً كان يكبر كثيراً في الصلاة، فيقول:

مع كثرة الرعدة والهزه  
كأنه صلى على حمزه

وفاتر النية عينها  
يكبر سبعين في مرة

ويداعب آخر كان يلوم ابن قادوس على مجونه، فيجيبه بقوله:

ولائهم يلومني  
يقول لي الموت غداً  
يريد مني توبتي  
فقلت هذا حجتي

وانظر إلى هذه الدعابة الطريفة من ابن شمول المقرئ:

تبسمت إذ رأته  
فقلت شعري ليل  
وشيب رأسي يوم  
والشيب فيه نجوم  
فاستضحكت ثم قالت  
كما يقول الظلوم  
ياليتها من نجوم  
غطت عليها الغيوم

ومما يروى أن الطبيب جرجيس الملقب كان بالفيلسوف، كان يزور فصولاً طبية فلسفية على الطبيب أبي الخير سلامة بن رحمون، وكان يبرز هذه الفصول في معارض ألفاظ القوم وهي لا معنى لها، ثم ينفذها إلى من يسأل أبا الخير عن معانيها ويستوضحه أغراضها، فيتكلم أبو الخير عليها ويشرحها دون تيقظ ولا تحفظ، فيوجد فيها عنه ما يضحك، ولذلك هجاه أحد الشعراء بقوله:

إن أبا الخير على جهله  
عليه المسكين من شؤمه  
يخف في كفته الفاضل  
في بحر هلك ماله ساحل  
ثلاثة تدخل في دفعة  
طلعته والنعش والغاسل<sup>(١)</sup>

وللشاعر محمود بن ناصر الإسكندراني - وكان كاتب ابن حديد القاضي -

يداعب طبيياً:

صديقنا المستطب نادرة  
أياب غول ومشفرا جمل  
قد أخذت منه أعين الناس  
ورأس بغل وذقن نسناس<sup>(٢)</sup>

(١) الخريدة: ورقة ١٢٩.

(٢) الخريدة: ورقة ١٢.

ونختم هذه الكلمة بقصيدة الشاعر رضي الدولة أبي سليمان داود بن مقدم، وكان أحد الشعراء الذين عُرفوا بالفكاهة وقال عنه ابن الزبير: إنه من أبناء الجند بأسفل مصر (أي بالوجه البحري) إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحة يقصر عنها أمثاله، ولا يطمع فيها أضرابه وأشكاله، وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثير من أبناء عصره في الدأب على اقتناء الأدب. وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه، ووجدت حقوقه<sup>(١)</sup>، وفي هذه القصيدة التي نذكرها له يصف حالة ولاية الأقاليم والجند وما كانوا عليه من ظلم وفساد، ويصور حالة الرشوة التي كانوا يأخذونها من الناس وما كانوا يجنونها من الأسواق، فهي قصيدة تهكمية، ولكنها تصور حالة العصر أصدق تصوير، فهو يقول في الأمير ابن كازوك - وكان والي الغربية -:

أياها المخلص المسكين ومن كفـ	سأه في كل أزمة تكسفان
بان عنا أهل المحبة واعتضـ	سنا بأهل البغضاء والشنآن
نحن أشقى بختنا وأتعس حظنا	إذ قضانا بصفقة الخسران
إذرعانا بأبغض الخلق مذكا	ن وكانوا لكل قاص ودان
رجل صيغ من حماشيب بالشر	ة خلطاً والشؤم والخذلان
والرياء والبغاء والجهل والإفـ	ك وسوء الطباع والبهتان
ماظننا من قبله أننا نلـ	قى جميع السوءات في إنسان
يتلقاك كالحآع عابس الوجهه	بقلب خال من الإيمان
وله إخوة وأفعالهم في الما	ل فعل الذئاب بالحملان
حر قلبي على مثولي بالبا	ب وقولي لصاحب الديوان
أياها الألمي أعوزك الرعيـ	ن حتى استرعت بالذئبان

—اب لولا عوائق الحرمان  
 —ض وبيض الطلى وسمر اللدان  
 —ام وصدم الأقران بالأقران  
 —يق بقايا العمال والخزان  
 —بيض في ريفنا بلا أثمان  
 —باع إلا بالنقد أو بالرهان  
 المجان والمسمعات بالمجان  
 للفتى من إجابة الديوان  
 لي من طلاب البراز للفرسان  
 بـدرور الأرزاق كلل أوان  
 وأخذ الأفعال من كل خان  
 يـغ الضياع المسورات الحسان  
 —امي نداها في أطيب اللحمان  
 لنفع أو خيفة العدوان  
 ئة أو بالمعلاق والمصران  
 ركب، وقيتم بها من الحدثان

أي شيء غال الكفاة من الكتـ  
 صاحب الخيل والجواشن والبيـ  
 ماله والنكول عن سفر الشـ  
 وطلاب المشارفات وتحقيـ  
 ليس هذا إلا لأن الخراف الـ  
 والرحيق الذي عهدناه لا يـ  
 تجتلي في الكئوس صرفاً مع  
 والإجابات للمآدب أشهى  
 وطلاب الدليل بالرسم أو  
 فاتركونا معاشر الجند واعنوا  
 والولايات والحمايات والزم  
 والمعاصير والسواقى وتسو  
 وارتعوا في جزور ذي الدولة الهـ  
 واشغلونا بما فيه يشغل الهـ  
 بالطحال المسدود أو طرف الرـ  
 واغنموا هدية، كتهوية الـ

## الفصل السادس

### في الغزل

لا أكاد أعرف شاعرًا من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد في الغزل، فجميع الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون؛ سواء أكان هذا الغزل في المؤنث أم في المذكر، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الأقطار الأخرى، فكان شعراء المدح -الذين ألموا بالعقائد المذهبية في شعرهم- يتبعون سنة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل، ولما أراد العماد الأصبهاني أن يروي شيئاً من شعرهم، اكتفى بالمقدمات الغزلية التي افتتحوها بها قصائدهم، وأبى أن يروي شيئاً من مدح الأئمة.

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي رددتها الشعراء من قبل في صفات المرأة، وما تمتاز به المعشوقة من فتنة ودلال وسحر، ولكن الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية، انظر مثلاً إلى قول أبي الحسن التنيسي الملقب برضي الدولة:

راح من خمرة الصبا مغتبقاً	ثملاً، أحسن شيء خلقا
تفعل النشوة في أعطافه	فِعَل عينيه بأرباب التقى
رشاً قد أقسمت ألاحظه	ليريقن دماً عن عشقا
من عذيري من غزال كلما	سئل الرحمة أبدى حنقا
ورأيت النرجس الغض وقد	أخجل الورد بما قد أحدا
ينهب الناهب من زهرته	ويذود اللمس عمّاً بسقا

كم أناديه وذلي شافعي  
هكذا يجزي بكم من عشقا  
وفؤادي يتلظى حرقا  
لاعجبا يسري وقلبا موبقا<sup>(١)</sup>

فالمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة، والتي قدّم بها للمدح، ليست بجديدة في الشعر العربي؛ إنما الجديد في هذه الأبيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها هذه المعاني القديمة.

وانظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل، وقد أتى بمعانٍ لم يطرقها القدماء في غزلهم:

نظري إليك يزيد في نظري  
يا جملة الحسن التي اقتسمت  
فعلام تحجيني عن النظر  
منها المحاسن جملة البشر  
لهواك بين جوانحي كتب  
قد عنونت بالدمع والسهر<sup>(٢)</sup>

فهذه المعاني التي ألمّ به الشاعر في هذه الأبيات لم يطرقها - فيما أعرف - شاعر عربي من قبل، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر، ولكن الشاعر المصري جعل لهوى المحبوب في نفسه كتباً عنوانها الدمع والسهر.

ويتغزّل الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري، فيقول في مقدمة إحدى قصائده:

ومهفّف طالت ذوائب فرعه  
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به  
كالليل فاض على الصباح المسفر  
لي مهجة عن حبه لم تقتصر  
وسنان كحل السحر حشو جفونه  
ففتورها عن مهجتي لم يفتر  
ملك القلوب بدر سمطي لؤلؤ  
عذب اللمى في غنج طرف أحور  
وبوجنة رقم الجمال رياضها  
بينفسج من فوق ورد أحمر

(١) الخريدة: ورقة ٩.

(٢) الخريدة: ورقة ٢٩.

كتب العذار على صحيفة خده  
وهبت محاسنه الكمال فأصبحت  
وهذا بداية حيرة المتحير  
فتن العقول وروض غير المبصر (١)  
ويقول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى:

وإني لأهوى رشاً ساحراً  
إذا ما تثنى فغصن نقا  
أعار فتور العيون الطبا  
وبدر جلا شعره غيها  
وزانت محياه خيلانه  
وبى أسمر ناسبته القنا  
كما يتبع الكوكب الكوكبا  
يروقك خدًا جلا مذهبها  
سقى روض خديه ماء الشباب  
تقلد من لحظه صارماً  
أسأل النفوس وما ذنباً  
ولمك من حسنه دولة  
لطاعتها كل قلب صبا (٢)

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الأبيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء، ولكنها صور متحضرة، لا يذكر الشاعر جزءاً من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله، والحياة التي يحياها؛ فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصبغاً واقعياً - إن صح هذا التعبير - إنما كان يتحدث دائماً عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية، وهنا نرى فرقاً كبيراً بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية، فالشاعر العربي كان مادياً في وصفه، والشاعر المصري كان عاطفياً؛ وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية، ورقي عاطفة المصريين برقي حياتهم.

(١) الخريدة: ورقة ١٣.

(٢) المصدر نفسه: ورقة ٢٨.

ناحية أخرى نراها فيما بقي لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية، تلك أن المصريين بدءوا يتركون الأوزان الطويلة، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوءة وإما منهوكة، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب التي لا يزال أثرها باقياً في مصر إلى اليوم. انظر إلى قول الشاعر طلائع الأمري:

ملك الشوق مهجتي	حبذا من تملكها
قد رماني بحبه	ونہاني عن البكاء
إنما راحة المحب	إذا أن أوشكها
ما أرى السلو عنه	وإن جاز مسلها <sup>(١)</sup>

فهذا الشاعر الدقيق الحس، الرقيق الشعور، وصف حالة المحب المضني، وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى، بالرغم من أن المحب نهاه عن البكاء، فاتخذ هذا الوزن الخفيف، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد تكون من ألفاظ الشعب، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلاً لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير، ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الأمري أيضاً:

أنعموا لي بالوصال	وارحموا رقعة حالي
لا تذيوا مهجتي بي	من التجني والدلال
ليس عذري في هواكم	قد بدالي قد بدالي
إنما قصدي رضاكم	قد حلالي قد حلالي
وإن اخترتم عذابي	لا أبالي لا أبالي <sup>(٢)</sup>

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة، ولكن الشاعر هنا كان

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخريدة: ورقة ٢٩.

شاعرًا مصريًا قبل كل شيء، كان يتغزل، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة.

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الأمري، فقد كان للمصريين لوانان من شعر الغزل: اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظًا جزلة ووزنًا قويًا طويلًا، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيتها بلا تصنع، فلا يتتقى الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجري به لسانه وما تمليه عاطفته. وقد رأينا طلائع الأمري في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه، ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له، فهو يقول:

لعمرك ما هذي قضية من يهوى	تريد الهوى صرفاً من الضر والبلوى
وأدمعه تجري، فهذي هي الدعوى	إذ لم يكن طرف المحب مسهدًا
ألذ من المن المنزل والسلوى	ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى
يبانعه الصبر الجميل من السلوى	وحتى ترى القلب القريح من الهوى
وإن لم يكن فيها من الأمر ما يقوى <sup>(١)</sup>	رعى الله من أعطى المحبة حقها

فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عمّا جاء به في مقطوعته الأولى، فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل؛ على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة، فالشاعر مروان بن عثمان اللكي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة الحب، حين يقول مثلاً:

أبـه غـرام أم جنـون	ما بال قلبك يستلين
---------------------	--------------------

فأذهب الشك اليقين  
 نح والضلوع هوى دفين  
 م في يد البلوى رهين  
 بي آن أن تقضي الـديون  
 وتقسمت فيك الظنون  
 بلـوا حظ فيها فنون  
 ض وأين تدركك الغصون؟  
 وهو في هذا فنون  
 ك الغنج والسحر المبين؟  
 بخـده والياسمين؟<sup>(١)</sup>

برح الخفاء بما يجين  
 حتى متى بين الجوا  
 وإلى متى قلبي المتيم  
 يا ما طلي بـديون قلـ  
 شخصت له فيك العيون  
 وسلبت ألباب الـورى  
 وقوام أغصان الريا  
 الحسن في الأغصان فن  
 من أين للأغصان ذا  
 أم ذلك الـورد الجنـي

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان اللكي التي تظهر فيها عاطفة الشاعر في أسلوب أهل مصر الآن، ولا سيما في البيت الثالث:

توهم معنى في خفي سؤال  
 لأشكل من طيف الخيال خيالي  
 وجدت بدمعي وهو عندي غالي  
 ولم أقض أوطاري بيوم وصال  
 صدود دلال لا صدود ملال<sup>(٢)</sup>

تمكن مني السقم حتى كأنني  
 ولو ساحت عيناه عيني في الكرى  
 سمحت بروحي وهي عندي عزيزة  
 وقد خفت أن تقضي على منيتي  
 وهون ما ألقى من الوجد أنه

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائي يتغزل:

بهواكم على لظى أتقلى  
 عن هواكم وحبكم ما تخلّى  
 عتقه في هوى ولو مات قتلا<sup>(١)</sup>

يا حبيب العمر عطفًا فإني  
 إن وصلتكم، وصلتكم مستهما  
 هو عبد الهوى وليس بباغي

(١) الخريدة: ورقة ١٢٩.

(٢) الخريدة: ورقة ٧١.

ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطي:

يا هذه، رقي على صبِّ دنف      صيره المهجر إلى حد التلف  
رقي عليه، وصلي حباله      فإنه عن حبكم لا ينصرف<sup>(٢)</sup>

وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن عرام كان من إقليم أسوان، فإن غزله كان متأثرًا بالحياة اللينة التي عُرِفَتْ بها مصر، ولا سيما أنه وفد على القاهرة، ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة، فأسهم مع غيره من شعراء مصر في التغزل في الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية، فهو الذي يقول:

من معيني على اقتناص غزال      نافر عن جنائي رواج  
قلبه قسوة كجلمود صخر      خده رقة كزهـر الباغ  
كلما رمت أن أقبل فاه      لدغتنى عقارب الأصداغ  
وقوله أيضًا:

لدغتنى عقارب الصدغ منه      فسלוه من ريقه درياقا  
إنني عاشق له، وهو مذكا      ن ظلوم لا يرحم العشاقا<sup>(٣)</sup>  
وقوله:

يالائمى في غزال      قلبى رهين يديه  
لا تطمعن في سلوى      فلا سبيل إليه  
كم لامنى فيه قوم      وعنفوني عليه  
حتى إذا أبصره      خروا سجودًا لديه

(١) الخريدة: ورقة ٢٥.

(٢) الخريدة: ورقة ٢٥.

(٣) الخريدة: ورقة ١٨١.

فاحفظ فؤادك فالمو ت في ظبا مقلتيه<sup>(١)</sup>

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للمصريين بعض المعاني المبتكرة؛  
من ذلك قول الأخفش في العذار:

وكأن العذار في حمرة الخد على حسن خدك المنعوت

صولجان من الزمرد معطو ف على أكرة من الياقوت<sup>(٢)</sup>

ولكن العماد أخذ على الشاعر أنه ذكر «الخد» مرتين في البيت الأول، مع  
اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه.

وكذلك قال القدماء: إن قول أبي الغمر الإسناوي في العذار من المعاني  
المبتكرة:

وغزال خلعت قلبي عليه فهو بادٍ لأعين النظر

قد أرانا بنفسج الشعر بدرًا طالعا من منابت الجلنار

وقدت نار خده، فسواد الشد — معرفه دخان تلك النار<sup>(٣)</sup>

وقول أبي الغمر الإسناوي أيضًا:

وغزال أبدى لنا الله من بس — تان خديه في الحياة الجنانا

قد أرانا قدًا وخذًا وصدغًا وعذارًا وناظرًا فتانًا

غصنًا يحمل البنفسج والنر جس والجلنار والريحانا<sup>(٤)</sup>

وقال القدماء أيضًا: إن قول أبي إسحاق إبراهيم بن شعيب من المعاني

المبتكرة في التغزل بغلام أسمر:

(١) الخريدة: ورقة ١٨١.

(٢) الخريدة: ورقة ١٣١.

(٣) الخريدة: ورقة ١٣٠.

(٤) المصدر نفسه.

يا ذا الذي ينفق أمواله  
ما الذهب الصامت مستنكراً  
في حب هذا الأسمر الفائق  
ذهابه في الذهب الناطق<sup>(١)</sup>

وكذلك قول المهذب بن الزبير في غلام تغرغرت عند الوداع عيناه:

ومرنح الأعطاف تحسب أنه  
إن قلت إن الوجه منه جنة  
ولئن تفرق دمه يوم النوى  
فالسيف أقطع ما يكون إذا غدا  
رمح، ولكن قد قلبي قد  
أضحى يكذبني هنالك خده  
في الطرف منه وما تناثر عقده  
متحيراً في صفحته فرنده<sup>(٢)</sup>

وقول ابن الضيف الداعي في أمرد التحى:

كنت حياً في المدر حتى إذا  
مثل سطر العنوان يبدو وتطوى  
عذرت جاء الممات والتعذير  
منه في باطن الكتاب سطور<sup>(٣)</sup>

وقول الشاعر علم الدولة مقرب بن ماضي صاحب الواحات:

أهدى إلى معالي  
فَسأَلته عنه فقَالَ  
وردًا ولم يك وقتَه  
ل من الخدود قطفته  
قبلته وكأني  
في خده قبلته<sup>(٤)</sup>

ومن الطريف أن العماد الأصفهاني عندما أراد أن يروي شيئاً من شعر هذا الشاعر قال: «فمن شعره قوله وأنا أكبرها عندي»، ثم روى هذه المقطوعة السابقة، ولا أدري ما الذي جعله يكبر هذه المقطوعة عنه. على حين أن ابن

(١) المصدر نفسه.

(٢) الخريدة: ورقة ٤٤.

(٣) المصدر نفسه ورقة ٥٧.

(٤) المصدر نفسه ورقة ١٠٥.

الزبير وصفه بقوله: «كان قمر الفواضل، كثير الفضائل، غمر النائل، مغناه مرمي ذوي الآداب من المصريين، ومترع المسترفدين منهم والمتجعين».

وهكذا يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المعاني المبتكرة في الغزل في الشعر المصري، وهي معان أخذت من الحياة المصرية التي بلغت شأواً بعيداً في التقدم في ألوان الحياة المختلفة.

ويقول القدماء: إن بعض مقطوعات الغزل كان يتغنى بها المصريون، ولا غرابة في ذلك، فإن مقطوعات الغناء عند أكثر الشعوب هي مقطوعات غزلية، وليست مصر بدعاً في ذلك، ولكن القدماء أرادوا أن يعطونا صورة مما كان يتغنى به في مصر الفاطمية، فلتتبع القدماء على هذا النحو، ونقدم عدة صور من مقطوعات الغزل التي كان يتغنى بها، فمن ذلك قول ظافر الحداد:

عبتت ولكنني لم أع	وأين ملائك من مسمعي
وما قدر عبتك حتى يزي	ل غراماً تمكن من أضلعي
وما دام لومك إلا وأن	ت تقدر أن جناني معي
مضى كي يودع مكانه	غداة الفراق، فلم يرجع
فؤادي في غير ما أنت فيه	فخذ في ملائمته أودع <sup>(١)</sup>

وقول الشريف أبي الحسن علي بن حيدرة العقيلي وفيه لحن من غنائه:

يا غزلاً رضابه سلسيل	هل لعذري إلى رضاك سبيل
فوحق الرسول ما قلت شيئاً	من جميع الذي حكاه الرسول
ما أرى خلعة يخل بها الحس	من فماذا يقال أني أقول <sup>(٢)</sup>

وقوله أيضاً - وفيه لحن من غناء غيره -:

(١) .٪

(٢) .٪

أعطافه فتنة الفتون      وقده غصن الغصون  
 ظبي ظبا لحظ مقلتيه      لها جفون من الجفون  
 يقود إن قاده الثني      كل جنان إلى جنون  
 ما صد بعد الوصال إلا      أجرى عيوناً من العيون

وقول ابن حيدرة العقيلي أيضاً، وفيه لحن من غنائه:

وعذول كان من قولي له      لست أستحسن أجفو الحسن  
 قال: لو كنت أنا أنت لما      رضيت نفسي لجسمي بالضنا  
 قلت: دعني عنك واصنع ما تشا      ما أنا أنت ولا أنت أنا<sup>(١)</sup>

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها القدماء من رواة شعر مصر، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه المقطوعات.

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند رؤية الحبيب، أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته، وما يفعله ذلك كله في نفوسهم، إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو فارقهم إلى مكان آخر، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء مصر الفاطمية، وفي حديثهم عن الفراق نرى لوعة المحب الذي أضناه البعاد وخشينا عليه من الهلاك.

وها هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد:

فتنت بفاتن الحندق      وزاد بهجـره أرقـي  
 إذا ناديت من جـزع      أخذت القلب في طلق

بلا قلب ولا رمق<sup>(١)</sup>

طار الفؤاد وقلَّ الصبر والجَلَد  
بنظرة عليها تشفي الذي أجد  
مخلفًا بعدهم أكباده تقد<sup>(٢)</sup>

أكفكف دمع العين من كل جانب  
عن السير حتى أشتفي بحبائبي  
وسار فؤادي بين تلك الركائب  
وللبين عندي من كبار المصائب<sup>(٣)</sup>

أتراني أحيال يوم التلاق  
لا ولا في الحشا مكان اشتياق  
عذبوا مهجتي وشدوا وثاقي  
يعلموا أنه مرير المذاق  
بعد وشك النوى على الميثاق<sup>(٤)</sup>

إلا ليتلف قلبك المشتاق

رويدك سوف تلقاني

وأنشد ابن معبد الإسكندري:

يا حادي الركب رفقا بالحبيب فقد  
لعل حبي يرى ذي فيرهمني  
يا ويح من ظعنت أحبابه وغدا  
وقال محمد بن وهب:

ولما تنادوا بالرحيل رأيتني  
وأسأل ربي أن تدم ركابهم  
فلم تك إلا ساعة سار ركبهم  
فلم أر يوم البين أعظم حسرة  
وأنشد طلائع الأمري:

ما لقلبي من لوعة البين راق  
عزمة لم تدع لجنفي دمعا  
أطمعوني حتى إذا أسروني  
واستلذوا الفراق حتى كأن لم  
في سبيل الهوى نفوس أقامت  
وقال طلائع أيضًا:

ما أودعوك مع الغرام وودعوا

(١) الخريدة: ورقة ٩.

(٢) المصدر نفسه: ورقة ١٣.

(٣) الخريدة: ورقة ٢٤.

(٤) المصدر نفسه: ورقة ٢٨.

قف فاستلم إثر المطي تعلُّلاً  
 وإن لم يكن لك نحوهن لحاق  
 وتنحَّ عن دعوى هواك فإنه  
 إن لم تمت يوم الفراق نفاق<sup>(١)</sup>

وإذن فالغزل في شعر مصر الفاطمية صورة أخرى من صور الحياة المصرية  
 والعاطفة المصرية التي سمت فبعدت عن المادية التي عرفناها عند الشعراء  
 الأقدمين؛ وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية.

## الفصل السابع

### أغراضه أخرى في الشعر

#### التصوف والزهد:

تحدّثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية، ولكن هناك بعض أغراض أخرى لا تقل خطراً في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر، عن هذه الأغراض التي تحدّثنا عنها من قبل، فقد ذكرنا شيئاً عن هذه الحياة الماجنة التي طغت على مصر حتى خيّل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة الماجنة اللاهية، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطراً إلى أن يعيش لونين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشدّ التناقض، فهو يعبت في حياته ويمجن ويمزح ما شاء له العبت والمجون والمزاح، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكّر في آخرته فيتحدّث عنها ويتذكرها، ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجون، أمّا الزهد أو التقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضاً، حتى أن شعراء المجون أنفسهم كانوا ينشدون الشعر في الحث على الزهد، والتمسك بأهداب الدين، وطلب سعادة الآخرة، وها هو ذا الأمير تميم الذي عُرف بمجونه حتى حُرّم ولاية إمارة الدعوة يقول في الزهد:

فيه الحوادث والمصائب  
حمن فيما أنت راكب

أفنيّت دهرك تقني  
ولو اتقيت معاصي الر

— وفي الحياة من المعاييب  
حكّم عليك، فمن تراقب؟<sup>(١)</sup>

لأمنت من نار الجحيم  
إن لم تراقب مَنْ له  
ويقول مرة أخرى:

في غفلة عمّ وراء الممات  
لهم على أخذ المعاصي ثبات  
أصيب في تميزه بالشتات  
أخرجهم من عدم للحياة<sup>(٢)</sup>

يا عجباً للناس كيف اغتدوا  
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن  
من شك في الله فذاك الذي  
يحييهم بعد البلى مثل ما

فمثل هذه الأبيات لا تصدر من شاعر عُرِف عنه أنه من أشد الشعراء  
مجوناً وعبثاً؛ ولكن طبيعة مصر اضطرتّه إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة  
بعد الموت.

وها هو ذا الشاعر ابن حيدرة العقيلي الذي ذكرنا أنه شاعر الخمر في  
العصر الفاطمي، وأحد شعراء المجون ينشد في الزهد ويدعو إلى التقى  
والورع:

ورث من عمرك القشيب  
من قبل تُدعى فلا تجيب<sup>(٣)</sup>

قد لاح في فودك المشيب  
فكن لداعي التقى مجيباً

ونرى القاضي المعروف بالأديب أبي النضر ينشد:

من أن تُدسّ بالذنوب  
ثمناً وإن مُزجت بطيب  
دك هجمة الأجل القريب

النفس أكرم موضعاً  
مالذة الدنيا لها  
فاسبق إلى إعدادها

(١) ديوان الأمير تميم.

(٢) ديوان الأمير تميم.

(٣) المغرب: ص ٥٥.

والقَى الإله على التقى  
والخوف مزرور الجيوب<sup>(١)</sup>  
ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس:

جهاد النفس مفترض فخذها  
بأداب القناعة والزهادة  
فإن جنحت لذلك واستجابت  
وخالفت الهوى فهو الإرادة  
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح  
شكيمتها بمقموعة العبادة  
عساك تحلها درج المعالي  
وترفعها إلى رتب السعادة<sup>(٢)</sup>

وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنباً إلى جنب مع عاطفة حب المجون،  
والشعر المصري مملوء بالعاطفتين معاً.

وقد ذكرنا في كتاب «أدب مصر الإسلامية» أن مصر عرفت التصوف،  
ووجدت فرقة عُرفت بالصوفية كان لها أثر في الحياة السياسية في العصر  
العباسي، وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي، وكان الأئمة الفاطميون  
يرعون هذه الفرقة. ويحدثنا المقرئزي: أن الأمر الفاطمي جدد قصر القرافة،  
وعمل تحته مصطبة للصوفية، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر، ويرقص  
أهل الطريقة من الصوفية، والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم، والشموع  
الكثيرة تزهر، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط، ومُدَّت لهم الأسمطة  
التي عليها كل نوع لذيذ ولون شهبي من الأطمعة والحلوى، أصنافاً مصنفة.  
وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ، ومزق مرقعته،  
وفرقت على العادة خرقة، وسأل الشيخ أبو إسحاق إبراهيم المعروف بالقارح  
المقري خرقة منها ووضعها على رأسه، فقال الخليفة الأمر بأحكام الله من طاق  
بالمنظرة: يا شيخ أبا إسحاق. قال: لبيك يا مولانا. قال: أين خرقتي؟ فقال مجيباً  
له في الحال: ها هي على رأسي يا أمير المؤمنين. فاستحسن الأمر ذلك، فأمر في

(١) الخريدة: ورقة ١٢٦.

(٢) الخريدة: ورقة ١٢٧.

الساعة فأحضر من خزائن الكسوات ألف نصفية، ففُرِّقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة، ونثر عليهم متولي بيت المال من الطاق ألف دينار<sup>(١)</sup>.

ووفد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي، حدث بالعراق ودمشق وصور، ثم توجه إلى مصر فظلَّ بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ، وكان أديبًا شاعرًا على طريقة الصوفية، ولكن شعره فُقد، ولم يبق منه سوى قوله:

إذا كنت في دار يهينك أهلها      ولم تك محبوبًا بها فتحول  
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما      تكون ولو في قعر بيت مقفل<sup>(٢)</sup>

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عُرفت «بفرقة الكيزانية» نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن الكيزاني الفقيه الشافعي الواعظ، ذكره العماد في خريدته ووصفه بقوله: «فقيه واعظ مذكّر، حسن العبارة، مليح الإشارة، لكلامه رقة وطلاوة، ولنظمه عذوبة وحلاوة، مصري الدار، عالم بالأصول والفروع، عالم بالمعقول والمشروع، مشهود له بالأسنة القبول، مشهور بالتحقيق في علم الأصول، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث، ومعرفة بالقديم مكنون الحديث؛ إلا أنه ابتدع مقالة ضلَّ بها اعتقاده، وزلَّ في مزلقها سداده، وادَّعى أن أفعال العباد قديمة...». إلى أن قال: «أعاذنا الله من ضلة الحلم، وزلة العلم، وعلة الفهم. واعتقد أن التنزيه في التشبيه، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونبيل نبيه»<sup>(٣)</sup>. وتوفي ابن الكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ، ودُفن عند قبر الإمام الشافعي.

(١) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٣٧٩.

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٥، ص ٥٣.

(٣) الخريدة: ورقة ٨٩ وما بعدها.

واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين؛ فقد ذكر العماد: «والطائفة الكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة»<sup>(١)</sup>. وظهور هذه الفرقة في مصر واشتهار أمرها على النحو الذي تحدث به العماد وابن سعيد في كتابه المغرب، يدلنا على مدى الضعف الذي طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر، فإننا رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم، وهذه العقيدة هي أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم، ورأينا الدعاة يكفرون كل من دان بالتشبيه أو التجسيم، ولكن جاءت فرقة الكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم وقالت بالتشبيه، والتفّ عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن يعبئوا بسُلطان الفاطميين وعقائدهم التي انتشرت في مصر زهاء قرنين.

كان ابن الكيزاني شاعراً من شعراء الصوفية بمصر، ولكنه كان ضعيف الشعر، حتى قال عنه ابن سعيد: ووقفت على ديوانه، وهو مشهور عند الناس، قريب من أفهام العامة، غير مرضي عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسان النظام، وقد ضجرت من اختياره ومطالعته، ولم أكتب من ديوانه شيئاً تهش النفس إليه، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه، وكثيراً ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة؛ وكان من لا يعرف معاني الشعراء المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضني على الوقوف عليه، فلما وقفت عليه أنشدني متمثلاً: أنا المعيدي فاسمع بي ولا ترني<sup>(٢)</sup>. ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن الكيزاني على هذا النحو، بالرغم مما ذهب إليه العماد الأصفهاني من الإعجاب بشعر ابن الكيزاني، فإن المقطوعات التي رويت في الخريدة من شعر ابن الكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في

(١) المصدر نفسه.

(٢) المغرب: ص ٩٣ وما بعدها.

الشعر، إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهوروا بمصر في العصور التي تلت العصر الفاطمي، مثل ابن الفارض وغيره، أو الشعراء الآخرين الذين عاصروه، وربما كان سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنه كان واعظاً يخاطب الشعب والدهماء، فكان يضطر إلى اصطناع اللغة التي يفهمها الشعب، وتقرب إلى نفوسهم. فآثر ذلك في أسلوبه ولغته، فإذا بهما يقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعب، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني.

وهو في بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفاً، انظر إليه يقول:

إذا سمعت كثير المدح عن رجل	فانظر بأي لسان ظل ممدوحا
فإن رأى ذاك أهل الفضل فارض لهم	ما قيل فيه، وخذ بالقول تصحيحا
أو لا، فما مدح أهل الجهل رافعه	وربما كان ذاك المدح مجروحاً <sup>(١)</sup>

وهو في بعض شعره متصوف يتحدث عن العشق، ويجري في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذي نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي، فابن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين، وله في ذلك عدة مقطوعات؛ منها قوله:

سواء أن تلوماً أو تريحاً	رأيت القلب لا يهوى نصيحاً
أما لو ذقتما صرف الليالي	إذن لعذرتما القلب القريحاً
وكانت فرقة الأحباب ظناً	فأصبح بينهم خبراً صريحاً
ولو لم ينزلوا سلمات نجد	لما استنشقت بالسلمات ريحاً
ولا أهديت للأسماع يوماً	غناء من حمائمها فصيحاً
وهأنأ قد سمحت بدمع عيني	وكنت بدمعها أبداً شحیحاً

وصنت مع النأي وذاً صحيحاً  
وقد ترك الهوى صدراً قبيحاً<sup>(١)</sup>

وأمكننت المحبة من قيادي  
وقد سكن الجوى قلباً صحيحاً  
وقوله أيضاً:

مسألة ما بيننا وجميل  
فما بال ميعاد الوصال طويل  
وأنتم على نقض العهود نزول  
شهيد لنا إذ ليس عنه نزول  
فيطمع واشٍ أو يلح عذول  
وما عاشق منا بذاك بخيل  
وهذا محب في هواه ذليل  
وهجر وسقم دائم ونحول  
وإن جار بين أو جفاك خليل  
وما حضرتنا للوداع عقول  
تداركهم بعد الرحيل رحيل<sup>(٢)</sup>

أسكان هذا الحي من آل مالك  
ألم تعدونا أن تزوروا تكرماً  
وحلتم عن الوعد الجميل ملالة  
وإننا لنستبقي المودة والهوى  
ولا تحسبوا العتبي عليكم توجعاً  
رضينا، رضينا أن نبيع نفوسنا  
كذلك الهوى، هذا حبيب معزز  
ووجد وشوق وارتياح ولوعة  
دواعي الهوى محتومة فاصطر لها  
علمنا بوشك البين أول حاله  
إذا ما طمعنا أن تقر ديارهم

قلنا: إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمي، وكان لها أثر قوي في الصوفية الذين ظهروا بعد انقراض الدولة الفاطمية، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني، فكان له تأثير قوي في شعراء الصوفية الذين كانوا في عصر الأيوبيين، ففي شعر ابن الفارض مثلاً بعض المعاني التي في شعر ابن الكيزاني، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزاني؛ وسأترك المقارنة بين هذين الشاعرين الصوفيين إلى البحث الذي سيكون في كتابنا القادم «أدب مصر في عهد الأيوبيين والمماليك».

(١) الخريدة.

(٢) الخريدة: ورقة ٩٣.

## الوصف:

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر في العصر الفاطمي، هو عندي أقرب أغراض الشعر إلى التصوف، ذلك هو وصف الطبيعة، فكلا الغرضين ضرب من ضرب التأمل فيما خلقه الله، فكثيراً ما يؤدي بشعراء الوصف إلى التصوف، ولكن شعراء مصر لم يسيروا في هذا المجرى، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم؛ فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسي ينشدون شعراً في الخمر والمجون والطبيعة معاً، وكيف كانوا يؤثرون الشراب في الرياض والمنتزهات، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمنتزهات، أو بوصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المنتزهات المختلفة التي كثرت في هذا العصر، ينعمون بطيب هوائها، ويمتعون أبصارهم بتنسيقها وجمال أزهارها المتنوعة التي عجب الرحالة ناصري خسرو من وجود عدد كبير منها في وقت واحد، فهو يقول: «رأيت في يوم واحد هذه الفواكه والرياحين: الورد الأحمر، والنيلوفر، والنرجس، والترنج، والنارنج، والليمون، والمركب، والتفاح، والياسمين، والريحان الملكي، والسفرجل، والرمان، والكمشري، والبطيخ، والعطر، والموز، والزيتون، والبليج (الإهليلج)، والرطب، والعنب، وقصب السكر...». إلى أن قال: «وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التي بعضها خريفي، وبعضها ربيعي، وبعضها صيفي، وبعضها شتوي لا يصدق هذا»<sup>(١)</sup>. ويقول عن بساتين القاهرة: وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار، وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها، وقد نصبت السواقي لريها، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متنزهات»<sup>(٢)</sup>.

(١) سفر نامه: ص ٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب).

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٠.

وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل، والأمثال العامية التي يصطنعها الشعب المصري الآن، والتي نُقلت إلينا معرّبة عن قدماء المصريين، تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم، وهم يتأملون طبيعة مصر، ويتحدثون عنها، وآثار قدماء المصريين مُلئت بالحديث عن السماء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم في الطبيعة، على أن الشعراء المصريين في العصر الفاطمي لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية، ولم يتحدثوا عنها حديثاً يؤدي بهم إلى معرفة الخالق، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمي وإلى الفلاسفة، واتخذوا لأنفسهم مذهباً فنياً خالصاً مصدره جمال الطبيعة، فإذا بهم يسبغون على المناظر التي وصفوها ألوان الحياة التي يألّفونها من ملابس ومأكّل ومسكن، ويحاولون أن ينتزعوا من الطبيعة صوراً هي أقرب إلى صور الحياة التي اعتادوها، وألوان الزينة التي كان يتزين بها المصريون في العصر الفاطمي، وها هو ذا ابن حيدرة العقيلي يصور منظرًا رآه في إحدى المتنزهات:

والقطر بين مسرح ومسلسل  
ومدملج ومتوج ومكلل  
ومخلوق ومعنبر ومصنل  
ومعرض ومرصع ومثقل  
كانت تكون من الطراز الأول<sup>(١)</sup>

الغيم بين مزرر ومحلل  
والقضب بين مفرط ومطوق  
والنبت بين مزعفر وممسك  
ومدبج ومطرز ومصنف  
فاشرب على حلل لو أمكن لبسها  
ويقول مرة أخرى:

تائهات بلبس خضر الثياب  
صاغه الماء من عقود الحباب  
تنشر السحب فيه مسك ضباب<sup>(١)</sup>

أمهات الشمار بين الروابي  
وبنات الكروم تجلى بما قد  
فاله مادام للشقيق خلوق

ويقول في وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس:

عرائس القضب تجلى على كراسي الروابي  
ومجلس الروض فيه فرش من العتابي

فابن حيدرة العقيلي، وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف الطبيعة، كان يتخذ صورته في الوصف مما كان يدور حوله في الحياة اليومية، وهذه الظاهرة ليست في شعر ابن حيدرة فحسب، بل نراها عند كثير من شعراء مصر الفاطمية؛ فالشاعر تميم بن المعز، وهو أحد شعراء الطبيعة، وصف بركة الحبش وخليج بني وائل فقال:

كان البركة الغنا إذا ما وقد لاح الضحى، مرآة قين  
غدت بالماء مفعمة تموج قد انصقلت، ومقبضها الخليج  
ترى قمر الدجى، قمرًا حذاه طلوعًا ماله فيها بروج<sup>(٢)</sup>

ووصف روضةً على شاطئ النيل فقال:

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل  
أعلل نفسي فيه بالمراح مع صحبي  
لدى روضة عالت رباهما كرومها  
وجداد عليها النيل من مائه العذب  
كأن سحيق المسك خالط أرضها  
فجالت به فيها الرياح مع الترب  
كأن نبات النيل والريح همي  
بهن طلى خيل مؤثلة شهب  
وطورًا تحال الماء في رونق الضحى  
متون سيف لجن مصقولة القضب  
وتحسبه إن محصته يد الصبا  
قوارير ما يفترن من قلق اللعب<sup>(٣)</sup>

وقال ابن عباد أحد شعراء الخريدة:

(١) المغرب: ص ٥٦.

(٢) ديوان الأمير تميم.

(٣) المصدر نفسه.

بدت إليك على غب من السحب  
عن واضح غير ذي ظلم ولا شنب  
خوف الوقوع بمسار من الذهب

كأنها الأرض من زبرجدة  
والأقحوانة هيفاهي ضاحكة  
كأنها شمس من فضة حرست

وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير:

في أفقه متبسماً متوقدا  
وإخاله شنف الرداء موردا  
فاتت نمير البرق صاح وعربدا  
عن متنه صدأ لكي يروي الصدا  
أفق أحالته البوارق عسجدا  
فيعيده نبئاً يخال زبرجدا<sup>(١)</sup>

أرأيت برقاً بالأبارق قد بدأ  
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكاً  
فكأنه في الجو كأس كلما  
أو مرهف كشفت مداوس صيقل  
فاعجب إلى ودق اللجين يسيل من  
ولؤلؤٍ للغيث يأخذه الثرى

وقال ظافر الحداد في يوم برد:

لهاسلوك من هيدب المطر  
بـالزهر كل متششر  
وعذب الرضاب والخصر  
تبدي ابتسام ذي خفر<sup>(٢)</sup>

ويوم برد عقوده برد  
يشره الجوثم ينظم منه الأرض  
فهو يحاكي الحبيب في اللون واللفظ  
فالغيم يبكي والزهر يضحك والبروق

ويقول ظافر أيضاً في متنزهات خليج الإسكندرية:

جاء السرور به لقلبك وافدا  
نقشت عليه يد الشمال مباردا  
ولبسن من أثارهن قلائدا<sup>(٣)</sup>

وعشية أهدت لعينك منظراً  
روض كمخضر العذار وجدول  
والنخل كالغيد الحسان تزينت

(١) الخريدة: ورقة ٢٢.

(٢) الخريدة: ورقة ٨٥.

(٣) صبح الأعشى: ج ٣، ص ٣٠٥.

وللشعراء المصريين جولات في وصف النجوم، وفي الحديث عن النهار والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة، فمن ذلك منظومة ابن وكيع التنيسي التي أوردتها الثعالبي في اليتيمة، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه وشعوره نحو فصول السنة، وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات، ويقول في مطلعها:

وقعت في ذاك على الخبير  
وأيه بالقصف عندي أولى  
مقالة تغني اللييب مقنعة  
من فطن يفهم سامعيه  
أذكرنا ببحره نار سقر  
والأرض تشكو حره المضرا  
جميعها يعاب عندي ويذم  
كأنه على القلوب يقبض  
وتعلق الأذيال بالتراب

فصل بكل سوءة معروف  
وهو كطبع الموت يبسا وبرد  
فأرضه قرعاء من نباته

جاءتك منه غمة غماء  
له وعيد وله تحذير  
أو أنه شخص لكان جهما  
ليس على لاعنها جناح

يا سائلي عن أطيب الدهور  
سألتني أي الزمان أحلى  
عندي في وصف الفصول الأربعة  
أما المصيف فاستمع ما فيه  
فصل من الدهر إذا قيل حضر  
تبصر فيه النبات مقشعرا  
نهاره مقسم بين قسم  
أوله فيه ندى مبخض  
يلصق منه الجسم بالثياب  
ويقول في الخريف:

حتى إذا زال أتى الخريف  
أهوية تسرع في كل الجسد  
يخشى على الأجسام من آفاته  
ومنها في الشتاء:

حتى إذا ما أقبل الشتاء  
أقبل منه أسد مزير  
لو أنه روح لكان قدما  
يأتيك في إبانته رياح

أما عن الربيع فقال:

جاء إلينا زمن الربيع  
لبرده وحره مقدار  
عدل في أوزانه حتى اعتدل  
نهاره من أحسن النهار  
تضحك فيه الشمس من غير عجب  
لبدره فضل على البدر  
كجامة البلور في صفائها

وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة.

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد:

كأن نجوم الليل لما تبلجت  
حكي فوق ممتد المجرة شكلها  
وقال محمد بن عاصم:

ترى صفحة الخضراء والنجم فوقها  
ترى وعلى الآفاق أثواب ظلمة  
وقال المهذب بن الزبير:

وترى المجرة والنجوم كأنها  
لو لم يكن نهراً لما عامت به

فجاء فصل حسن الجميع  
لم يكتنف حدهما الإكثار  
وحمدا التفصيل منه والجميل  
في غاية الإشراق والإسفار  
كأنها في الأفق جام من ذهب  
في حسن إشراق وفرط نور  
أو غرة الحسناء في نقابها<sup>(١)</sup>

توقد جمر في خلال رماد  
فواقع تطفو فوق لجة وادي<sup>(٢)</sup>

ككف سدوسي بدا فيه درهم  
وأزرارها منها شمال ومرزم<sup>(٣)</sup>

تسقي الرياض بجدول ملآن  
أبدًا نجوم الحوت والسرطان<sup>(٤)</sup>

(١) يتيمة الدهر: ج ١، ص ٢٨٥.

(٢) نهاية الأرب: ج ١، ص ٣٣.

(٣) المصدر نفسه: ص ٣٤.

(٤) نهاية الأرب: ج ١، ص ٣٦.

وقال ابن وكيع التنيسي:

قم فاسقني صافية  
أما ترى الصبح بدا  
أما ترى جـوزاءه  
منطقة من ذهب  
تهتك جناح الغسق  
في ثوب ليل خلق  
كأنها في الأفق  
فوق قبـاء أزرق<sup>(١)</sup>

وقال تميم بن المعز في الصباح:

وكان الصبح في الأفق باز  
والدجى بين مخليبه غراب<sup>(٢)</sup>

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح:

غرد الطير فنبه من نعس  
سل سيف الفجر من غمد الدجى  
وانجلى في حلـة فضية  
وأدر كأسك فالعيش خلـس  
وتعري الصبح من ثوب الغلس  
ما بها من ظلمة الليل دنس<sup>(٣)</sup>

أمّا نيل مصر فكان له شأن مع شعراء مصر الفاطمية، فإنهم كانوا يُكثرون من ذكره في شعرهم، ويفيضون عليه صورهم كلما فاض عليهم بهائه، وها هو ذا الأمير تميم يقول:

يوم لنا بالنيل مختصر  
والسفن تجري كالخيول بنا  
وكانها أمواجه عكن  
ولكل يوم مسرة قصر  
صعدًا وجيش الماء منحدر  
وكانها داراته سرر  
ويقول مرة أخرى:

أما ترى الرعد بكى واشتكى  
والبرق قد أومض واستضحكا

(١) نهاية الأرب.

(٢) ج ١، ص ٤٤١.

(٣) المصدر نفسه.

يضحك وجه الأرض لما بكى  
كأنها صندل أو مسكا<sup>(١)</sup>

من المياه فجاءت وهي تستيق  
مدائن فتحت فاختارها الغرق  
فكر إثر الأعادي محقق نزق  
شهب الخيول إذا ما حثها العنق  
واطرب ولذ، فهذا منظر أنتق

وانظر لما بعدها من حمرة الشفق  
كأنها احترقت بالماء في الغرق  
في إثرها زورق قد صيغ من ورق<sup>(٢)</sup>

ولم ينس الشعراء أهرام مصر، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر  
الحاجب المتوفى سنة ٣٨٧، قال في وصف الأهرام:

للعين في علو وفي صعد  
ظمئت لطول حرارة الكبد  
تدعو الإله لفرقة الولد  
رئيا وينقذها من الكمد  
خير الأنام مقوم الأود<sup>(٣)</sup>

فاشرب على غيم بصنع الدجى  
وانظر لماء النيل في مده  
ويقول تميم عند زيادة النيل:

انظر إلى النيل قد عبَّ عساكره  
كأن خلدجانه والماء يأخذها  
كأن تياره ملك رأى ظفراً  
كأن ماء سواقيه لناظرها  
فاشرب مهنى فإن اللهو منبسط  
ويقول ابن قلاقس:

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة  
غابت وألقت شعاعاً منه يخلفها  
وللهلال فهل وافى لينقذها

انظر إلى الهرمين إذ برزاً  
وكأنها الأرض العريضة قد  
حسرت عند الثديين بارزة  
فأجابه بالنيل يشبعها  
لكرامة المولى المقيم بها

(١) خطط المقرئزي: ج ١، ص ١٠١.

(٢) ديوان ابن قلاقس: ص ٧٥.

(٣) خطط المقرئزي: ج ١، ص ١٩٥.

ويقول ظافر الحداد:

ويينها أبو الهول العجيب  
لمحبوبين يينها رقيب  
وصوت الريح عندهما نحيب<sup>(١)</sup>

تأمل بنية الهرمين وانظر  
كعمارتين على رحيل  
وماء النيل تحتهما دموع  
وقول عمارة اليميني:

تماثل في إتقانها هرمي مصر  
على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر  
ولم يتنزه في المراد بها فكري<sup>(٢)</sup>

خليلي ما تحت السماء بنية  
بناء يخاف الدهر منه، وكل ما  
تنزه طرفي في بديع بنائها

أمّا منشآت الفاطميين ومبانيهم، فقد ذكرها الشعراء في أشعارهم، ومنها هذه القصيدة التي أنشدها عمارة اليميني بعد أن دالت دولتهم، والتي تحدثنا عنها من قبل، وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار، ولم يبقَ إلا عدة مقطوعات قليلة في وصف مباني المصريين.

قول علي بن يوسف الإيادي يذكر دارًا بناها المعز العبيدي بمصر، وسماها العروسين:

كأن الثريا عرست في قبابه  
بدأ ضوءه كالبدر تحت سحابه  
فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابه  
على قدره في ملكه ونصابه  
على المسك من أجره وترابه<sup>(٣)</sup>

بنى منظرًا يسمى «العروسين» رفعة  
إذا الليل أخفاه بحلكة لونه  
تمكن من سعد السعد محلّه  
ولو شاده عزم المعز ورأيه  
لكان حصي الياقوت والتبر مفرغًا

(١) الخريدة: ورقة ٨٥.

(٢) خطط المقرئ: ج ١، ص ١٩٥.

(٣) نهاية الأرب: ج ١، ص ٤٠٧.

وقال أمية في وصف قصر بناه الأمير علي بن الأمير تميم بن المعز:

لله مجلسك المنيّف فبابه  
موف على حبك المحبة تلتقي  
تتقابل الأنوار في جنباته  
عطفت حناياه دوين سمائه  
واستشرفت عمد الرخام وظوهرت  
فهواؤه من كل قد أهيف  
فلك تحير فيه كل منجم  
فبدا للحظ العين أحسن منظر  
فاطلع به قمرًا إذا ما أطلعت  
فالناس أجمع دون قدرك رتبة

بموطد فوق السماك مؤسس  
فيه الجواري بالجوار الكنس  
فالليل فيه كالنهار المشمش  
عطف الأهله والحواجب والقسي  
بأجل من زهر الربيع وأنفس  
وقراره من كل خد أملس  
وأقر بالتقصير كل مهندس  
وغدا لطيب العيش خير معرس  
شمس الخدود عليك شمس الأكؤس  
والأرض أجمع دون هذا المجلس<sup>(١)</sup>

ووصف الشاعر علي بن محمد النيلي باب زويلة فقال:

يا صاح لو أبصرت باب زويلة  
باب تآزر بالمجرة وارتدى الشـ  
لو أن فرعونًا رآه لم يرد  
لعلمك قدر محله بنيانا  
عري ولاث رأسه كيوانا  
صرحًا ولا أوصى به هامانا<sup>(٢)</sup>

على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة في تفخيم المباني والمنشآت.

وهكذا نستطيع أن نتبع هذه العصور المختلفة التي صور بها شعراء مصر الفاطمية ما رأوه في الطبيعة وفي المنتزهات، وهي صور من الحياة المصرية التي كانت تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم، بل ذكر الشعراء الزينات

(١) نهاية الأرب: ج ١، ص ٤١١.

(٢) صبح الأعشى: ج ٣، ص ٣٠٥.

المختلفة التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومنتزهاتهم، ويغالون في إظهارها إمعاناً في الترف والبذخ، وها هو ذا ابن قلاقس يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج، كالذي يتخذه المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة:

ما عهدنا النخل لولا هذه      باسقات بثثار اللهب  
هطل الغيث لها من فضة      فهي في قنوانها من ذهب  
تلعب السرج على حافاتها      وتحاكي أنمل المرتعب  
ولقد أحسبها ألسنة      هزها للسكر خمر الطرب<sup>(١)</sup>

ونرى المصريين في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم، فوصفوا الشمعة مثلاً، كما في قول المهذب بن الزبير:

ومصفرة لا عن هوى غير أنها      تحوز صفات المستهام المعذب  
شجوناً وسقمًا واصطبارًا وأدمعًا      وخفقًا وتسهيّدًا وفرط تلّهب  
إذا جمشتها الريح كانت كمعصم      يرد سلامًا بالبنان المخضب<sup>(٢)</sup>  
ويقول آخر في الشمعة أيضًا:

وصحيفة بيضاء تطلع في الدجا      صبحًا وتشفي الناظرين بدائها  
شابت ذؤابتها أوان شبابها      واسودّ مفرقها أوان فنائها  
كالعين في طبقاتها ودموعها      وسوادها وبياضها وضيائها<sup>(٣)</sup>

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل - أمير شعراء المستنصر - القلم والرمح بقوله:

يراعان هذه يملأ الطرس حكمة      وذاك يذيق الحتف ليثًا غضنفرًا

(١) ديوان ابن قلاقس: ص ١٨.

(٢) الخريدة: ورقة ٤٩.

(٣) المصدر نفسه: ١٣٩.

وإن ظمئنا ظنناهما يردًا على  
فيشرب هذا أسود الليل حالكًا  
نفوس العدا من غير إذن ويصدرا  
ويشرب هذا قاني الدم أحمرًا<sup>(١)</sup>  
ويصف طلائع الأمري الخيل بقوله:

جنائب إن قيدت فأسد وإن عدت  
أثارت بأكناف المصلى عجاجة  
بأبطالها فهي الصبا والجنائب  
دجت وبدت للبيض منها الكواكب<sup>(٢)</sup>  
ويقول ابن الضيف في عدد الفرس:

كم سابع أعدده فوجدته  
لم يرم قط بطرفه في غاية  
عند الكريهة وهو نسر طائر  
إلا وسابقه إليها الحافر<sup>(٣)</sup>

ويطول بي الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية، فهم لم يتركوا شيئاً دون أن يتحدثوا عنه في أشعارهم، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه من رقة الشعور، ودقة الحس، ومقدرة على القريض.

### خاتمة القول في الشعر

رأينا صورًا مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي، وعرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله: إلى أي حد وفق شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعورهم؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة، نرى أن نتحدث أولاً عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته، منذ عرف الشعر

(١) الخريدة: ورقة ٢٠.

(٢) المصدر نفسه: ٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ورقة ٣٧.

العربي إلى الآن، بل ستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي، وهذه الخصائص هي التي تجعله - مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره - وحدة يشبه بعضها بعضاً، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي تنشد الشعر بالعربية، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة، ولم تختلف باختلاف الأقاليم، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص؛ بل ظلت مثلاً علياً للشعراء جميعاً دون أن يصيبها تغيير جوهري.

فمثلاً نجد الشعراء جميعاً منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهلي إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالرقعة والعدوبة والجزالة والسلاسة... إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية، فلا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية اصطنع ألفاظاً توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون. حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتظرف في الشعر باستعمال بعض الألفاظ أعجمية، ولكننا نستطيع أن نقول: إن ذلك كان قليلاً جداً بحيث لا نستطيع أن ندعي أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب، وإذن فقد اشترك الشعراء جميعاً في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم، وتباينت بيئاتهم، فلا نستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التي أنشدت بالعربية من شعر قطر آخر، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعاً، لم يصيبها تغيير، ولن يصيبها تغيير.

كذلك نقول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسبابها، والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التي عرفها القدماء، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن

هذه الأوزان مهما بعد بهم الزمن عن الشعر القديم، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة. ورب معترض يقول: إنَّ الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال، وإن المصريين اخترعوا البليق، وأدخل شعراء الفرس الدوبيت والرباعيات في الشعر العربي، وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء، ولكن أتى بها المولدون، فكيف تكون الأوزان إذن مثلاً من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل البيئات؟! فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة، ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيَّروا بعض أشكال الشعر، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية؛ أي أنهم في تجديدهم هذا لم يستطيعوا أن يحددوا عن المثل القديمة في الشعر العربي، ومع ذلك كله فلو ذهبنا جدلاً إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري والدوبيت الفارسي تجديد في الوزن العربي - مع أننا لا نوافق على هذا الرأي - فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءاً يسيراً جداً بجانب الشعر الآخر الذي خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس، والذي حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعاً، لم يصبه تغيير إلى الآن.

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربي التي اتبعتها الشعراء في كل العصور والبيئات، وحافظ عليه الشعراء أشد المحافظة، حتى هؤلاء الشعراء الذي نزعهم أسرفوا في التجديد، فالشاعر أبو نواس مثلاً الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها، لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير، وكذلك نقول عن المجددين اللفظيين من أصحاب البديع، الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي، واستخدام ألوان الزينة البديعية، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر

القديم، فلم يتكروا قافية غير القافية التي نهج عليها القدماء، ولا تفعيلات غير التي عرفتها دوائر العروض، ولم يستخدموا ألفاظاً غير عربية.

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلاً للشعراء، فلا نستطيع إذن أن نقول: إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر، أو إن المصريين قلدوا العباسيين واتخذوهم مثلاً لهم؛ لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة، وكذلك لا نستطيع أن نقول: إن الإندلس أظهرت شخصيتها بأن وجدت الموشحات، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلاً عليا لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربي حق إدراكه، ونظروا إلى الشعر نظرة خاطفة، فتوهموا أن العباسيين كانوا مثلاً للشعر العربي. ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هانئ الأندلسي كان يقلد المتنبي حتى لقب بمتنبي الغرب؟ ألم يقل القدماء أيضاً: إن الأمير تميم بن المعز كان يقلد ابن المعتز وينهج نهجه؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس، فلم لا يذهب هؤلاء أيضاً إلى أن العباسيين كانوا مثلاً عليا للشعر العربي؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات، فلم يكن العباسيون مثلاً عليا لغيرهم من شعراء الأقاليم العربية.

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعاً في هذه الخصائص، فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر في الشعر، فنحن لا نجد لها في الأوزان ولا في القوافي، ولا في اللفظ، ولا في أساليب الشعر، بل نجد لها في المعاني التي ذكرها الشعراء، وفي الأخيلة الشعرية، وهنا فقط نستطيع أن نقول: إن الشعر المصري

صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا تستطيع أن تنسبه إلى قطر غير مصر.

فمن ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلاً للأحداث التي جرت في هذا العصر. حقيقة ضاع جُلُّ هذا الشعر السياسي، ولكننا نستطيع أن نحكم على ذلك بما بقي لنا من آثار هذا الشعر، وقد ذكرنا شيئاً عن شعراء القصر وشعراء الوزراء، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان الدولة في مثل هذه الأحداث السياسية، وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون الخليفة أو الوزير، ومن البديهي أن ما كان يُنشد من الشعر السياسي هو صورة حياة مصر السياسية دون غيرها من الأقطار الأخرى.

ورأينا جانباً من الشعر المصري في الزهد والدين بجانب الشعر المصري في المجون والإباحة، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصري يدلان دلالة صريحة على ناحية هامة من نواحي الحياة في الشعب المصري؛ فقد ذكرنا أن الشعب المصري شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين، وأنه شعب يعمل لآخرته؛ ولكننا في الوقت نفسه نراه شعباً يميل إلى المجون في حياته، وأنه شعب يميل لدنياه فيأخذ بنصيب من متاع الدنيا، فمصر على هذا النحو متناقضة مضطربة بين متاع النفس ومتاع الجسد، وإذا الشعر المصري يضطرب أيضاً فيمثل الناحيتين من حياة هذا الشعب، ولعل هذه الظاهرة لا تزال ماثلة إلى اليوم في حياة المصريين، وفي شعر المصريين، والذين درسوا الشعب المصري عجبوا للفكاهة والدعابة المصرية، وكيف يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة، والنادرة بعد النادرة، وهم يضحكون على مسمع هذه الفكاهات والنوادر بأصوات عالية. وذكر الكتاب أن الفكاهة المصرية تدل على ذوق المصريين وسرعة بديهتهم، وعلى وعي شديد في تذوقها. وزعم بعض الكتاب أن المصريين أكثر الشعوب حباً للفكاهة وكلفاً بإطلاقها وسماعها، وأن الفكاهة

تجري في دم كل مصري، ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها في الحديث عن الناحية الجنسية، وهي تتناول بعض أعضاء الجسم، حتى أن أشد ألوان الفكاهة المصرية إضحاكاً هي هذه الفكاهات التي تتحدث عن العلاقة الجنسية أو أعضاء الجسم، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة؛ لوناً يميلون فيه إلى المجون، ولوناً آخر يميلون فيه إلى الدين، فإذا الشعر المصري في كل عصوره يمثل هذين اللونين، وقد رأينا صوراً لهما في الشعر المصري في العصر الفاطمي.

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذي تكاد تنفرد به، وأرض خصبة تُروى في أوقات منتظمة، جعلت المصريين شعباً يميل إلى الهدوء واللين في كل شيء، وظهر أثر ذلك في التفكير عند المصريين، فنحن لا نكاد نجد عند المصريين عمقاً في تفكيرهم وفي دراساتهم المختلفة، ولعل هذا هو السبب في أننا لا نجد فيلسوفاً مصرياً، ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها في تاريخ الفكر البشري. ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذي استطاع أن يهضم كل المدنيات التي ظهرت، وعرف كل الدراسات المتنوعة، بل استطاع أن يمصر الشعوب التي وفدت على مصر، ومع هذه القوة الكامنة في مصر لم ينتج المصريون فلسفة خاصة بهم. ورُبَّ معترض يقول: إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفةً تباين الفلسفة الهلينية بعض التباين، ولكن فاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية لم يكونوا من المصريين، بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم على أساتذة مدرسة الإسكندرية.

وقد ذهب بعض مؤرّخي مدرسة الإسكندرية إلى أن أفلوطين من صعيد مصر، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية، وظهر ذلك في آرائه التي حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية، ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها في مصر، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٣٣، وأقام إحدى عشرة

سنة في الاستماع إلى الفلسفة اليونانية، ثم رحل عن مصر إلى سوريا والعراق، وفي سنة ٢٤٥م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سني حياته إلى أن توفي سنة ٢٧٠م. فأراء أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية، ولكنها كانت بتأثير هذه الرحلات التي قام بها، فمدرسة الإسكندرية على الرغم من استمرارها في مصر عدة قرون، لم تؤثر في المصريين تأثيراً له خطره، والذي قبله المصريون من دروسها هو شيء قريب إلى عقلية الشعب المصري التي تميل إلى كل شيء بسيطٍ لين؛ ولذلك لم تمكث مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلاً عقب الفتح العربي؛ إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين، إلى أن أعاد الفاطميون تعاليم المدرسة الإسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية، ثم خرجت هذه التعاليم من مصر بانقراض الدولة الفاطمية، ولم تُعد إليها إلى الآن، وأغلب الظن أنها لن تعود مرة أخرى إلى مصر، وفي تاريخ الحياة الصوفية في مصر لم نجد صوفياً له فكرة متميزة به، وإذا قلنا: إنَّ ذا النون المصري كان من أوائل الصوفية الذين لهم رأي في وحدة الوجود؛ فإن تعاليمه لم تزدهر في مصر، وإنما الذي حملوا آراءه من غير المصريين، وذلك كله لأن المصريين شعب يميل إلى الهدوء واللين في حياتهم وفي تفكيرهم، وذلك من تأثير البيئة المصرية.

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء؛ فتراهم هادئين في تفكيرهم، وفي ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التي تلائم طبيعتهم، وظهر في وصفهم للطبيعة تلك الصور الهادئة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة، ولا عمق المفكرين، إنما كانت صورهم هي صور الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون.

والمصري عُرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته، لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة، وإذا غاب عن بيئته فهو يحن إليها حنيناً شديداً جداً، ولا يلبث أن يعود إليها. وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون

بتصوير هذه البيئة، ولم يحاول الشاعر المصري أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله، ومن هنا كان تصوير الشعر المصري للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حسيّة، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة، لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر، ولا يصوّر الشاعر شعباً غير شعب مصر، فليطمئن الذين زعموا أن مصر لم تُنتج أدباً، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصري في العصر الفاطمي، ثم العصور التي وليت هذا العصر، وأن الشعر المصري يصوّر حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل.

أمّا أخيلة المصريين في التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم، فهي أخيلة مستمدّة من بيئتهم ومن حياتهم أيضاً؛ فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية؛ فاستعمال الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمي بأنها صور متزعة من الحياة الفاطمية، وأن توسّع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمغالاة في استخدامها هي ضرورة اضطررتهم إليها حياة العصر الفاطمي نفسه. حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمي هذه الألوان الحسية في شعرهم، وقد تحدّثنا عنها في كتابنا «أدب مصر الإسلامية»، وأوردنا شيئاً من شعر شعراء هذا العصر، مما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية؛ ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالغلو في كل شيء؛ فقد رأينا غلو الفاطميين في الدين، وغلوهم في اللهو، وغلوهم في التزين والتجمل، وغلوهم في الملبس والمسكن؛ غلو في أعياد فرحهم، وغلو في ذكريات مآثمهم؛ فظهر هذا الغلو في فن الشعر ظهوره في نواحي الحياة المختلفة، فأسرف الشعراء في العصر الفاطمي في استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم أشرف الفاطميين في حياتهم، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان الحسية

عن الزينة. ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة البديعية، أو أنهم لم يسرفوا في استخدامها، بل كانت الزينة البديعية في الشعر العربي أقدم عهدًا من الفاطميين، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن تقوم دولة الفاطميين في مصر، فقد فتنت الزينة البديعية الناس جميعًا في كل البلاد العربية، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني، وإرضاء الجمهور الذي فُتِنَ بها، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي، ولم يتخلفوا عنه، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعية، فسبقوا غيرهم في مضماره، وذلك لما في المصريين من دقة الحس، ورقة الشعور، وميل إلى الفكاهة، وخفة الروح، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي يظهر عند غير المصريين من الشعراء، ولا تلمس جهد الشاعر في الحصول على هذه الصورة الفنية التي ابتدعها في شعره، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها ما يشاءون دون جهد، فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تعليلها، وهي صور مصرية وتعليقات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية.

وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضًا إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضًا، لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية، وهكذا ظهرت شخصية مصر في الشعر بارزة واضحة.

obeikandl.com

## الباب الثاني في النثر

### الفصل الأول ازدهار النثر

رأينا في كتابنا «أدب مصر الإسلامية» كيف أُسس ديوان الإنشاء بمصر في عهد أحمد بن طولون، وأن أول مَنْ ولي هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بـ«ابن عبد كان» الكاتب، وعرفنا كيف استمر تلاميذ «ابن عبد كان» يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين، فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر، حتى أن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر، وابن عبد كان الكاتب، ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلها<sup>(١)</sup>. وكثر عدد الكتاب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين، أمثال: الحسن بن رافع، ويعقوب بن إسحاق، وأحمد بن أيمن، والحسين بن مهاجر، وعلي بن أحمد المادرائي، وابن الداية، وإسحاق بن نصير العبادي، وإبراهيم بن عبد الله النجيري، ومحمد بن كلاو الروزباري... وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فناً يتكسبون به، ومؤهلاً لتعيين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد، فكثر تنافس الكتاب في تجويد الكتابة وإتقان الصناعة، حتى علا منارها وعظم شأنها.

(١) صبح الأعشى: ج ٣، ص ١٧.

تولى الفاطميون أمر مصر، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة، فتضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولاً بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوي في تيار الفكر الإسلامي عامة، وفي مصر الفاطمية على وجه خاص، وقد تحدّثنا عن ذلك من قبل.

ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معاً؛ فقد عني الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء؛ بل لا أعالي إذا قلت: إنَّ عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء؛ ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجّهوا همّتهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم. ويحدّثنا المؤرخون عن هذه الدواوين، وعن الكتاب الذين تولوها، والتشريف الذي كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمي؛ من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه، وينشأ له السجل، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب... إلى غير ذلك<sup>(١)</sup>. ويذكر المقرئ أن أبا البركات بن أبي الليث متولي ديوان المجلس سنة ٥١٧هـ، كان له باسمه مياومة إدراة من بيت المال والخزائن ودار التعبية والمطابخ وشون الخطب الشئ الكثير، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار، ومن الضأن رأس واحد، ومن الحيوان ثلاثة أطيّار، ومن الخطب حملة واحدة، ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلاً، ومن الخبز عشرون وظيفة، ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصر يتان وشامة، كما كان له في كل يوم إثنين وخميس من السماط بقاعة الذهب طيفور خاص، وصحن من الأوائل، وخمسة وعشرون رغيفاً من الخبز المائدي والسميد، وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسمطة مثل ذلك، وفي كل

(١) خطط المقرئ: ج٢، ص ٢٣٦.

يوم سبت وثلاثاء من أسمطة الركوبات خروف مشوي وجام حلوى ورباعي عنب، وكان يحضر إليه في كل يوم من الإصطبلات بغلة بمركوب محلي، وبغلة برسّم الراجل، وفراشين برسّم خدمته. ولم يقتصر الأمر عليه وحده؛ بل جعلوه لولده جاريًا كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم، وعشرة أرطال دقيق، وراتبًا عشرة دنانير<sup>(١)</sup>.

ويقول المقرئزي أيضًا عن ديوان التحقيق: إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير، وله الخلع المرتبة والحاجب<sup>(٢)</sup>. أمّا صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات، فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم، وله حاجب من الأمراء الشيوخ وفراشون، وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة، وهي من أخص الدوي، ويحملها أستاذي الخليفة<sup>(٣)</sup>. ويحدّثنا ياقوت: أن رزق ابن خيران كاتب الإنشاء في عهد المستنصر، كان ثلاثة آلاف دينار في السنة، وكان له عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفيهما من كل شيء<sup>(٤)</sup>. فهذا التشريف الذي جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار الكتابة ففي هذا العصر، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذي رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب، وإقبال الناس على التعليم، وإجادة الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة في الدواوين؛ فكثرت عدد الكتاب، وأصبح على المتأدب أن يأخذ عن الكتاب طرائقهم وفنهم.

ويحدّثنا القاضي الفاضل أنه كان من عادة أرباب الدواوين في تربية أبنائهم، أنهم كانوا يرسلون هؤلاء الأولاد إلى ديوان المكاتبات ليتعلموا فن

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٢٩.

(٢) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٢٠٤.

(٤) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٥ (طبعة رفاعي).

الكتابة. قال القاضي الفاضل: كان فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد غصًّا طريًّا، وكان لا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانًا وبيانًا، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطانًا، وكان من العادة أن كلاً من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشداً شيئاً من علم الأدب، أحضره إلى ديوان المكاتبات ليتعلم فن الكتابة ويتدرب ويرى ويسمع، فأرسلني والدي - وكان إذ ذاك قاضياً بغير عسقلان - إلى الديار المصرية في أيام الحافظ، وأمرني بالمسير إلى ديوان المكاتبات، وكان الذي يرأس به في تلك الأيام رجل يقال له ابن الخلال، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبني؛ رحّب بي وسهّل، ثم قال: ما الذي أعددتَه لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت: ليس عندي شيء سوى أي أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة. فقال: وفي هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته، فترددتُ عليه وتدرّبتُ بين يديه، ثم أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره، ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته<sup>(١)</sup>.

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة، فقد كان حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عدد الكاتب في هذا العصر، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عُرف بعد ذلك بالقاضي الفاضل أن ينشر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحماسة؛ تهيئةً له في الدخول في سلك الكتّاب. ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتبًا، بل كان لا بد له من آلات - على نحو ما عبّر ابن الخلال - وهذه الآلات هي علوم العربية، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية، فلا يقع في لحن نحوي أو لغوي، أو يتعد الكاتب عن سنن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم. ولم يقع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتّاب سليمة صحيحة، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك؛ بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين

لمراجعة ما كان يجرّره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية، فلا غرو أن يقول القاضي الفاضل: «إن فن الكتابة بمصر في زمن بني عبيد كان غصًا طريًا». وأن تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتبًا من كتّاب الدواوين.

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمي أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمي كانوا من الكتاب، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة؛ فالفلاحي والجرجرائي واليازوري والبابلي وبنوالمغربي وابن المدبر وابن الأنباري وكثير غيرهم كانوا من الكتاب، وقد بلغوا مرتبة الوزارة، حتى أن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام، وأن وزراء الدور الثاني كانوا من أصحاب السيف، وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثاني، أو أن الكتاب أصبحوا في مكانة تقل عن مكائهم الأولى، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذي كانوا فيه في الدور الأول، ومنهم كان جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مظلته، ومنهم كان القضاة والدعاة، وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة، فالكتاب طوال العصر الفاطمي كانت لهم مكائهم الممتازة، والنعم العميمة، والعطايا الجزيلة، فلا غرابة إذن أن يُقبل الناس على الكتابة، وأن تزدهر في هذا العصر.

أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمي كان من أشد العوامل على ازدهار الكتابة؛ فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول، فيه الحض على تقوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الحنيف، ثم الإشارة إلى المنصب

الذي سيعين فيه الموظف، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل، إلى غير ذلك من ترغيب في المنصب، ومشورة في تصريف العمل، وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك.

وفي أعيادهم ومآتمهم كانت تصدر هذه السجلات أيضًا، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخًا للعصر الفاطمي كله، وكان الكتّاب يفتنون في إظهار مقدرتهم وكفائتهم في صياغة هذه السجلات، ويتنافسون في هذا الفن؛ فجاءت هذه السجلات الفاطمية صورًا رائعة من صور الكتابة العربية التي تمثل العصر الفاطمي أصدق تمثيل.

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة في العصر الفاطمي، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلموا بفن الكتابة، حتى يصبحوا كتّابًا في دواوين الفاطميين، وأن ينالوا ما ناله الكتّاب من تكريم وتقريب ونعم.

### النثر والأئمة:

وكان الأئمة يجيدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر، فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية في المسجد الجامع، ويقراءون ما يعرضه عليهم الدعاة من مجالس المحكمة، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس. فمن خطبة المعز لدين الله في عيد الأضحى سنة ٣٤١هـ:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر الأعز الأقدر، الخالق المدبر، ذو الكبرياء والجبروت، والعزة والملكوت، الأحد الصمد، الفرد المتفرد، الأعلى القاهر، الباطن الظاهر، الأول الآخر، مبدع السماوات والأرض بالقدرة، ومالكها بالعزة، ومدبرها بالحكمة، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة، وبدائع التركيب والصنعة، الذي كل شيء من موات وحي متوجّه بالدعاء إليه، والدلالة عليه، والشهادة له بالتوحيد، والتعظيم والتحميد، فتكوينه الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شيء قبله، وانتهائها إلى الغايات

دليل على أن لا غاية له، وإحاطته بحدودها منبىء بأن لا حد له، فالضعف والعجز والفقر والنقص الذي لم يخل منه مخلوق، أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده - جل ثناؤه - بالإلهية والفردانية والقدرة والربوبية والتمام والكمال والأزل والدوام.

تبارك الله رب العالمين، أحسن كل شيء خلقه، وكفل لكل حي رزقه، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته، ووجبت طاعته، والكتب والرسل الذين تمت بهم حكمته، فصلى الله عليهم أجمعين، وعلى محمد سيد المرسلين، الذي رفع ذكره وأعلى قدره، فأكرمه بالوسيلة، واختصه بكل فضيلة، وابتعثه هادياً للعباد ونوراً في البلاد، علم به من الجهل، وهدى به من الضل، وكثر به من القل، وأعز به من الذل، فألف به بعد الشتات، ونور به دياجير الظلمات، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين.

يا أيها الناس، إن الله لم يخلقكم عبثاً، ولم يهملكم سدى، ولم يجعل عليكم في الدين حرجاً، ولم يضرب الذكر عنكم صفحاً، للعبادة خلقكم، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم، وجعل للطاعة أعلاماً منصوبة، وفروضاً مكتوبة، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق، مبعوا إبراهيم خليل الله، وقبله محمد رسول الله، فتقربوا إلى الله بما أمدكم به، ورزقكم إياه من بهيمة الأنعام، مقتدين بسنة محمد نبي الرحمة والهدى، مستشعرين لله التقوى، فإن الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾، فبالتقوى تُقبَل الأعمال ويُدرَك الأمل، وكبّرُوا الله على ما هداكم، واشكروه على ما أولاكم. ألا وإن خير الهدى الإبل، وخير الإبل إنائها، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن، وأن تكون من حلال الأموال، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل

بامتنانه، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه. وجلس، ثم قام في الثانية ينعي المنصور، ويعلن موته، بعد أن كان موته قد ظل مستوراً عدة أشهر:

الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر شأنًا، وأعظم سلطانًا، وأوضح آيات وبرهانًا، عن أن تنكر العقول توحيدَه، أو تروم تحديده، خالق السماوات والأرض ومالكهما ومدبرهما، الفرد الصمد، الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند، الخالق القدير، الرحمن الغفور، النافذ قضاؤه، الكائن ما يشاؤه، المتقن كل شيء صنعًا، الموسع كل شيء رزقًا، المحيط بكل شيء علمًا. أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأفوض إليه، وأتوكل في كل الأمور عليه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا خيرته من عباده، ونجيه من بريته، وصفوته من المتطهرين، ورسوله إلى كافة العالمين، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين؛ ليلبغ حجة الرب، ويوضع محجة الحق، فأدّى رسالة الله، ورحم ورأف بعباد الله، وصبر على الكبار من مكر الكفار، إلى أن أدال الله للحق على الباطل، والهدي على الأضائل. محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكاها، وأكملها وأنهاها، وأخلدها وأبقاها، وعلى الأئمة المهديين، من عترته الكرام الأبرين، الذين اختارهم للخلافة، وارتضاهم للإمامة، وأكد بوصية الرسل حججتهم، وأوجب في التنزيل طاعتهم، بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين، وعلى أفضل الوصيين، وعلى من أمه سيدة النساء خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم، وعلى أمير المؤمنين، المهدي بالله والقائم بأمر الله سيدي الوري، وإمامي الهدى، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين، وأقام بهما دعوة الدين، وأزهق بحققها باطل المدعين وأكاذيب المتخرصين، وقطع بسيفهما دابر الظالمين، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهما.

اللَّهُمَّ اخْصِصِ الْإِمَامَ الْفَاضِلَ، وَالْوَصِيَّ الْعَادِلَ، وَالْبِرَّ الْفَاضِلَ، وَالغَيْثَ الْوَابِلَ، ذَا الْآيَاتِ الْمَعْجَزَاتِ، وَالْعَزَائِمِ الْنَافِذَاتِ، الْبَاذِلِ نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ فِي حِينِ الْأَزْلِ وَالْكَرْبَاتِ، الصَّابِرِ فِي الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ حَتَّى طَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ جَبَابِرَةِ الْأَعْدَاءِ، عَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ وَنَجِيِّكَ وَصَفِيكَ أبا الطاهر، المنصور بك والمتوكل عليك، والمفوض إليك، العامل بما يرضيك، ويقرب إليك، ويزلف لديدك. الَّذِي فَجَعَلْتَنَا بِفَقْدِهِ، وَأَوْحَدْتَنَا بِبُعْدِهِ، وَأَفْرَدْتَنَا مِنْهُ وَأَوْحَشْتَنَا، فَقَبِلْتَ دَعَاءَهُ، وَأَجَبْتَ نِدَاءَهُ، وَجَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ فِي مَسْتَقَرِّ جَنَّتِكَ، وَسَعَةِ رَحْمَتِكَ. إِنْ الْقَلْقُ وَشِدَّةُ الْحَرْقِ عَلَيْكَ يَا أَبَتَاهُ يَا سَيِّدَاهُ يَا إِسْمَاعِيلَاهُ يَا أَبَا الطَاهِرَاهُ، يَا بَحْرَ عُلُومِ الْأَئِمَّةِ الطَاهِرِينَ، الْهُدَاةِ الْمَهْدِيِّينَ، يَا بَقِيَّةَ أَنْبَاءِ الرَّسُولِ، وَأَبْنَاءِ الْوَصِيِّ وَالطَاهِرَةِ الْبَتُولِ، يَا إِمَامَ الْأُمَّةِ، وَمِفْتَاحَ بَابِ الرَّحْمَةِ، يَا سِرَاجَ الْهُدَى وَشَمْسَ الْوَرَى، وَمَجْلَى الطَّخِيَاءِ، يَا مَخْصُوصًا مِنَ اللَّهِ بِتَعْجِيلِ الْكِرَامَةِ، عَظْمَ وَاللَّهِ عَلَيْنَا الْمَصَابِ بِكَ، وَحُلَّ الْبَلَاءِ، وَعَدَمِ الْعِزَاءِ لِفَقْدِكَ، وَقَصْرَتِ الْأَلْسُنِ عَنْ إِدْرَاكِ إِحْصَاءِ شَمَائِلِكَ، وَتَعْدَادِ مَنَاقِبِكَ، فَوْحِ الَّذِي اخْتَصَّكَ بِكَرَامَتِهِ، وَحَبَاكَ بِجَزِيلِ عَطَائِهِ، وَشَرَّفَكَ بِأَبُوَّةِ رَسُولِهِ، لَوْلَا مَا أَوْعَزْتَ إِلَيَّ بِهِ، وَأَكْدَتَهُ عَلِيٌّ مِنْ الْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ، وَالذَّبِّ عَنْ أُمَّةِ جَدِّكَ رَسُولِ اللَّهِ، وَاسْتِنْقَاذِهِمْ مِنْ غَمْرَةِ الْجَهَالَةِ، وَبِحَارِ الضَّلَالَةِ، وَمَهَاوِي الْفِتَنِ وَمَعَاظِبِ الْمَحْنِ، وَمَا تَقَرَّرَ عِنْدِي، وَرَسَخَ فِي صَدْرِي مِنَ الْجِزَاءِ بِمَقْدَارِ الْوَفَاءِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْهُدَى؛ لَضْرِبَتْ عَلَيَّ وَجْهِي سَائِحًا فِي الْبِلَادِ، قَالِيًا لِلْمَهَادِ، رَاضِيًا بِبَلْغَةِ مِنَ الزَادِ، إِلَى أَنْ يَلْحَقَنِي الْمَوْتُ سَرِيعًا بِكَ، فَأَفُوزُ بِقُرْبِكَ وَرَحْمَةِ بِكَ. لَكِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ وَتَدَبَّرْتُ؛ فَلَمْ أَرَّ لِي وَجْهًا أَسْتَوْجِبُ بِهِ دَرَجَتِكَ، وَاللِّحَاقَ بِشَرَفِكَ، سِوَى الصَّبْرِ وَالِاحْتِسَابِ، فَتَجَلَّدْتُ، وَصَبَّرَنِي رَبِّي فَصَبَرْتُ، وَغَلَبَ عَلَيَّ الْيَقِينُ

فأمسكت، فأقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، الرحمن الرحيم، له الحمد على ما أبلى، والشكر على ما أوى ... إلخ<sup>(١)</sup>.

وأكتفي بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التي وردت في كتاب «سيرة الأستاذ جوذر»، ولعلك تلاحظ أن المعز قد أتى في خطبته هذه ببعض العقائد الفاطمية، من السهل الآن على القارئ أن يدركها، والمهم الآن أن نلاحظ هذه الصنعة الفنية في أسلوب الخطبة؛ فالجمل قصيرة، وتكاد الجملة تكون على وزن وطول الجملة التي تليها، والسجع ظاهر فيها، ويتقل المعز من معنى إلى آخر انتقالاً طبيعياً لا تكلف فيه.

وإذا قرأنا توقيعات المعز التي ضمنها القاضي النعمان بن محمد كتابه «المجالس والمسائرات»، وتوقيعاته التي أرسلها إلى وليه الأستاذ جوذر التي جمعها صاحب «سيرة جوذر» رأينا أن هذه الصنعة الفنية في الكتابة لا تلازم الإمام المعز في توقيعاته، فقل أن نجد السجع، ولا هذا التكلف الذي رأيناه في خطبته، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادي الذي يتحدث به أمام الناس في الشؤون المختلفة، مع سلامة أسلوبه، وفصيح عبارته، مثل توقيعه إلى جوذر ردًّا على رقعة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد كتابه: «وقفنا على رقعتك، ومحل محمد محل مثله ممن صدقت نيته، وقدمت في الجميل صحبته، ونحن نحب أن يسبغ الله نعمنا على من لم يعرفنا، فكيف من لم يعرف إلاننا، ونحن نسعف جعفرًا لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله»<sup>(٢)</sup>.

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز؛ فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة، ويميزون بين الجيد منها والردىء، بل تُنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تُنسب إلى المستنصر

(١) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبتي).

(٢) المصدر السابق.

الفاطمي، والتي عُرفت «بالرسائل المستنصرية»<sup>(١)</sup>، والتي قيل إنها الرسائل التي تبودلت بين المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن، فمؤرخو الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه؛ ولكني - بعد أن اطلَّعتُ على هذه الرسائل - أستطيع أن أقول: إن أسلوبها أقرب إلى أسلوب المؤيد في الدين داعي الدعاة.

وكذلك نقول عن «رسالة الهداية الأمرية»<sup>(٢)</sup> التي ينسبها الإسماعيلية إلى الإمام الأمر بأحكام الله، فقد شك الأستاذ آصف فيظي ناشر هذه الرسالة في نسبتها إلى الإمام الأمر، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين كانوا في عصر الأمر.

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت، وتعددت ألوانها وفنونها، وتطور الكتابة يتبع دائماً تطور الحياة العلمية، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقي في الكتابة، وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة.

(١) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن.

(٢) الرسالة الموسومة بالهداية الأمرية في إبطال دعوى النزارية، تحقيق الأستاذ آصف علي صغر فيظي (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند).

## الفصل الثاني كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي: «لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه، فارتفع بهم قدره، وشاع ففي الآفاق ذكّره، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفضل الكتّاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي»<sup>(١)</sup>. هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي، «وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر، ولا غرو في ذلك؛ إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة»<sup>(٢)</sup>. ولمكانته وكفايته كان يُلقَّب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف<sup>(٣)</sup>، كما كان الخليفة يستشيره في أكثر أموره، ولا يجب عنه متى قصد المثول بين يديه<sup>(٤)</sup>. وقد تحدث ابن منجب الصيرفي -أحد كتابهم- عن الصفات التي يجب أن يتحلّى بها رئيس ديوان الإنشاء، نلخص أهمها فيما يأتي:

- ١- أن يكون ذا دين وورع وأمانة.
- ٢- أن يكون دينه الإسلام.
- ٣- أن يكون على مذهب الملك.
- ٤- أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة، وبحيث لا يوجد أحد في عصره يفوقه في هذا الفن.

(١) صبح الأعشى: ج ١، ص ٩٦.

(٢) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٢٤٤، وصبح الأعشى: ج ١، ص ١٠٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

- ٥- أن يكون مضطلعاً بفنون الكتابة، عالماً بأصولها وفصولها.
- ٦- أن يكون حافظاً لكتاب الله تعالى، وحافظاً للأشعار، راوياً للكثير منها.
- ٧- أن يكون أصيلاً في قومه، رفيعاً في حسبه<sup>(١)</sup>.

هذه أهم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء، فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان؟ يؤسفني أن أقول: إن الفاطميين لم يأبها بهذه الشروط والصفات التي اقترحها أحد كتابهم في كتاب قدّمه لوزير من وزرائهم، ولكن ابن منجب كان من كتاب القرن السادس للهجرة، في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم، ولا سيما قوة الصليبيين، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام دين رئيس الديوان، «وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسرار من يخالف شريعة الإسلام؛ لقرب دار العدو خذله الله وأباده»<sup>(٢)</sup>. فإن وجود الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين، جعل ابن منجب يضطر إلى أن يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلماً، أما قبل عهد الصليبيين، ومنذ قامت دولة الفواطم في مصر، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة، كما كان يتولاه بعض المسلمين.

ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا الديوان من أهل الذمة، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز، والرئيس فهد كاتب الحاكم وغيرهما، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودي في عهد الحافظ. معنى هذا أن الفاطميين لم يأبها بمذهب الكاتب أو دينه، بل لا أعالي إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيراً ما يستعينون بالذميين في دولتهم، وهذه ظاهرة سجّلها

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب: ص ٩٤ وما بعدها.

(٢) قانون ديوان الرسائل لابن منجب: ص ٩٥.

المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية، ولكن ليس معنى ذلك أن الفاطميين أبعدهوا المسلمين عن الدواوين، فإن الكثرة الساحقة من كتاب الدواوين كانوا من المسلمين، فإذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي وردت في صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين، فقد جاء في هذا الكتاب: «فكتب للعزیز بالله بن المعز، أبو المنصور بن نسطورس النصراني، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر النهركي، ثم كتب بعده لابنه الظاهر. وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين بن خيران، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة، وأبو سعيد العميدي. وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة الحلبي، إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة، فكتب بعده ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي، والقاضي كافي القضاة محمود بن القاضي الموفق أسعد بن قادوس، وابن أبي الدم اليهودي، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره، القاضي الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد، وبه تخرج القاضي الفاضل البيساني، ثم أشرك العاضد مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، القاضي جلال الملك محمود الأنصاري، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق بن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم<sup>(١)</sup>.

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى، ليست عرضاً لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله، كما أن الذي نراه في كتب التراجم وفي

(١) صبح الأعشى: ج ١، ص ٩٦.

المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى؛ إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهر القائد كان يلي ديوان الإنشاء في عهد العزيز<sup>(١)</sup>، وأنه ظل في منصبه إلى أيام الحاكم، ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري، ثم جاء بعده الكافي بن عبدون النصراني، ثم صرف وقرّر بدله أحمد بن محمد القشوري الكاتب، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافي، وبعده حسين بن طاهر الوزان<sup>(٢)</sup>. ونفهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك بن سعيد الفاروقي كان له النظر أيضًا في المكاتبات في عصر الحاكم<sup>(٣)</sup>. وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر<sup>(٤)</sup>، ويذكر المؤيد في الدين لهبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣ هـ<sup>(٥)</sup>. ويذهب المقرئزي إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة<sup>(٦)</sup>، وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدي الحسيني كان على رأس ديوان الإنشاء في عهد الأمر<sup>(٧)</sup>.

وهكذا نستطيع أن نعرف عددًا آخر من الكتاب الذين ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم القلقشندي، كما نستطيع أن نستخرج أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء، ولكننا لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في الكتابة؛ لأن آثارهم فُقدت ولم يبق لنا إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكون رأيًا صحيحًا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر، بحيث

(١) خطط المقرئزي: ج ٣، ص ٢٢.

(٢) اتعاظ الحنفا: ص ٣٠٠ وما بعدها.

(٣) الولاة والقضاة: ص ٦٠٦.

(٤) ابن خلكان: ج ١، ص ٣٥٨.

(٥) السيرة المؤيدية (من مطبوعات دار الكاتب المصري).

(٦) خطط المقرئزي: ج ٣، ص ٢٥٧.

(٧) الخطط: ج ٤، ص ٧٨.

نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من كتاباتهم، فأول خصلة من هذه الخصال، هي أن الكتاب جميعًا التزموا السجع في كتاباتهم، نرى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوّض صلاح الدين الأيوبي أركانها، نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي<sup>(١)</sup>، وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهبي، وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس<sup>(٢)</sup>، وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم<sup>(٣)</sup>، وفي رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي، وفي كتابات ابن خيران، ونستمر في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن الشخباء، ثم في رسائل القاضي الفاضل.

وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب، وهي الاقتباس من القرآن الكريم، فكانوا أحيانًا يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن، أو يقتبسون بعض معاني القرآن، متأثرين بهذا كله تأثرًا واضحًا في جميع ما خلف لهم من كتابات.

وخصلة ثالثة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم، فهم يغرِقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني، ويولعون باستخدام الجناس، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظير؛ فإذا بك تجد كتاباتهم تتألف من جمل قصيرة في الغالب، والجملة تتبع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها، ويتقل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعدوبة، فلا ينتقل بك انتقالًا فجائيًا، مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته، كما يدل أيضًا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوي جميع الكتاب، على أن هذه الخصال التي عُرفت في العصر

(١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٥١.

(٢) النجوم الزاهرة: ج ٤، ص ١٢٤.

(٣) الخطط: ج ٣، ص ٣٣.

الفاطمي عرفت أيضًا في رسائل ابن عبد كان، فلا غرابة إذا قلنا: إن أثر ابن عبد كان في كتاب مصر كان قويًا شديدًا، وإن فنه الذي عُرف به في العصر الطولوني قد ظهر واضحًا في العصر الفاطمي، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله مبالغتهم في كل شيء في حياتهم. كما أن هذه الخصال نفسها هي التي عُرفت بها كتابات القاضي الفاضل، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرَّج، والعجب حقًا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهبًا خاصًا عُرف به في الكتابة، وأن له مدرسة تتميز بخصائصها وطرائقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضي الفاضل، ونحن نلتبس هؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا؛ لأنهم كانوا تبعًا في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل، وتناسوا أساتذته وخصائص مذهبهم التي أخذها عنهم، وجاء المحدثون يتبعون القدماء في أحكامهم دون درس وبحث.

وخصلة أخرى تتميز بها رسائل كتاب الفاطميين، ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم، فقد دفعتهم عقيدتهم الدينية، وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت، ويتعمدون دائمًا أن يذكروا أن محمدًا جد الأئمة، فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم، وكل سجل من سجلاتهم، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية، ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين

عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين؛ بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم. وكما كانوا يبدؤون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة، كانوا يختتمون هذه الكتابات والسجلات، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتّابهم، ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من ظهورها في رسائلهم، والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان أي ملك في عصرنا الحديث، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة.

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثراً يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم، أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد، ويثولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع مذهبهم الفاطمي، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل مآتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية، هي ما كتبه القائد جوهر الصقلي فاتح مصر، وتلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه وعلى إمامه

للمصريين، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي دبرتها يراعة هذا القائد، فقد كان جوهر كاتبًا للمعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب<sup>(١)</sup>. ويحدّثنا المقرئزي أن القائد جوهرًا كان كاتبًا بليغًا، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة رُفعت إليه بمصر:

سوء الاجترام أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الإنعام أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب؛ لأنكم بدأتُم فأسأتم، وعدتم فتعديتُم، فابتداؤكم ملوم، وعودكم مذموم، وليس بينهما فرجة إلا تقتضي الذم لكم، والإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم<sup>(٢)</sup>.

فتوقيع جوهر القائد على هذا النحو يدل على أن جوهرًا كان على مقدرة وكفاية في فن الكتابة، كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب. فهذه الجملة القصيرة المسجوعة، وهذه المعاني المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى، ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي، بل كاد يسود العالم الإسلامي، فالزينة اللفظية في هذه القرون كانت حلية الكتاب جميعًا.

أمّا الأمان الذي هو أول نص حُفِظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم: إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي، وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله

(١) سيرة الأستاذ جوذر (مخطوط).

(٢) خطط المقرئزي: ج ٢، ص ٢٠٧.

بقاه، وأبو إسماعيل الرسي أيده الله، وأبو الطيب الهاشمي أيده الله، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزّه الله، والقاضي أعزّه الله، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابًا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم، فعرفتُم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه، وحسن نظره لكم، فلتحمدوا الله على ما أولاكم، وتشكروه على ما حماكم، وتدأبوا فيما يلزمكم، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم، العائدة بالسعادة عليكم، وبالسلامة لكم، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة، والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم... إلخ<sup>(١)</sup>.

ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه، وما على الحكومة الجديدة من تعهدات نحو الشعب المصري، ويُحِيلُ إلَيَّ أن كاتب هذا النص لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يُظهِرَ صناعته الفنية في المزوجة بين الجمل والتزام السجع في كل فقراته، وإن كان الكاتب حَاوَلَ أن يرتفع بأسلوبه، وأن يجعله أسلوبًا أدبيًا.

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر، رأينا رسالة أخرى للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي، ونحن لا ندرى مَنْ الذي كتب هذه الرسالة عن المعز، فالرسالة التي وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة، ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي، حتى نستطيع أن نميِّز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله، فقد جاء في هذه الرسالة:

من عبد الله ووليه، وخيرته وصفيه، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين، وسلالة خير النبيين، ونجل علي أفضل الوصيين، إلى الحسن بن أحمد.

(١) اتعاظ الحنفا: ص ١٤٨ (طبعة دار الفكر العربي).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، رَسُومِ النُّطْقَاءِ، وَمِذَاهِبِ الْأُمَّةِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَمَسَالِكِ الرُّسُلِ وَالْأَوْصِيَاءِ السَّالِفِ وَالْآنْفِ مِنَّا. صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى آبَائِنَا، أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ، فِي مَتَقَدِّمِ الدُّهُورِ وَالْأَكْوَارِ، وَسَالِفِ الْأَزْمَانِ وَالْأَعْصَارِ، عِنْدَ قِيَامِهِمْ بِأَحْكَامِ اللَّهِ، وَانْتِصَابِهِمْ لِأَمْرِ اللَّهِ، الْإِبْتِدَاءِ بِالْإِعْذَارِ، وَالْإِنْتِهَاءِ بِالْإِنْذَارِ، قَبْلَ إِنْفَازِ الْأَقْدَارِ، فِي أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالْآصَارِ، لِتَكُونَ الْحُجَّةَ عَلَى مَنْ خَالَفَ وَعَصَى، وَالْعُقُوبَةَ عَلَى مَنْ بَايَنَ وَغَوَى، حَسْبَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مَعْزِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وَ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وَ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾.

أَمَّا بَعْدُ؛ أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّا نَحْمَدُ اللَّهَ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ، وَنَمَجِّدُهُ بِأَحْسَنِ مَمَاجِدِهِ، حَمْدًا دَائِمًا أَبَدًا، وَمَجْدًا عَالِيًّا سَرْمَدًا، عَلَى سَبُوحِ نِعْمَائِهِ، وَحَسَنِ بَلَائِهِ، وَنَبْتَغِي إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ بِالتَّوْفِيقِ وَالْمَعُونَةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَالتَّسْهِيدِ فِي نَصْرَتِهِ، وَنَسْتَكْفِيهِ مِمَّا يَلِيهِ الْهَوَى، وَالزِّيغَ عَنِ قِصْدِ الْهَوَى، وَنَسْتَزِيدُ مِنْهُ إِتِمَامَ الصَّلَوَاتِ وَإِفَاضَاتِ الْبَرَكَاتِ، وَطِيبِ التَّحِيَّاتِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ الْمَاضِينَ، وَخَلْفَائِهِ التَّالِينَ، مِنَّا وَمِنْ آبَائِنَا الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ الْمُتَخَبِّينَ، الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَكَانُوا بِهِ يَعْدِلُونَ.

أَيُّهَا النَّاسُ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ لِيَذْكَرَ مَنْ يَذْكَرُ، وَيُنْذِرَ مَنْ أَبْصَرَ وَاعْتَبَرَ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ إِذَا أَرَادَ أَمْرًا قَضَاهُ، وَإِذَا قَضَاهُ أَمْضَاهُ، وَكَانَ مِنْ قَضَائِهِ فِينَا قَبْلَ التَّكْوِينِ أَنْ خَلَقْنَا أَشْبَاحًا، وَأَبْرَزْنَا أَرْوَاحًا، بِالْقُدْرَةِ مَالِكِينَ، وَبِالْقُوَّةِ قَادِرِينَ، حِينَ لَا سَمَاءَ مَبْنِيَّةَ، وَلَا أَرْضَ مَدْحِيَّةَ، وَلَا شَمْسَ تَضِيءُ، وَلَا قَمَرَ يَسْرِي، وَلَا كَوْكَبَ يَجْرِي، وَلَا لَيْلَ يَجْنُ، وَلَا أَفْقَ يَكْنُ، وَلَا لِسَانَ يَنْطِقُ، وَلَا جَنَاحَ يَخْفِقُ، وَلَا لَيْلَ وَلَا

نهار، ولا فلك دوّار، ولا كوكب سيّار، فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور، وأمر في القدم مبرور، فعند تكامل الأمر، وصحة العزم، وإنشاء الله جلّ وعزّ المنشآت، وإبداء الأمهات من الهيولات، طبعنا أنوارًا وظلمًا، وحركة وسكونًا، وكان من حكمه السابق في علمه، ما ترون من فلك دوّار، وكوكب سيّار، وليل ونهار، وما في الآفاق من آثار معجزات، وأقدار باهرات، وما في الأقطار من الآثار، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع، من كثيف ولطيف، وموجود ومعدوم، وظاهر وباطن، ومحسوس وملمس، ودانٍ وشاسع، وهابط وطالع، كل ذلك لنا ومن أجلنا، دلالة علينا، وإشارة إلينا، يهدي به الله من كان له لبُّ سجيح، ورأي صحيح، قد سبقت له الحسنى، فدانَ بالمعنى... إلخ<sup>(١)</sup>.

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية، بحيث نستطيع أن نقول: إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتّاب الفاطميين، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين، فالاصطلاحات الفاطمية «الناطق» و«الوصي»، ثم حديثه عن خلق الأشباح - أي الممثلات - قبل خلق العالم، وأن الأئمة أول الفكرة؛ أي أنهم مثل للعقل الأول «المبدع الأول»، وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل. كل هذه من المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تفيد المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة، بل هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية، وترينا

(١) اتعاظ الحنفا: ص ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي).

تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور اليمى الحسين بن حوشب، الذي وُجد قبل عصر المعز؛ أو كتب القاضي النعمان، وجعفر بن منصور، والمروزي، الذين كانوا في عهد المعز، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز. فمؤرخ العقائد الفاطمية يجد مجالاً للبحث في هذه الرسالة الهامة.

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة. انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة:

فأما أنت أيها الغادر الخائن، الناكث البائن، عن هدي آباءه وأجداده، المنسلخ عن دين أسلافه أنداده، والموقد لنار الفتنة، والخارج عن الجماعة والسنة، فلم أغفل أمرك، ولا خفي عني خبرك، ولا استتر دوني أشرك، وإنك مني لبعين ومسمع، كما قال الله عز وجل: ﴿إني معكم أسمع وأرى﴾، و﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾، فعرفنا على أي رأي أصلت، وأي طريق سلكت، أما كان لك بجدك أبي سعيد أسوة، وبعمل أبي طاهر قدوة، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم، أكنت غائباً عن ديارهم وما كان من آثارهم.

فأنت تقرأ هذه القطعة فتشعر أنك تقرأ رسالة ابن عبد كان التي كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عندما ثار على أبيه، فهذه الجملة القصيرة المسجوعة، والاقْتباسات من القرآن الكريم، وضم الجملة إلى ما يشاكلها؛ كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان، ونقلها تلاميذه عنه، واستمرت طوال العصر الفاطمي.

ووصلت إلينا رسالة كُتبت في عهد العزيز بالله، كتبها إلى عامله بمصر يشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٣٦٧هـ، ونحن لا نعرف

أيضاً كاتب هذه الرسالة، ولكن لا شك في أنها كُتبت في العصر الفاطمي؛ لما فيها من الخصائص الفاطمية التي تحدثنا عنها من قبل، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفني، فقد جاء في هذه الرسالة<sup>(١)</sup>:

من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين، إلى حسين بن القاسم. سلام عليك، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد نبيه ورسوله، صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار، الطاهرين المطهرين وسلم تسليماً.

أمّا بعد؛ فالحمد لله الملك العظيم، العليم الحليم، ذي الطول الكريم، والمن الجسيم، والعز المديد، والمحال الشديد، ولي الحق ونصيره، وماحق الباطل ومبيره، المتكفل بالنصر والتمكين، والتأييد والتحصين، لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفين، الذايين عن دينه، والقائمين بحقه، والدايين على توحيدِهِ، الحاكم بإعلاء كلمتهم، وإفلاج حججهم، وظهورهم على أعدائه المشاقين له، الضالين عن سبيله، الملحدّين في آياته، الجاحدين لنعائِهِ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على مَنْ عصاه فحاده، وصد عنه فناده، القاضي بالعواقب الحسنَى، والفوز والنعمة، لمن أسلم وجهه له، وتوكل عليه في أمره، وفوّض إليه حكمه، كل ذلك فضلاً منه وعدلاً، وقضاء فضلاً، وهو الحكم العدل الذي ﴿لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾.

فأنت ترى في هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن محمداً جد الإمام العزيز، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذابون عن دين الله، فهذه كلها من المعاني الفاطمية التي لا يقول بها غيرهم، فإذا مضينا في قراءة الرسالة رأينا الجزء الأول منها يجري هذا المجرى الذي رأيناه في القطعة السابقة، حتى إذا

(١) الرسالة بأكملها في صحیح الأعشى: ج ٦، ص ٤٣٤ وما بعدها.

وصلنا إلى الغرض من الرسالة، وهو الحرب مع القرمطي رأينا الكاتب يفصل حركات العزيز وانتقالاته إثر عدوه، حتى قال الكاتب:

فبعدهما طمع، قاده الحين الغالب، والقدر الجالب، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله، ومنهل وباله، ورحل من بيسان رحيل من استعجلته البلية، واستدعته الرزية، فحلّ بموضع يُعرف بكفر سلام، كافرًا بحدود الإسلام، متجرئًا على الله، محاربًا لنجل نبيه عليه السلام، وأقام بها متلدّدًا في حيرته، مترددًا في سكرته، ثم استجره شؤمه، وقاده حينه ولؤمه، إلى أن رحل فنزل بكفر سابا البريد، فأنبأه اسمها بما حل به من السبي المييد، والخزي الشديد، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المأكولة، ونصب أعلامه المخذولة، وأقام صفوفه المغلولة، وأظهر آلة الحرب إقدامًا، وأخفى عن اللقاء إحجامًا... إلخ.

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب في هذه الرسالة، التي لا تكاد تختلف في أسلوبه عن أسلوب الرسالة السابقة.

وفي عهد الحاكم الذي عُرف بنزعاته وتقلباته في حكمه، كثرت السجلات والأمانات في عهده، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير، ونقل المقريري عن المسيحي صديق الحاكم وجليسه: «في سنة خمس وتسعين وثلاثمائة أمر الحاكم بعمل شونة مما يلي الجبل مُلئت بالسنت والبوص والحلفاء، فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد، وظنّ كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عُمِلت لهم، ثم قويت الإشاعات، وتحدث العوام في الطرقات، أنها للكتاب وأصحاب الدواوين وأسبابهم، فاجتمع سائر الكتاب بأجمعهم في خامس ربيع الأول، ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون، ويضجون، ويسألون العفو

عنهم<sup>(١)</sup>. ويروي المقرئزي أيضاً أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق<sup>(٢)</sup>، ومما أورده المقرئزي صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو:

هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله، إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين، وأبينا علي خير الوصيين، وآبائنا الذرية النبوية المهديين، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال، والدم والمال، لا خوف عليكم ولا تمديد بسوء إليكم، إلا في حد يقام بواجبه، وحق يُؤخذ بمستوجبته، فيوثق بذلك؛ ليعول عليه إن شاء الله تعالى. وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة والحمد لله، وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وعلي خير الوصيين، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة، وسلم تسليماً كثيراً<sup>(٣)</sup>.

كما ورد في صبح الأعشى<sup>(٤)</sup> سجل بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله، وفي هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التي نراها في كتاب الأمان السابق، ومما جاء في هذا السجل: أمره أن يتقي الله عز وجل حق التقوى، في السر والظهر والنجوى، ويعتصم بالثبات واليقين والنهي، وينصم من الشبهات والشكوى والهوى، فإن تقوى الله تبارك وتعالى، موئل لمن وئيل إليها حصين، ومعقل لمن اقتفاها أمين، ومعول لمن عول عليها مكين، ووصية الله التي أشاد بفضلها، وزاد في سناها، بما عهد أنه من أهلها، فقال تبارك وتعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾.

(١) خطط المقرئزي: ج ٣، ص ٣٢.

(٢) المصدر نفسه: ج ٣، ص ٣٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) صبح الأعشى: ج ١٠، ص ٣٨٥.

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذي سطر هذه السجلات، وكتب الأمان التي صدرت في عصر الحاكم؛ لأن ديوان الإنشاء في عهده تداوله عدد كبير منهم، بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم في الديوان، واستمر الأمر في غموض، ولعل أول كاتب في هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولي الدولة ابن خيران.

### ابن خيران:

أمّا هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن علي بن خيران، ولُقّب بولي الدولة، ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولي ديوان الإنشاء بعد أبيه في عهد الظاهر<sup>(١)</sup>، ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويهِ ياقوت: «كان أبوه أيضاً فاضلاً بليغاً، أعظم قدرًا من ابنه وأكثر علمًا»<sup>(٢)</sup>. كذلك لا نعرف متى ولي والده ديوان الإنشاء، ومتى ولي الابن بعده، ولكن المقرئ يحدّثنا في خطه أن أبا الحسن عمار بن محمد - وكان يلي ديوان الإنشاء، واستوزره الحاكم، وهو الذي تولى البيعة للظاهر - قُتل في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين، وكان يتولى الشرطة، ثم ولي ديوان الإنشاء بعد ابن خيران<sup>(٣)</sup>. ويُجَيَّلُ إلى أن ابن خيران المذكور في نص المقرئ هو الأب؛ لأن ولي الدولة ظل في منصبه حتى شاهد عصر المستنصر، ومع ذلك فنص المقرئ يختلف عن نص ياقوت؛ إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن الابن حلَّ محل أبيه في ديوان الإنشاء، على حين يذهب المقرئ إلى أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذي ولي الديوان بعد ابن خيران، ولا نستطيع

(١) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٥ (طبعة فريد رفاعي).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) خطط المقرئ: ج ٢، ص ١٦٧.

أن نرجح إحدى الكفتين؛ لأنَّ المصادر التي بين أيدينا قليلة، ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر.

ومهما يكن من شيء فإن ولي الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء للظاهر، ثم للمستنصر، ويحدثنا المقرئ: أنه في سنة أربع عشرة وأربعمائة قرَّر الشريف الكبير العجمي، والشَّيخ نجيب الدولة الجرجاني، والشَّيخ العميد محسن بن بدوس، مع القائد معضاد، ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم، وكانوا يدخلون كل يوم خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة، والظاهر مشغول بلذاته، وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة، وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي الدعاة ونقيب نقباء الطالبين وقاضي القضاة، ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين يوماً مرة، ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر ألبتة<sup>(١)</sup>. وإذن فقد كان ولي الدولة ابن خيران صاحب ديوان الإنشاء في سنة ٤١٤ هـ. ويقول ابن خلكان عن الشاعر أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة وأربعمائة، وهو على حالة من الضرورة وشدة الفاقة، وكفله ولي الدولة أبو محمد أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر، وهذا ابن خيران كان متولي كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم<sup>(٢)</sup>. فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران كان في ديوان الإنشاء سنة ٤١٦ هـ.

ويروي المقرئ أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر: «الفقر مر المذاق، والحاجة تذلل الأعناق، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق، فليجروا على رسومهم في الإطلاق، ما عندكم ينفد وما عند الله باق»<sup>(٣)</sup>. فابن خيران إذن

(١) خطط المقرئ: ج ٢، ص ١٦٨.

(٢) ابن خلكان: ج ١، ص ٣٥٨.

(٣) خطط المقرئ: ج ٢، ص ٢٣٨.

كان صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضًا. ويروي ياقوت: أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعهودات وكتب التقليدات، رسوم يستوفيهما من كل شيء بحسبه، وكان شابًا حسن الوجه، جميل المروءة، واسع النعمة، طويل اللسان، جيد العارضة، وسلم إلى أبي منصور بن الشيرازي رسول أبي كاليجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضي أبي القاسم وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد، ويستشير في تخليدهما دار العلم، لينفذ بقية الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتضي واستجيد<sup>(١)</sup>. وعلى الرغم من أن شعره فُقد ولم يَبَق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة، فإننا نستطيع أن نقول: إن ابن خيران كان معجبًا بنفسه، يكثر الإشادة بشعره وبشهره. انظر إليه وهو يقول:

الله أجرى منه بحرًا زاخرًا  
وإذا نثرت نثرت درًا فاخرًا<sup>(٢)</sup>

للمعجزات، ومفرقي للتاج  
يشقى بها الغاوي ويحظى الراجي<sup>(٣)</sup>

أن لسانها منها أقطع  
بأنني فارسه المصقع<sup>(٤)</sup>

ولقد سموت على الأنام بخاطر  
فإذا نظمت نظمت روضًا حاليًا  
ويقول مرة أخرى:

خلقت يدي للمكرمات، ومنطقي  
وسموت للعلياء أطلب غاية  
وهو القائل أيضًا:

قد علم السيف وحد القنا  
والعلم الأشرف لي شاهد

(١) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٥.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٨.

(٣) المصدر السابق: ج ٤، ص ١٠.

(٤) المصدر السابق: ج ٤، ص ١٢.

من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فُتِنَ بشعره وبنشره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منطقه يأتي بالمعجزات، ويخيل إليّ أن إعجابَه بنفسه لم يكن في الشعر أو في الثر، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والإعجاب بنفسه، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بحياته، ولعل القصة التي أوردها ياقوت عنه تدل على ذلك كله، قال ياقوت: كان ابن خيران قد خرج إلى الجيزة متنزهًا، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة، وقد احتفوا به يمينًا وشمالًا، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها، وظهور جزعهم منها، قنع بغلته، فولجها حتى قطعها، وانثنى قائلاً مرتجلاً:

ومخاضة يلقي الردى من خاضها      كنت الغداة إلى العدا خواضها  
وبذلت نفسي في مهاول خوضها      حتى تنال من العدا أغراضها<sup>(١)</sup>

وعلى الرغم من أن ابن خيران ظلّ مدة طويلة في ديوان الإنشاء، وأن له رسائل كثيرة جمعها في حياته، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التي كتبها توقيعًا عن المستنصر، ويروي ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن: «أن الرسائل صالحة سليمة، قد انتزعت من المنظوم على خلوة إلا من الوزن والقافية».

وتوفي ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة.

وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدي ديوان الإنشاء للمستنصر في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة، وكان نحوياً لغويًا، وصنّف عدة كتب منها: كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات، وكتاب

(١) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٦.

الإرشاد إلى حل المنظوم، وكتاب الهداية إلى نظم المشور، وكتاب انتزاعات القرآن، وكتاب العروض، وكتاب القوافي<sup>(١)</sup>. فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدي كان متأثراً بهذه الثقافة اللغوية النحوية، وأرجح أن كتابته في رسائله كانت متأثرة أيضاً بهذه الألوان من العلوم التي حذقها فصنف فيها هذه الكتب، مضافاً إليها خصائص الكتابة في مصر التي تحدثنا عنها. وقد أورد ياقوت له بيتين من الشعر هما:

إذا ما ضاق صدري لم أجد لي      مقرر عبادة إلا القرافة  
لئن لم يرحم المولى اجتهادي      وقله ناصري لم ألق رافة

ولعلك تلاحظ هذا الجناس بين «القرافة» و«ألق رافة»، ولا ندري مقدار استخدامه لهذه المحسنات البديعية في كتابته؛ لأننا لم نعثر على شيء منها، ولم يعمر العميدي طويلاً في الديوان؛ إذ توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة هـ.

ثم توالى الكتاب بعده على ديوان الإنشاء، نذكر منها أبا الفرج الذهلي، وأبا الطاهر النهركي، وولي الدولة موسى بن الحسن وغيرهم، إلى أن ولي المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٤٤٣ هـ، وقد تحدثنا طويلاً عن المؤيد في الدين، ونكتفي الآن بأن نعرض صورة من رسائله التي حفظها في كتابه «السيرة المؤيدية»، من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لمؤازرة البساسيري في حركته المعروفة:

### رسالة من كتاب المؤيد:

ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بمطلعه، والسكون إلى علم مودعه، من ذكر شمول السلامة والسعادة، جعلها الله متصلتي الأسباب، منهلتي السحاب، وفهمته. فأما ما ذكر جواباً عن قولي حين نهيت أن

(١) معجم الأدباء: ج ١٧، ص ٢١٢.

أرعى تاج الأمراء سمعي، لقيني بوجه التفتير في العزم، أنني ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون منه في ذلك، فإن خاطبني على شيء منه خاطبني بلسان، كل الناس به ناطقون، وعليه متفقون، لو كان كلامهم فيّ ناجعاً، ومني موقع القبول واقعاً، إن الحضرة العالمة - حرس الله عزها - عارفة بمن يلقي ذلك إليّ على جهة الإشفاق وهو غل، والنصيحة وهو غش، وإنها لو شئت أن تسميهم لي أو تصدر كتبهم إلي لفعلت وذكرت ورود مكاتباتهم يبذلون الخدمة في هذا الوجه، ولكنها - حرس الله عزها - تتجنب ما يوزع سري، فمن أجل ذلك تكف، فقد عرفته، ومسلم للحضرة العالمة - حرس الله عزها - ثقبوب الرأي والبصيرة والألمعية والمحاسن التي توحدتها الله به. فأما علم الغيب فقد انتفى منه النبي صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب: ﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾، ولعله نما إليها - حرس الله عزها - ذكر رجل أو رجلين تكلمنا بذلك، هما قليل من كثير، ناظروني على ذلك، وقبحوا عليّ فعلي كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذٍ، ثم في عامة الطريق... إلخ<sup>(١)</sup>.

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصرياً؛ إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر، فلم يتأثر بمدرسة الكتاب المصريين، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازوري، وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء: «معلوم ما كان لمتولي هذا الديوان من الجاه الواسع والرزق السني الكثير، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة، فإن آثارهم في صناعتهم حاضرة موجودة، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والرديء،

(١) السيرة المؤيدية: ص ١٠٥ (طبعة دار الكاتب المصري).

والضعيف في الصناعة والقوي، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى اليوم مقياسة إليّ، فإن كنت ممن يجري في حلبتهم فرسه، ويطول نحو أمرهم باعه، فأنزلي منزلتهم من الجاه والمال، وإلا فقل لي ما أنت مثلهم، ولا في آفاقهم، فقد رضيتك حكماً، وجئت لحكمك مستسلاً<sup>(١)</sup>. ولكن لا ننسى أن الذي يقول ذلك هو المؤيد في الدين، الذي عُرف بغروره وطموحه<sup>(٢)</sup>.

وكان الذي ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفره إلى العراق في حركة البساسيري، هو القاضي القضاعي الذي تحدثنا عنه في فصل المؤرخين، ولكن لم تصل إلينا كتاباته<sup>(٣)</sup>، وناب عنه أيضاً أبو الحسن علي بن الأنباري الذي ولي الوزارة بعد ذلك سنة ٤٥٧ هـ<sup>(٤)</sup>. ثم اختلف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تُحفظ آثارهم، إلى أن نلتقي باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر؛ أمّا الأول فهو أبو الفرج الموفقي الذي وصفه العماد بقوله: «أحد كتّاب مصر من الطبقة الأولى»<sup>(٥)</sup>. ولكن العماد لم يحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر في وصف ناعوة. أمّا الكاتب الثاني فكان معاصراً للموفقي والمؤيد، وكان بينه وبين الموفقي بعض الرسائل، وهو ابن الشخباء.

### ابن الشخباء:

أبو علي الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء، ولُقّب بالمجيد ذي الفضيلتين، وصفه العماد بقوله: «مجيد كنعته، قادر على ابتداع الكلام ونحته، له الخطب

(١) السيرة المؤيدية: ص ٩٤.

(٢) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين.

(٣) السيرة المؤيدية: ص ١٠٣.

(٤) الإشارة إلى من نال الوزارة: ص ٥٢، وأخبار مصر لابن ميسر: ص ٣٣.

(٥) الخريدة: ورقة ٥.

البديع، والملح الصنيعة»<sup>(١)</sup>. وقال ياقوت عنه: «أحد البلغاء الفصحاء الشعراء، له رسائل مدونة مشهورة»<sup>(٢)</sup>. ووصفه ابن خلكان بقوله: «صاحب الخطب المشهورة، والرسائل المحبرة، كان من فرسان النثر، وله فيه اليد الطولى»<sup>(٣)</sup>. ويقول ابن بسام في ذخيرته: «كان من البلغاء الأفراد، وأبهر نجوم تلك البلاد، طلوعاً من ثنانيا الأدب، واجتناء لخبايا لسان العرب، فقد كاشف حقائقها، واستخرج دقائقها، وأحرز مسبقها وسابقها»<sup>(٤)</sup>. إذن تكاد تُجمع هذه المصادر على علو كعبه في صناعة الكتابة، وكفايته فيها، حتى قيل: إن القاضي الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه، وأنه كان يستحضر أكثره<sup>(٥)</sup>، وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضي الفاضل: إنه تلميذ ابن الشخباء؛ لأن كان يحدو حدوه في الصناعة. لم يكن ابن الشخباء مصرياً بل كان من عسقلان، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلدًا في فلسطين، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر الطولوني، واستمرت تابعة لمصر، خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى؛ فلا غرو أن رأينا ابن الشخباء العسقلاني النشأة، يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشئوا وترعرعوا في مصر، بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية. إلا أن ابن الشخباء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفضله، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله،

(١) الخريدة: ورقة ١٤.

(٢) معجم الأدباء: ج ٩، ص ١٥٣.

(٣) ابن خلكان: ج ١، ص ١٣٣.

(٤) الذخيرة: القسم الرابع، ورقة ١٨٣ (نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة).

(٥) ابن خلكان: ج ١، ص ١٣٣.

ويُخِيلُ إِلَيَّ أَنْ ابْنَ الشَّخْبَاءِ كَانَ عَلَى عِلْمِ تَامِ بَحْلِ مَا كَانَ يَحِيطُ بِالْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ، حَافِظًا لِأَشْعَارِهِمْ وَحُكْمِهِمْ، مَتَمَكِّنًا مِنْ لُغَتِهِمْ، وَيُظْهِرُ ذَلِكَ فِي رِسَالَتِهِ الَّتِي أَرْسَلَهَا إِلَى أَبِي الْفَرَجِ الْمَوْفِقِيِّ، ففِيهَا يَقُولُ:

وَصَلَّتْ رَقْعَةٌ مَوْلَايَ وَالصَّبْحُ قَدْ سَلَ عَلَى الْأَفْقِ مَقْضِبُهُ، وَأَزَالَ بِأَنْوَارِ  
الْغَزَالَةِ غَيْبَهُ، فَكَانَتْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ صَبْحَ الْأَدَابِ وَنَهَارَهَا، وَثَمَا الْبَلَاغَةَ  
وَأَزْهَارَهَا، قَدْ تَوَشَّحَتْ بِضُرُوبِ مِنَ الْفَضْلِ تَقْصِرُ قَاصِيَةَ الْمَدَى، وَيَجْرِي بِهِ فِي  
مَضْمَارِ الْأَدَبِ مَفْرَدَهُ.

فَكَانَ رَوْضَ الْحَسَنِ تَشْرَهُ الصَّبَا فَأَطَلْتُ مِنْ قَرطَاسِهَا أَتَصَفِّحُ

فَأَمَّا مَا تَضَمَّتْهُ مِنْ وَصْفِي، فَقَدْ صَارَتْ حَضْرَتُهُ السَّامِيَّةُ تَتَسَمَّحُ فِي  
الشَّهَادَةِ بِذَلِكَ مَعَ مَنَاقَشَتِهَا فِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ، وَأَنَّهَا لَا تَوَقَّعُ الْفَاطِظَهَا إِلَّا مَوَاقِعَ  
الْحَقِيقَةِ، فَإِنْ كُنْتُ قَدْ بَهَرَجْتُ عَلَيْهَا فَلْتَرَجِعْ نَقْدَهَا تَجِدُنِي لَا أُسْتَحَقُّ مِنْ ذَلِكَ  
الْإِسْهَابِ فَصَلًّا، وَلَا أَعِدُّ لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهُ أَهْلًا، وَبِالْجُمْلَةِ فَاللَّهُ يَنْهَضُنِي  
بِشُكْرِ هَذَا الْإِنْعَامِ الَّذِي يَقِفُ عِنْدَهُ الثَّنَاءُ وَيَضْلَعُ، وَيَحْصُرُ دُونَهُ الْخَطِيبُ  
الْمَصْفَعُ.

هِيَهَاتَ تَعِي الشَّمْسُ كُلَّ مَرَامِقٍ وَيَعُوقُ دُونَ مَنَاهَا الْعِيُوقُ

وَأَمَّا الْفَضْلُ الَّذِي أَوْدَعَهُ الرَّقْعَةُ الْكَرِيمَةُ مِنْ قَوْلِهِ: «فَأَمَّا فَلَانٌ فَيَحُلُّ فِي  
قَوْمِهِ وَيَفْرَحُ بِالضِّيُوفِ فَرِحَ حَنِيفَةُ بَابِنِ الْوَلِيدِ. قَدُورُهُ عِمَارِيَّةٌ، وَعَطَسَاتُ  
جَوَارِيهِ أَسَدِيَّةٌ، وَيَهْوِينُ لَوْ خَلَقَ الرِّجَالَ خَلَقَ الضَّبَابَ، يَتَضَوَّعُنِ النَّشْرُ  
الْعَبْقُسِيُّ، وَيَرْضَعُنِ مَرَاضِعَ ثَعَالَةَ الْمَجَاشِعِيِّ». وَمَا أَمَرْتُ حَضْرَتَهُ السَّامِيَّةَ مِنْ  
ذِكْرِ مَا عِنْدِي فِيهِ، فَقَدْ تَأَمَّلْتُهُ طَوِيلًا، وَعَثَرَ الْخَادِمَ فِيهِ بِمَا أَذَاكَرُهُ، رَاغِبًا فِي  
الرِّضَى بِمَا بَلَغْتَ إِلَيْهِ الْمَقْدَرَةَ، وَتَجْلِيلِ ذَلِكَ بِسُجُوفِ الصَّفْحِ. أَمَا قَوْلُهُ: «يَفْرَحُ  
بِالضِّيُوفِ فَرِحَ حَنِيفَةُ بَابِنِ الْوَلِيدِ» فَيَقَعُ لِي أَنَّهُ أَرَادَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ الْمَخْزُومِيَّ؛  
وَذَلِكَ أَنَّ مَسِيلِمَةَ الْحَنْفِيَّ كَانَ قَدْ تَنَبَّأَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

وحديثه مشهور - فبعث إليه أبو بكر رضي الله عنه، خالد بن الوليد المقدم ذكره في جيش كثيف من المسلمين؛ ففتح اليمامة، وقتل مسيلمة، وأباد جماعة كثيرة من بني حنيفة. وأما قوله: قدوره عمارية، فإن هذا الفصل لما كان مبنياً على الدم، وجب أن يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه، ولم نجد ما ينسب إليه إلا قول الفرزدق:

لو أن قدرًا بكت من طول ما حبست      عن الحقوق بكت قدر ابن عمار  
ما مسها رسم مذفض معدنها      ولا رأت بعد نار القين من نار  
وأما قوله: «عطسات جواريه أسدية» فيقوى في وهمي أنه أراد قول الأول في هجائه:

إذا أسدية عطست فنكها      فإن عطاسها طرق الوداق  
وأما قوله: «يهوين لو خلق الرجل خلق الضباب» فإن الجاحظ ذكر في كتاب الحيوان أن للضب أيرين، وللضبة حرين. وحكى أن أير الضب أصله واحد، وإنما يتفرق فيصير أعلاه اثنين، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق:

رعين الدبا والبقل حتى كأنها      كسامن سلطان ثياب مراجل  
سيحل له نركان كانا فضيلة      على كل حاف في البلاد وناعل  
والنرك: اسم أير الضب. وأنشد الأصمعي لابن دزماء فيما رواه أبو خالد النمري:

تفرقتم لازلتم قرن واحد      تفرق أير الضب والأصل واحد  
ومن ها هنا قالت حبي المدنية لما عدلها أبوها في تزوجها ابن أم كلاب:  
وددت بأنسه ضبب وأني      ضبية كديبة وجدت خلاء

وأما قوله: «يتضو عن النشر العقبسي» فمن أمثال العرب: هو آخر صفقة من شيخ مهو، وهو بطن من عبد القيس بن أقصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن نزار بن معد بن عدنان، وكان من خبره أن إيادًا كانت أنس العرب، فوفد وافدهم إلى الموسم بسوق عكاظ، ومعه حلة نفيسة، فقال: يا معشر العرب، مَنْ يشتري مني مثلبة قوم لا تضره بحلتي هذه؟ فقال الشيخ المهوي: أنا أشتريها. فقال الإيادي: اشهدكم يا معشر العرب أني قد بعث فساء إياد لوافد عبد القيس بحلتي هذه، وتصافحا وافترقا متراضيين، وقد شهد عليهما أهل الموسم فصارت ...

فصارت عبد القيس أفسى العرب، وقيل لابن مناذر: كيف الطريق إلى عبد القيس؟ فقال: شم ومر.

فإن عبد القيس من لؤمها      تفسو فساء ريحة تعبق  
من كان لا يدري لها منزلاً      فقل له يمشي ويستنشق

وأما قوله: «أعطش من ثعالة المجاشعي»، فمن أمثال العرب فيما ذكره الكلبي قال: هما رجلان من بني مجاشع عطشا، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله، فلم يغن عنها شيئاً، وماتا عطشاً ووجداً على تلك الحال، قال جرير يهجو بني دارم:

رضعتم ثم بال على لحاكم      ثعالة حين لم يجدا الشرابا

هذا ما وقع لي في هذا الفصل، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ما قصده قائله<sup>(١)</sup>.

ففي هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التي غمضت على أبي الفرج الموفقي، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد في

(١) معجم الأدباء لياقوت: ج ٩، ص ١٥٧.

كتب القدماء، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر، وبالأمثال مرة، وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملماً بهذه الألوان من الثقافة والعلوم، وأنه كان يستخدمها في كتاباته، بل في شعره أيضاً.

نرى ظاهرة أخرى في هذه الرسالة؛ وذلك أن ابن الشخباء كان يحلي كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء في نثره، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية، ولكن ابن الشخباء أكثرَ منها بحيث لا نكاد نرى رسالة من رسائله التي حُفِظت تحلو من هذه الظاهرة، ولا سيما رسائله إلى إخوانه وأصدقائه، فمن ذلك ما كتبه إلى صديق له:

لما حديث ركاب مولاي أخذ صبري معه، وصحبه قلبي وتبعه.

فعمجت من جسم مقيم سائر كمسير بيت الشعر وهو ومقيد

وبقيت بعده أقاسي أموراً تخف الحليم، وترعى الهشيم، إن رجوت منها غفلة اقتحمت، وإن رمتُ منها فرجة تضايقت والتحمت. وأما الوحشة فقد اصطحبت منها كأساً مترعة، وتجرعت من صابها أمر جرعة، ورأيت فؤادي إذا مرَّ ذكر مولاي يكاد يخرج من خدره، ويرغب في مفارقة صدره، حيناً يجده السماع، وصدوداً تنتفض منه الأضلاع، وزفرة يدمى في غرارها، ويطلع في الترائب شرارها.

أداري شجاها كي تخلي مكانها وهيئات ألقيت رحلها واطمأنت

وأما ما أعاني بعد مسيره فأشياء، منها عبث الألم مرة، وزوال الاستمتاع بما يعرفه من تلك المسرة، ومنها اضطراري إلى كثرة مكابرة من أعلم دخل

سرائره، واختلاف باطنه وظاهره، وتكلف اللقاء له بصفحة مستبشرة، وأخلاق غير متوعرة... إلخ<sup>(١)</sup>.

ولعلك تلاحظ مما أوردناه من فن ابن الشخباء في الكتابة أنه استخدم جميع الخصائص المصرية في الكتابة؛ فنجد الكتابة المسجوعة، واستخدام التشخيص والتصوير ومراعاة النظر، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التي أكثر منها المصريون، وقد أصيب هذا الكاتب البارع بنكبة لا ندرى سببها؛ إذ حُبس في خزانة البنود، ثم قُتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة<sup>(٢)</sup>. ويذهب ابن ميسر أنه قُتل سنة ست وثمانين وأربعمائة، وأنه أنشد وهو في سجنه:

أصبحت تخرجني بغير جريمة      من دار إكرام لدار هوان  
كدم الفصاد يراق أرذل موضع      أبداً ويخرج من أعزم مكان  
ثقلت موازين العباد بفضلهم      وفضيلتي قد خفت ميزاني<sup>(٣)</sup>

وفي عهد المستنصر أيضاً ولي أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان الإنشاء، بعد أن صُرف عن الوزارة سنة ٤٥٢ هـ، ولا أدري كيف يقول المقرئ عنه: وكان الوزراء إذا صُرفوا لم يتصرفوا، فاقترح أبو الفرج بن المغربي لما صُرف أن يتولى بعض الدواوين، فولي ديوان الإنشاء الذي يُعرف اليوم بوظيفة كتابة السر، وهو الذي استنبط هذه الوظيفة بديار مصر<sup>(٤)</sup>. وواضح هذا التخبط الذي وقع فيه المقرئ؛ فإن ديوان الإنشاء في الديار المصرية أقدم عهداً من أبي الفرج بن المغربي، بل أقدم عهداً من الدولة الفاطمية، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وُجد بمصر منذ عهد أحمد بن طولون.

(١) معجم الأدباء لياقوت: ج ٩، ص ١٥٤.

(٢) ابن خلكان: ج ١، ص ١٣٤.

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر: ص ٢٩.

(٤) خطط المقرئ: ج ٣، ص ٢٥٧.

ومهما يكن من شيء فإن أبا الفرج أحد أفراد بني المغربي الذين كان لهم شأن كبير في الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز، ولكن نشاطهم كان سياسياً أكثر منه أدبياً، حقاً تحدث عنهم ابن القارح في رسالته، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المغربي وبين أبي العلاء المعري، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فرار بني المغربي من مصر واستقرارهم في العراق حيناً، وفي ديار بكر حيناً آخر، ولذلك أثرنا ألا نتحدث عنهم طويلاً في هذا البحث، وكذلك لم تصل إلينا رسائل أبي الفرج بن المغربي الذي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ..

وتمر السنون على ديوان الإنشاء، ويتعاقب عليه الكتاب، حتى نلتقي بكاتب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية، ومن أحسنهم حظاً، فقد انتهت إلينا بقية صالحة من رسائله وسجلاته، بل بقي لنا كتابان من كتبه الكثيرة التي صنّفها، ذلك الكاتب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة هـ..

### ابن الصيرفي:

قال ياقوت: الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي، أحد فضلاء المصريين وبلغائهم، مسلم ذلك له غير منازع فيه، وكان أبوه صيرفياً، واشتهى هو الكتابة فمهر فيها<sup>(١)</sup>. ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ صناعة الترسل على ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء، وبه سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدي<sup>(٢)</sup>. ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي استخدم ابن منجب في ديوان المكاتبات ورفع من قدره وشهره، ثم إنه أراد أن يعزل الشيخ ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء، ويفرد ابن الصيرفي به، واستشار في ذلك

(١) معجم الأدباء: ج ١٥، ص ٧٩.

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر: ص ٨٧.

بعض خواصه ومن يأنس به، فقال له: إن قدرت أن تفدي ابن أبي أسامة من الموت يومًا واحدًا بنصف مملكتك، فافعل ذلك ولا تحلي الدولة منه فإنه جمالها<sup>(١)</sup>. وقد وصف المقرئزي ابن أبي أسامة بقوله: الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن أبي أسامة، صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة، ويُنعَت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف، ولم يكن أحد يشاركه في هذا النعت بديار مصر في زمانه<sup>(٢)</sup>.

فنحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتابة في مصر في العصر الفاطمي، فقد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتبًا في أواخر أيام المستنصر، وهو الذي كتب سجل تولية المستعلي<sup>(٣)</sup>، وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الأمر، ثم ولي الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢هـ، فأصبح الديوان لابنه أبي المكارم إلى أن توفي أيام الحافظ، فولي ابن منجب الصيرفي الديوان بعده، فهذه المدة الطويلة التي قضاها ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في الكتابة، وذيوع عدد من رسائله وحفظها، وبالرغم من أنه أصبح رئيسًا لديوان الإنشاء في عهد الحافظ، فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة ٤٩٥هـ<sup>(٤)</sup>، ثم نراه يكتب سجلات كثيرة، وهو لم يزل كاتبًا في الديوان؛ منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم ٥٠١هـ الخاص بالخراج، وتحويل السنة الخراجية، وقد جاء في هذا السجل:

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) معجم الأدباء: ج ٥، ص ٧٩.

(٢) خطط المقرئزي: ج ٣، ص ١٤٠.

(٣) ابن ميسر: ص ٣٥.

(٤) المصدر نفسه: ص ٤.

الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته، وألهمه أن يعم بحسن التدبير عبیده وخليفته، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة في المحشر، وعناهم بقوله: ﴿يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر﴾، وأعلى منار سلطانه بمدبر أفلاك دولته، ومبيد أعداء مملكته، وأشرف من نصب للجند علماً وراية، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه، السيد الأجل الأفضل، الذي نبه في السياسة على ما أهمله من سبقه، وأغفله من تقدّمه، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلاً إلا أوضحه وبين الواجب فيه، ولا خللاً إلا أصلحه وبادر بتلافيه؛ إشاراً لعمارة الأعمال وقصدًا لما يقضي بتوفير الأموال، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها، واهتماماً بمصالحهم التي ضعفت قواهم عن ارتيادها، ورعاية لمن ضمته أقطار المملكة من الرعايا، وحملاً لهم على عدل السنن وأفضل القضايا. يحمد أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمة، وادخره لأيامه من الفضائل التي ضفت بها ملابس النعمة، ويرغب إليه بالصلاة على محمد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب، وبين به ما استبهم من سبل الصواب، وأنزل عليه في محكم الكتاب: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾، صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كافيه فيما أعضل لما عدم المساعد، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضى الله تعالى فيما يقولون ويفعلون، والذي يهدون بالحق وبه يعدلون ... إلخ<sup>(١)</sup>.

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر الفاطمية، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبل، وهي التي تجدها عند

كل الكتاب تقريباً، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت إلينا عن ابن الصيرفي، من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة هـ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتُدعت في القرن السادس للهجرة تذكراً لخلاص الخليفة الحافظ من سجنه، فقد استبد وزيره أبو علي بن الأفضل الملقب بكتفيات، بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ، فلما قُتل الوزير في سادس عشر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أُخرج الخليفة من معتقله، واتَّخَذَ هذا اليوم عيداً أسماه عيد النصر، ففي ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء للاستعداد لهذا العيد:

عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها، وأدناها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهى، ونحن نأمرُك أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في الأعياد، وتقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله، وتعتمد في ذلك ما جرى الرسم فيه في كل عيد، وتنتهي فيه إلى الغاية التي ليس عليها مزيد. فاعلم هذا، واعمل به إن شاء الله تعالى.

ولم يكن ابن الصيرفي كاتباً من كتاب الرسائل فحسب؛ بل كان مؤرخاً ومصنفاً، ومن تصانيفه: كتاب عمدة المحادثة، وكتاب عقائل الفضائل، وكتاب استنزال الرحمة، وكتاب منائح القرائح، وكتاب رد المظالم، وكتاب في السكر، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري وغيرهما، وهذه الكتب كلها مفقودة الآن، وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان: الأول قانون ديوان الرسائل، والثاني كتاب الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة.

أمَّا الكتاب الأول «قانون ديوان الرسائل»، فقد صنفه ابن منجب لكي يكون قانوناً يعرف به من يجب أن يولى رياسة ديوان الرسائل، ومَنْ يجب أن

يكون تلوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحداً واحداً من الخدام الذين لا غنى عنهم، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم، التي إذا سُلِكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أمره، وأمن معها من اختلال شيء منها وفساد يدخل عليها، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقادم عهدها وبعدت أزمنتها<sup>(١)</sup>، فكانه أراد أن يجعل من كتابه هذه دستوراً لاختيار كتاب الرسائل، وهو يصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا الكتاب أنه: «لما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة، قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم، ووضعوا فيها المصنفات، ونظموا ذكرها في الكتب والمؤلفات، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء، فقرروا في كل منها ما كان أصلاً يُعتمد عليه، ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته، واقتضاه ما أوجبه وقته، والبلد الذي يحتله، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه، فقد أكثر كلٌّ منهم فيه المقال، وتوسّع في تصنيفه وأطال، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرًا، النبيهة ذكرًا، الرفيعة شأنًا، العلية مكانًا، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول، والمكاتبة عنه إلى من قلَّ من الأمم وجل، وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل، وأن يجتنبه من القبائح والردائل...»<sup>(٢)</sup>.

(١) قانون ديوان الرسائل: ص ٩١ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥).

(٢) قانون ديوان الرسائل: ص ٨٨.

هذا السبب الذي من أجله أُلّف كتابه هذا، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم تُوضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل؟ من الحق علينا أن نقول: إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هينة، فإن أكثر كتب القدماء فُقدت وإن بقي أسماء بعضها، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تهتم بسرد كتب المؤلفين، مثل: الفهرست، ومعجم الأدباء، وكشف الظنون وغيرها، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتباً في الكتابة والكتّاب، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة، وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يجودوا صناعتهم<sup>(١)</sup>. ووضع الصولي أدب الكتّاب، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب. ونذكر أحمد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة<sup>(٢)</sup>، وأحمد بن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء، وكتاب أدب الكتاب<sup>(٣)</sup>، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب الكتاب<sup>(٤)</sup>، وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧هـ، صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب<sup>(٥)</sup> وغيرهم. وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا، فلم نعرف ما اشتملت عليه، ولكن من أسمائها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه «قانون ديوان الرسائل»، فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء، وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلاً عليها، وعن اختصاصه في عمله، ثم تحدث بعد ذلك عن معاونيه من الكتاب في الديوان، فجعل لكل عملٍ

(١) تجد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء، وفي كتاب الوزراء، والكتاب للجهشياري.

(٢) معجم الأدباء: ج ٣، ص ٦٦.

(٣) المصدر نفسه: ج ٥، ص ١٣٥.

(٤) معجم الأدباء: ج ٤، ص ٢٤٤.

(٥) المصدر نفسه: ج ٤، ص ٢٢٨.

كاتبًا خاصًا له مميزات خاصة، فمن يُستخدم لتخريج الكتب الواردة له صفات خاصة، ومن يستخدم برسم الإنشاء له خصائص، ومن يكون ناسخًا في الديوان له مميزات، وهكذا.

فكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف عن الكتب التي وُضعت في الكتاب والكتابة؛ لأنه يتحدث قبل كل شيء عن نظام ديوان الرسائل، ثم عن موظفيه، فهو صورة مختصرة جدًا للكتاب الذي أُلّف بعد ذلك، وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندي.

أمّا الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب، فهو كتاب «الإشارة إلى من نال الوزارة»... فهو كتاب تاريخ من ولي الوزارة في عهد الدولة الفاطمية، سجّل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته وما لُقّب به، وما تم على يديه من أعمال، فهو من أهم الكتب التي تتحدث عن تاريخ الفاطميين. ولا بن منجب عدة مقطوعات من الشعر، ولكنه لم يُعرف بالشعر كما عرف بالكتابة، وروى له ياقوت قوله:

لما غدوت مليك الأرض أفضل من  
تغايرت أدوات النطق فيك على  
و قوله:

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته  
يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه  
على وشيخ من الخطى مخضوب  
إلا أخو الحرب والجرد السلاهب

ولكن ابن منجب لم يُعد بين الشعراء بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة كان أكثرهم من كتاب الإنشاء، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مُقلًا في الشعر مُكثرًا في الرسائل، حتى قيل: إن ديوان رسائله يزيد على أربعة مجلدات.

وتوفي ابن منجب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٥٤٢ هـ<sup>(١)</sup>، ولكن ياقوت يذهب إلى أنه توفي في أيام الملك الصالح بن رزيك بعد سنة خمسين وخمسة<sup>(٢)</sup>، وليس بين أيدينا شيء من النصوص التي تجعلنا نرجح إحدى الروايتين.

### أبو الفتح بن قادوس:

كان مع ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدر كتاب مصر الفاطمية وشعرائها؛ أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي الكفاء أبو الفتح محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطي المعروف بابن قادوس، شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالي، وامتدت به الحياة إلى أن توفي في عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك؛ أي أنه عاصر شعراء مصر وكتابها في النصف الأول من القرن السادس، وعرف اتجاهاتهم الفنية في الشعر والكتابة، فلا غرو أن نرى أمية بن أبي الصلت يتحدث عنه في رسالته المصرية، ونرى العماد يقول عنه: «أشعاره محكمة النسيج، كالدر في الدرج»<sup>(٣)</sup>. ووصفه ابن ميسر بقوله: «كان من أمثال المصريين وكتابهم، مقدماً عند ملوكهم»<sup>(٤)</sup>. لم يصلنا شيء عن حياة هذا الكاتب الشاعر، فقد فُقدت ترجمة حياته، كما فُقدت تراجم رجال مصر الفاطمية، ومع ذلك فقد حُفظت في بعض المراجع قصته مع زميله وصنوه أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري، وكيف كان ابن قادوس سبباً في أن ابن يلقى زميله حتفه على نحو ما ذكرنا من قبل، فإن هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله القدماء عن فضله وكفايته في صناعتي الشعر والنثر، فإنه كان ضعيف الخلق، يحسد زملاءه ويوقع بهم في المهالك. وهناك قصة

(١) تاريخ مصر لابن ميسر: ص ٨٧.

(٢) معجم الأدباء: ج ١٥، ص ٧٩.

(٣) الخريدة: ورقة ٤٩.

(٤) تاريخ مصر لابن ميسر: ص ٩٧.

أخرى يرويها القدماء عنه، وهي انتصاره للجليس بن الحباب، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعاً بهجاء الجليس، كثير الدعاية بأنفه، حتى قيل: إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت ألف مقطوعة، فانبرى له ابن قادوس ينتصر للجليس قائلاً:

يا من يعيب أنوفنا الشم      التي ليست نُعَاب  
الأنف خلقه ربنا      وقرونك الشم اكتساب<sup>(١)</sup>

فما الذي جعل ابن قادوس ينتصر للجليس؟ لا شك في أن ضعف خُلُق ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليس ربما ساعده في الوصول إلى مآربه الشخصية في الديوان، أو في غير الديوان من مناصب الدولة، بحكم تلك الصلة القوية التي كانت بين الجليس والخليفة الفاطمي من ناحية، وبين الجليس والملك الصالح طلائع بن رزيك من ناحية أخرى، فلذلك انتصر للجليس، ولولا أطماعه ما كان ينشد هذين البيتين.

مهما يكن من شيء، فإن ابن قادوس كان من أمثال الكتاب في القرن السادس الهجري، فالرسائل التي بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه في الإنشاء؛ فمن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة في عيد النحر، ومنها:

أمّا بعد، فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام، ومخول الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد الولوع والغرام، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبي وأحرم، وبين ما أحلّ الله وحرّم، وعلى أخيه أئمة أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب الذي ضرب وكبر، وحقر مَنْ طغى وتجبر، وعلى الأئمة من ذريتها  
أعلام الدين، وحتوف المعتدين، وسلم وكرم، وشرف وعظم، وإن من الأيام  
التي كملت محاسنها وتمت، وكثرت فضائلها وجمت، ووجب تخليد عز صفاتها،  
وتعين تسيطر تأثيراتها، يوم عيد النحر من سنة (كذا): وكان من قصصه أن  
الفجر لما سل حسامه، وأبدى الصباح ابتسامه، نهض عبيد الدولة في جموع  
الأولياء والأنصار، وأولي العزيمة والاستبصار، ميممين القصور الزاهرة  
متبركين بأفئيتها، ومستملين بسعادتها، وتألفوا صفوفًا تبهر الناظر، ويخجل  
تألفها تألف زهر الروض الناضر، مستصحبين فنونًا من الأزياء تروق،  
ومستتبعين أصنافًا من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق، والأعلام  
خافقة، والرياح بألسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة، فأقاموا  
على تشوف لظهوره، والتطلع للتبرك بلامع نوره، ولما بزغت شمس سعاداته،  
وجرت الأمور على إيثاره وإرادته، وبدت أنوار الإمامة الجليلة، وظهرت  
طلعتها المعظمة البهية، خرَّ الأنام سجودًا بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم  
العبيد بنو العبيد، واستقل ركابه أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام  
بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه، وناضل  
عن حوزة الدين وجاهد، وناصل أحزاب الكفار وناهد، يقوم بأحكام الوزارة،  
وتدبير الدولة تدبير أولي الإخلاص والطهارة، ويتبع آراء المؤمنين فيما تنفذ به  
أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره، ويحسن  
السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير أمور الدولة العلوية وكبير،  
ويخلص لله جلَّ وعزَّ وإمامه، ويكفكف من الأعداء ببذل الجهد في أعمال  
لهذمه وحسامه.

وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في إثره، متوافقة على امتثال أمره، قد  
رفعت السناكب من العجاج سحابًا، وخيلت جنن الجند للناظرين في البر عبابًا،  
والجياذ المسمومة توج في أعنتها، وتختال في مراكبها وأجلتها، وتسرع فتكسب

الرياح نشاطاً، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً، وتهدى لمن يحاول مماثلتها غلواً واشتطاطاً، وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل، ويكاد يرعب الأرض ترلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب، وتغدو صلابها كالكتيب المهيل... (١).

وكتب ابن قادوس بالبشارة بوفاء النيل:

النعمة، وإن كانت شاملة للأمم، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم، فأولاها بشكر تنشر الآفاق أعلامه، واعتداد تحكم بإدراك الغايات أحكامه، نعمة يشترك في النفع بها العباد، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد، وتلك النعمة النيل المصري الذي تبرز به الأرض الجرز في أحسن الملابس، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس، وترى الكنوز ظاهرة للعيان، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان، فسبحان من جعله سبباً لإنشار الموات، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات، ووفّر به مواد الأرزاق والأقوات... إلخ (٢).

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هي من خصائص مصر، فلا يناع مصر بلد آخر في هذا اللون من السجلات، ولا سيما في البشارة بوفاء النيل، ولكن اللون الآخر، وهو ركوب الإمام الفاطمي لصلاة عيد النحر، فهو من ترتيب الدولة الفاطمية، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية في السجل الفاطمي، مما لا يدع شكاً في أن العقائد أثرت في الكتابة كما أثرت في الشعر، أضف إلى ذلك كله هذه الصنعة الفنية في الكتابة التي رأيناها عند جل كتّاب الفاطميين، وقد حفظ العماد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف، وتظهر في هذه الرسالة صنعته الفنية التي ظهرت في السجلين السابقين:

(١) صبح الأعشى: ج ٨، ص ٣٢٦.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٢٨.

أطال الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يتدعها، وفرائض جود يشرعها،  
وقوادم يذلل صعابها، ومسايف سعود يطرق جناها، وأدام أيامها التي هي  
للدهر تائم، وفي المحل غنائم:

غرر من الأيام توضح فخرها      والدهر من ظلم النوائب عاتم  
ملك تملكه الندى وتجمعت      في راحتيه غنائم وسائم  
فالروض يجذب وهو روض ممرع      والغيث يقلع وهو غيث دائم

وشتان ما بينهما، تلك سحاب قد رعدت بوارقها، وعدت صواعقها،  
وروض يجف نباته، وتضوع زهراته، ومكارم الحضرة تزيد جدة على التكرار،  
وتماثل فعل الفلك المدار، فهي تباري الشمس نهارًا، وتزور مزار الطيف  
سرازا:

منن بغير أهلة مستورة      فطلعن في فلك العلا أقمارا  
ومواهب ومناقب ومناسب      رفعت له فوق السماك منارا<sup>(١)</sup>

وتوفي ابن قادوس سنة ٥٥١ في سبع المحرم، وقيل: إن الملك الصالح  
حضر من القاهرة إلى مصر للصلاة عليه، ومشى في جنازته إلى تربته عند مسجد  
الأقدام<sup>(٢)</sup>. ووافق العماد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو، غير أن  
المقريزي روى قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأزمني وزير الحافظ  
لما عظم شأنه سنة ٥٢٦ هـ وثقل على الخليفة أخذ كل منهما في التدبير على  
الآخر، فأعجل يانس وقبض على حاشية الخليفة، ومنهم قاضي القضاة وداعي  
الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح ابن قادوس وقتلها، فاشتد ذلك على الحافظ  
وعمل على سم وزيره<sup>(٣)</sup>. أي أنه ذهب إلى أن ابن قادوس قُتل سنة ٥٢٦ هـ،

(١) الخريدة: ورقة ٥١.

(٢) ابن ميسر: ص ٩٧.

(٣) خطط المقريزي: ج ٣، ص ٢٧.

وقد وهم المقرئ في هذه الرواية؛ فإن الأدلة تكاد تُجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع بن رزيق، من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبي علي حسن بن زبيد الأنصاري كانت في الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة ٥٢٦هـ، ونحن نعلم أن ابني الزبير لم يتقدما في الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة ٥٤٩هـ، بل لم يكن لهما ذكر في الدولة قبل هذا التاريخ، وقد روينا هجاء ابن قادوس لابن الزبير، فمعنى هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر؛ أي بعد سنة ٥٢٦هـ أيضاً. ومن ذلك أن العماد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزيق كان يغري ابن الصياد بأنف الجليس بن الحباب، فأنشد ابن الصياد هذه المقطعات التي أشرنا إليها مراراً، ولم يسكتها إلا ابن قادوس، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح، أضف إلى ذلك ما رواه ابن خلكان: أن الخليفة العاضد الفاطمي أشرك ابن قادوس مع الموفق بن الخلال في ديوان الإنشاء، وإذن فنحن نؤيد رواية العماد وابن ميسر، أنه توفي سنة ٥٥١هـ.

أما الشاعر الكاتب الثاني، فهو أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله، وقد تحدثنا عنه شاعراً، أما صفته الكتابية، فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين في ديوان المكاتبات<sup>(١)</sup>، وقال مرة أخرى: «ومن ثمره ما يدل حسنه على رونق فرنده»<sup>(٢)</sup>. وحقاً، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب، ومن هنا ظهرت

(١) الخريدة: ورقة ١١٠.

(٢) المصدر نفسه: ورقة ١١٤.

مواهب أبي علي الأنصاري في الشر كما ظهرت من قبل في الشعر. اقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له يهنئه بالشفاء من مرض:

«إذا قدم الوداد، وصحَّ الاعتقاد، ووصفت الضمائر، وخلصت السرائر؛ حلَّ الإخاء المكتسب، محل أخوة النسب، وصار المتعاقدان على الإيثار، والمتحابان على بُعد الدار، متساهمين فيما ساء وسرَّ، ومتشاركين فيما نفع وضرَّ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي، فإني وإياها كنفس قُسمت على جسمين، وروح فُرقت بين شخصين، فما ألمها فقد مضى وأزعجني، وأما برؤها فقد سرني وأبهجني، وعرفت خبر إبلاها من ألم كان بها، فشكرت الله على خلتيين معًا، ونفعين اجتمعا: أحدهما أنني أعلم تألمها، فكنت ألاقي ما يكدر الشراب، ويمنع تلاقي الأهداب، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البغيض، والآخر علمي ببرئها عند حلوله، ومعرفتي به عند تخييمه بساحتها ونزوله»<sup>(١)</sup>.

واقراً له يهنئ صديقه بمولود:

«وردت البشارة السارة بالقادم الأجد، المستقبل بالطالع الأسعد، وأخذ الملوك من المسرة بأوفر حظ الأولياء المخلصين في الولاء، المغمورين بجزيل الآلاء، وسأل الله سبحانه تحليد الأيام المالكية مديدة الأمد، وافرة العدد، نامية الأهل والولد، حتى يرى هذا المبشر بقدومه ممتطياً صهوات الجياد، مخوف الشذا يوم الجلاذ، يخفق وراءه اللواء، وتخاف سطوته الأعداء، وتخص البلاد بقواضيه، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه، وترى من أولاده أمجاداً عن الإسلام ذادة، وأملاً لا امتلاك البلاد سادة، لا زالت تبلغ أقصى الأماني، وتسمع نغم التهاني، وتمد ظلها على القاصي والداني»<sup>(٢)</sup>.

(١) المصدر نفسه: ص ١١٥.

(٢) الخريدة: ورقة ١١٥.

ثم اقرأ له هذه القطعة من رسالة في العزاء بغريق:

«لعمري لقد نزهه الله عن سهك الجرباء، وملاقة الحصباء، والمقام تحت أديم الأرض، وانطباق بعضها على البعض، ورفعته عن أن يذل في الحدث جبينه، ويعفر في العثير عرينه، فجعل ضريحه في شبهه جوادًا وكرمًا، وضربه محاسن وشيمًا، فتضمنه الماء، وتغطم فوقه الدماء، فإذا استسقى السحاب، واستسمح التراب، فهو في البحر الوافر، واللج الزاخر، بحيث تتفرع المناهل، ويرد كل ناهل»<sup>(١)</sup>.

فهل رأيت كيف كان أبو علي الأنصاري فنًا يجيد صناعته، فينتقي من اللفظ أجوده، ومن المعاني أسماها وأجملها؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده على مهارته، ويخشى منافسته، فدبر المكيدة التي أدت به إلى حتفه.

#### الموفق ابن الخلال:

ولعل آخر من ولي ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال، الملقب بالموفق، وقد وصفه العماد بقوله: «هو ناظر مصر وإنسان ناظرها، وجامع مفاخرها، وكان إليه الإنشاء، وله قوة على الترسل يكتب كما يشاء»<sup>(٢)</sup>. ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في أيام الحافظ، وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية<sup>(٣)</sup>. ويُعدُّ الموفق ابن الخلال الأستاذ المباشر للقاضي الفاضل، وقد روينا كيف وفد القاضي الفاضل إلى ديوان الإنشاء، ومثل بين يدي الموفق ولازمه، وتدرّب بين يديه، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى، إلى أن أجاد القاضي الفاضل فنَّ الترسل، وبلغ هذه الدرجة الرفيعة

(١) المصدر نفسه: ورقة ١١٨.

(٢) ابن خلكان: ج ٢، ص ٤٠٧.

(٣) المصدر نفسه، وهذا ما يفهم أيضا من أقوال القلقشندي في كتاب صحب الأعشى: ج ١، ص ٩٦.

في هذا الفن؛ لذلك يقول ابن خلكان: «ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن في السن، وعجز عن الحركة، فانقطع في بيته. ويقال: إن القاضي الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم، فكان يُجري عليه كل ما يحتاج إليه»<sup>(١)</sup>.

وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليميني، فقال: «ووجدت بحضرته (أي بحضرة الصالح بن رزيق) من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالي بن الحباب، والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء، وأبا الفتح محمود بن قادوس، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب، ويرمي شاكلة الإشكال فيصيب»<sup>(٢)</sup>. إذن تكاد تُجمع المصادر التي بين أيدينا، والتي حدثتنا عن الموفق بن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل، وعلى براعته في فن الترسل، وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثاني مرة؛ أي بعد انتصاره على ضرغام، جاء فيه:

«سلام عليك، فإنَّ أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين، وسلم تسليماً. (أمَّا بعد)، فالحمد لله مانح الرغائب ومنيلها، وكاشف المصاعب ومزيلها، ومذل كل عصبة كلفت بالغدور والشقاق ومذيلها. ناصر مَنْ بغى عليه، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه، وراد الحقوق إلى أربابها، ومرتجع المراتب إلى مَنْ هو أجدر برقيها وأوابها، ومسني الخير بتيسير أسبابه، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه، ومدني نائي الحظ بعد نفوره واغترابه، ومطلع الشمس بعد المغيب، ومتدارك الخطب

(١) ابن خلكان: ج ٢، ص ٤٠٩.

(٢) النكت العصرية: ٣٤.

إذا أعضل بالفرج القريب. مبدع ما كان ويكون، ومسبب الحركة والسكون، محسن التدبير، مسهل التعسير: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾. والحمد لله الذي اختصّ أولياء أمير المؤمنين بالاستعلاء والظهور، وذلل لهم جوامح الخطوب ومصاعب الأمور، وآتاهم من التأيد كل بديع مستغرب، وأنالهم من كل غريب إذا أورد قصصه أطرب، ومكنهم من نواصي الأعداء، وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء، وضمن لهم أحمد العواقب، وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام أفضل المناقب، وهداهم بأمر المؤمنين إلى ما راق زلاله وتم غاية التمام، كما أنه كان لرضي الله سبحانه، وحسن ثوابه ومآله، ويمدهم في المجاهدة عن دولته بالتأيد والتمكين، ويحظيهم من أنوار اليقين، بما يجلو عن أفئدتهم دجى الشك البهيم، ويظهر لأفهامهم خصائص الإمامة في حلل التفخيم والتعظيم، ويريم أن خلوص الطاعة منجاة في المعاد بتقدير العزيز العليم.

والحمد لله الذي استثمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين، وأقامهم أعلامًا مرشدة في محجة الدين، وبيّن بتبصيرهم الحقائق، وورث أمير المؤمنين شرف مقاماتهم، وجعله محرز غاياتهم، وجامع معجزاتهم وآياتهم، وقضى لمن التحف بظل فنائه، واشتمل بسابغ نعمه وآلائه، وتمسك بطاعته، واعتصم بولائه؛ بالخلود في النعيم المقيم، والحلول في مقام رضوان كريم، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

ثم يقول:

«وراقب الله فيما ألقاه إليك، فقد فوض إليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض، والولاية والعزل، والقطع والوصل، والتولية والتصريف والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبية، والإخمال والتنويه، والإعزاز

والإذلال، والإساءة والإجمال، والإبداء والإعادة، والنقص والزيادة، والإنعام والإرغام، وكل ما تحدثه تصارييف الأيام، وتقتضيه مطالب الأنام، فهو إليك مردود، وفيما علق بنظرك معدود. وأما العدل ومد رواقه، وإقامة مواسمه وأسواقه، والإنصاف واتباع محجته، والاعتماد على أحكامه وأقضيته، وكف عوادي الجور والمظالم، وحمل الأمر على قصد التصاحب والتسالم، وإظهار شعار الدين في إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكمين، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين، وإعزاز من يتمسك بها من كافة المؤمنين، والأموال والنظر فيها، والأعمال أقاصيها وأدانيها، فكل ذلك محرر في تقليد وزارتك الأول، وأنت أولى من حافظ على العمل به وأكمل... إلخ»<sup>(١)</sup>.

فمن هذه القطعة نستطيع أن نتبين كيف تبع الموفق ابن الخلال ما تبعه غيره من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التي ذكرناها من قبل، ثم نتبين كيف استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم، وينظمها في سلك كتابته؛ ليضيف إليها قوة في الصناعة.

لم يكن الموفق كاتباً فحسب؛ بل كان شاعراً أيضاً، شأنه في ذلك شأن عدد كبير من الكتاب الفاطميين، ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعة التي تظهر في نثره أيضاً، فهو يقول من قصيدة:

وحلت مواقف بالوصول حوالي  
تصبي الحليم وتستهم السالي  
في الصبوة الخالي بحسن الخال  
صدقوا كذاك البدر فرع هلال<sup>(٢)</sup>

عذبت ليال بالعذيب حوالي  
ومضت لذاذات تقضي ذكرها  
وجلت موردة الخدود فأوثقت  
قالوا سراة بني هلال أصلها

(١) صبح الأعشى: ج ١، ص ٣١٠.

(٢) ابن خلكان: ج ٢، ص ٤٠٨.

كما روي أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر؛ ذلك أن الشاعر أبا القاسم بن هانئ - وكان من سلالة الشاعر ابن هانئ الأندلسي المعروف - كان يهجو ابن الخلال، فأضمر هذا له حقداً، فاتفق في بعض المواسم أن تقدم الشعراء للنشيد بين يدي الخليفة، وانتهت النوبة إلى ابن هانئ، فأنشد وأجاد، فسأل الخليفة الموفق ابن الخلال رأيه في قصيدة ابن هانئ، فلم يسعه إلا أن يشني عليه، ويبالغ في وصفه، ثم قال: ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى ابن هانئ الأندلسي شاعر هذه الدولة، ومظهر مفاخرها، وناظم مآثرها، لولا بيت أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد. فقال له الخليفة: ما هو؟ فتحرج الموفق من إنشاده، وأبى الخليفة إلا أن ينشده، وفي أثناء ذلك صنع ابن الخلال بيتاً هجا فيه الأئمة الفاطميين.

فعظم ذلك على الخليفة، وقطع صلة الشاعر، وكاد يُفِرط في عقوبته<sup>(١)</sup>.

وتوفي ابن الخلال في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ست وستين وخمسمائة من الهجرة<sup>(٢)</sup>.

### عمارة اليميني النائر:

وعلى الرغم من أن عمارة اليميني لم يكن من عمال ديوان الرسائل، ولم يُعرَف عنه أنه كان كاتباً لأحد الأمراء، فإننا نستطيع أن نلمس في رسائله الإخوانية التي حُفظت لنا، خصائص الكتابة التي عُرفت عند كتاب الدواوين، وكما تأثر عمارة في شعره بمصر وبشعرائها، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها في نثره. ونختم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولي على أسوان، وقد رأينا أن نقلها بأكملها؛ لما فيها من صنعة فنية، وطرائف لا نجد لها في السجلات الرسمية التي أوردنا صوراً منها من قبل. كتب عمارة:

(١) ابن خلكان: ج ٢، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

إن جرى بيننا وبينك عتب      أو تناءت منا ومنك الديار  
فالوداد الذي عهدت مقيم      والدموع التي شهدت غزار

كان عزمي - أطال الله بقاء حضرة مولاي - أن أستفتح هذا الكتاب، بأليم العتاب، وأشحنه من الخطاب بما لا يُستطاب، وأقيم أعنة القوارص، وأسدد أسنة الخوارص، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله، وأجمع بين رويته وارتجاله، وأجهز تعنيفاً يضيق له البحر بمراكبه، والبر بمواكبه، ثم قلت السلام قبل الكلام، والملاطفة أولى من الملام، ثم عطفني حفطي لعهدك، وحفاظي على ودك، وشافع أولي، ووفاء سموعلي، فلاطفاني حتى لزمًا كفي، وخزما أنفي، فعدت من شب نار الوجد عليك، إلى التشبيب بذكر الشوق إليك، وكتابي هذا صادر عن صدر مملوء بودك، وقلب مصدوع ببُعدك، وأسف لفقدك، لا يظعن قاطنه، ولا يخفى باطنه، وغرام لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق، ومراسم الاحتراق، ولعلمت أن صورتك في القلب مغروسة، ومكاتبتك منه محروسة، وأنك شغل خاطري ومسرحة، ومرمى ناظري ومطرحة:

يا حبذا سفوان لي من مرقع      ولربما جمع الهوى سفوان  
بل حبذا ليالي محاضرتك ومذاكرتك، ومرأوحتك ومباكرتك:

وأيامنا ولكم نعمنا      زماننا في حواشيها الرقاق  
ليالي نحن في غفلات عيش      كأن الدهر عننا في وثاق

هذا يا مولاي فصل مقصور على صحيح التشوق، لا سقيم التسوق، وخاطرك، والكاف ألد من الضمير في مخاطبتك، وأعذب من الماء النмир في مكاتبتك، تعلم صدق دخيلتي وودق مخيلتي. وأعود إلى ما في نفسي من عتابك، بل سبابك، والتظلم من جفائك، والتألم من عدم وفائك. يا أعصى من العود، وأقسى من الجلمود، بل يا قصير العزيمة وطويل الهزيمة، مضت لك شهور هي عندي دهور، لم تهزك فيها ريح الأريحية، ولا شيمة النفس

المضرحية، ولا استفذك المنصب الأبى ولا الحسب الغري، قطعت من مكاتبتك رسمي، فلا تلفظ في كتبك إلى الناس باسمي، فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسيلة لا فوق البسملة، ولقد رأيت لك كتباً سلطانية، وأخرى إخوانية، فقبلت اسمك من عنوانها، قبل الوقوف على بيانها. هذا وأنا كنانة سرك، وخزانة حلوك ومرك، والمتهم فيك بما سمع من فيك، وأظن اسمي لو مرَّ بسمعك، لحذفت خمسيه ليكون عمى الأبصار، ولست أعلم لك عذراً أحمل فعلك عليه وأنسب تحاملك إليه، إلا أن تكون طينة البلد والمنشا، غشي فؤادك منها ما غشي، فإنها الطينة التي تنبت العقارب، وتعادي بين الأقارب، وأنت تعلم أن آل الزبير والكنز إليهم منتهى رياسة أعلامها وسياسة أقلامها، ونحلتى سيفها وضيئها، ورحلتى شتاؤها وصيفها، من منهم إلا من عداوته أسباطية لأخيه، أنباطية في توخيه، يبدون المودة ويخفون العداوة، أهل حاضرة وفيهم جفاء البداوة، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة، ولا في منعه وسيلة؛ لأنه طبع جرى في مائهم، ونسيم سمائهم، وامتزج بأهوائهم من أهوائهم، وإلا فخذ إليك، واحسب على يديك، كم هنالك من راسخ أنساب، وشامخ أحساب، وصحة أديم، ومجد قديم، وفخر عميم، وكرم صميم. أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد، ومقر الشريد، وأمان الخائف، والذمة من الدهر الحائف، ثم هم سداد الثغر إذا انفتح، وسداد الأمر إذا فدح، وشعلة الزناد إذا قدح، وعنوان الصدق لمن مدح، العاملون إلا على الوفر، والفاصلون بين الإسلام والكفر.

وأرجع يا مولاي إلى مخاصمتك ومواصمتك، ومشاتمتك وملاكمتك، والعرض من عندك، والكف من عبدك، هذه مكاتبة غير مواتية، ومخاطبة الحمالين والنواتية، ومقاسرة، وسوء معاشرة، وكأني بمولاي إذا انتهى إلى هذا الحد، تمثّل وأنشد:

لئن ساءني أن نلتني بإساءة      لقد سرنني أي خطرت ببالك

أمنت أن أغضب فأقول: لا سقاني الله بنوئك، ولا هداني بضوئك، ولا بلاني بسوئك، فإنك من أسوان والهمزة إذا حُذفت عنها، فهمت تشية السوء منها، وأنت الذي جلبت إليها التعنيف، وفتحت عليها الكنيف، فإن كان هوى البلد أعداك، فقد هوى بك وأرداك، وإن كانت الرياضة المحدثه -ولا أكسر دالها- ألتهك عن أصفيائك، وحسن وفائك، فما أخالك وفلان خالك، تجفو من ينصفك، وتنكر من يعرفك. أجدني يا مولاي قد اشتفى منك قرمي، وانطفأ عنك ضرمي، وأخذت الفتنة نارها، ووضعت الحرب أوزارها، وسفرت المسألة عن جبينها، وأخذت صفقة ثمينها.

وهذا أو ان تسرعني إلى حسن ذكرك، وتبرعني إلى حمدك وشكرك، وإتمام ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك، والدعاء بطول بقاءك، وأما هذا الكلام فهو هذر ساقط، وهدر ما له لاقط، وجلالة قدرك، وطهارة صدرك، وجميل اعتقادك، وخالص ودادك وسؤددك، وشرف قومك ونفسك، وحسن يومك وأمسك، يحملني على علمك بأن مكاتبتك من قلبي ثابتة المكان، قوية الأركان، ولولا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلاً، وسلبت علماً، ولبست جهلاً، ووجدت حزناً، وعدمت سهلاً، ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة، والبيوتات المكرمة! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمحين؟ وعميت عيناك إلى من تطمحين؟ إن لم يقك الوجل، فلينهك الخجل، وإن لم يرعك الريث فلا يستفزك العجل، أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية، ورتبة أهلها واجبة مرعية؛ بل رتبة النظر والأشراف، ونفاذ الكلمة في الأوساط والأطراف.

واتصل بي أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء، وبسطها في الأموال والإمضاء، وإن كان الكسل حدّ من نشاط نفسك، وطوى بعض بساط أنسك، وأنا أعينك أن تغلط في وهمك، أو يعترض الشك على فهمك، لا تقل ذهبت أجهل الخدمتين، وأكمل نعمتين؛ فإن من زاد في الكراء ملك الدار، وهذه

الشقراء والمضمار، وأما الخدمتان: فهما أنا أجلوهما على مرآة عقلك وهي صافية، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهي شافية؛ أما الشريعة فهي ملسوعة عدمت الراقي، ومريضة روحها في التراقي، حدودها متروكة، وحرمتها مهتوكة، ومعالمها مطموسة، وأعلامها منكوسة، وقد نفل أديمها، ونسي قديمها، وعفي وردها، وبلي بردها، حتى وقعت الزهادة في لفظ الشهادة، وثقل الأذان على الأذان، وكان القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودرى، وشبع من المعارف وتضلع، وتشوق إلى الكمال وتطلع، وبسط يده بالعطايا، وقبض رجله عن الخطايا، وقد صار القضاء في وقتنا لما قضى الله به من مقتنا، مبدولاً لمن بذل قرضاً، معروضاً على من لا يصون عرضاً، شعارهم طول السبال والقامة، وعرض اللحية والعمامة، يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة، وينكرون الفرق بين النشا والنشوة. هذه حال الشرع في الأمصار الواسعة، والأقطار الشاسعة. فأما أسوان فهي كما قال أبو الفتح البستي:

أكتاب بست كم يجاسدكم على      كتابة بست وهي سخنة عين  
وخفي حنين فوق ما تطلبونه      فكم بينكم يا قوم حرب حنين

وهل في أحكام أسوان غريبة لا تعرف، ونازلة تستطرف؟ ما من أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر، والوالي يصفع المعربدين على المزر والخمر، حاكمها مستريح من إقامة الناموس، وإحضار المصحف لليمين الغموس؛ لأن يمين التجار «وإلا يغرق في شبر من الماء»، ويمين الحمال «وإلا عذبت في صحراء عذاب بالظما»، والعشار يقول: «وإلا فالكلب على عياله، والحمار على أخت خاله». والسفساف يقول: «وإلا لصفع الوالي قفاه، ورض فاه».

هذه الخدمة يا مولاي قد شرحت لك حالها، وعرضت عليك جمالها، وهي زبدة كلها زبد، ومورد صفوه زبد، وعيبة محشوة بالعيوب، وذنوب مملوءة

بالذنوب. وأما التصرف في الأموال، والبسطة في الأعمال، فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالي إلى أن أخلاك في ركابه، واختصك بخطابه، وكنت متكسلاً فتنشطت، ومنقبضاً فتبسطت، ونظر إليك وخلع عليك، ووعدك من الصيت والتنويه، فوق ما تأمله وتنويه، ثم افرض أنك وحاكم ثغرك وقاضي مصر كقدمتها على الوالي فادلى القاضي بالدنية، وأدليت أنت بالهدية، وامت على الوالي بوقاره، وامت بما قدمت إلى داره. هنالك والله تعرف أن الجمال بخدمة المال، وإلى اليمين فضل الشمال، وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان، ثم لو جمعكما مسجد الجامع، وبرزتما للناظر والسامع، لامتلاً مجلسك بالعمال والخزان، والمؤدين إلى الوزان، وأطافت بك الأعوان السلطانية والنواب الديوانية، وحفت بك أرباب الرواتب والجوازي، ولم تجد من قولك من يراجع أو يجازي، وقلت قدموا هذا وارفعوه، وأخروا ذلك واصفعوه. وأما القاضي فلم يكن مجلسه يقتص، ومقصورته تختص، إلا باليتامى والأرامل، والمرضعات والحوامل، ويتيم ظلمه عمه، وأعرج رجله مخلوجة، ويده مفلوجة، ومشايخ عظامهم نخرة، وكوادمهم بخرة. ثم القاضي -أيده الله- نائب حكم الصعيد، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد.

وما ضر أرباب الدواوين أنهم  
نصارى وإن لم يؤمنوا بمحمد  
وها نحن إن رما سلاماً عليهم  
دفعنا عن الأكمام فضلاً عن اليد

وهذه صورة الحال، من غير انتحال، وكأني بك إذا فهمت أطربت، وشددت يدك على ما فيها وربطت، وعلمت مقدار حظك فاغتبطت. وأريد يا مولاي أن أصطادك بهذا الجنب، أربط مرزأتني في هذا الذنب، وأشوي في نارك سمكتي، وأجلب إلى شوقك رمكتي. فلأمر ما نصبت هذه الراية، وأجريت إلى هذه الغاية، وجازفت وحققت، وعن صبوح رققت، علمك محيط بكثرة ما أتلف، وقلة ما أخلف، وغنى نفسي عن سؤال الغمام، فضلاً عن الأنام، وليس

للتوسع لأني مبذر، بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يعذر، قد ركب اللجة الخضراء، والقفرة الغبراء، وقصد بابي، ونزل جنابي، أفأصون صون قرضي، وأبذل عرضي:

وإن أحق الناس باللؤم شاعر يلموم على البخل الرجال ويبخل  
وأما حاشيتي الضافية، وعدتي الوافية، فأنت في كثرتها أصدق مخبر،  
وأفصح معبر، ولما طالت محنة الغز وعرضت، ورجوناها أن تصح فمرضت،  
رجعت إلى كنانة ذكري، وخزانة فكري، فكنت أكرم خاطر في خاطري،  
وأحسن وجه يمثل لناظري، وسيرت إليك بعض خروجاتي للجاري الذي  
جمدت أنهاره، وخمدت ناره، ومبلغه يسير في جنب كرمك، حقير إذا قرن  
بهممك.

فكم في الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختياري  
ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد، إن هذا هو المرمى البعيد، فلو  
كنت أعلم أني عندك ممن ينده سربه، ويكدر بالأعداء شربه، لقصرت ما أطلته،  
وبخلت بما بذلته، ولكني قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه؛ إذ أنت مالكة،  
وغيري يقبل من جودك بعض مجهودك، وقد أقسمت عليك وإبرار القسم  
إليك، للنفس الأمانة: ساحميني في عمارة، واتركي عنك قصور باعك، وجفاء  
طبائعك، فإن هذا سواد الناظر، بل ضمير الخاطر، وسقف السماء، وعذب  
الماء، وكأني بالوصول وقد آل إلى الحصول، وبالسؤال في يد الرسول:

ألا إن نفسًا بين جنبي محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم  
ويا طالما قالت له عند فرصة من الجود خذها لا تفتك فتندم

يا مولاي قد أجلت الرسول شهرًا، وأنا أعده دهرًا، وأقف حيث انتهيت،  
وأسأل الجواب عما أنهيت، فإن الحاجة سائق حثيث، والوقت غريم خبيث،

ولرأيك الفضل المعروف بالفضل، والطول المشفوع بالطول، ولولا أن هذه الرسالة صادرة عن قائل لا يتقوّل، واردة على قابل لا يتأول، لسألت كرمك عن بسط العذر عما فيها من التقصير، وحسبنا الله ونعم النصير<sup>(١)</sup>.

فهذه الرسالة على الرغم من إسرافها في الطول، تجمع بين عدة فنون وأغراض كانت من أغراض الشعر، ولكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل الأقطار الإسلامية، وجعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل، ففيها ذكر الفراق والعتاب، والتهكم الذي هو أقرب إلى الهجاء... إلى غير ذلك من الموضوعات.

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب مصر الفاطمية، فالرسالة تقوم على السجع، ثم على هذه الألوان المختلفة من البديع، من تورية واقتباس، وتضمين واستشهاد، ومراعاة النظر، وتشخيص، وغير ذلك من هذه الألوان التي نفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية، ولم يشذ عن اتباعها كاتب واحد من كتابهم، فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي نؤرخه، والعصر الذي يليه وأسرف في استخدام هذه الألوان البديعية، فهو لم يأت بشيء جديد، إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائفهم في الكتابة، وسار على منهجهم وسنهم، ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي والتاريخ الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية؛ لأن القاضي الفاضل قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي، فكان وزير صلاح الدين ومستشاره، والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل، ويثنوا عليه الثناء كله، حتى بالغ بعض الكتاب. فقال: إن القاضي الفاضل ابتدع طريقة جديدة في الكتابة عُرفت بالطريقة الفاضلية، وكم كنت أود ألا يتسرع بعض

(١) النكت العصرية: ج ٢، ص ٤٣١.

المحدثين في أحكامهم وكتابتهم التي ساروا فيها على نمط من سبقهم، فنسبوا إلى القاضي الفاضل هذا المذهب الجديد - في نظرهم - عن الكتابة في مصر، فالقاضي الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية.

وهذه الطريقة التي نُسبت إليه، عرفها كتاب مصر الفاطمية؛ بل عرفها كتاب مصر منذ عهد الطولونيين.

## خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئاً عن الحياة في مصر الفاطمية، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين، فقد كانت عقائد الفاطميين سبباً قوياً في تطور الحياة؛ ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يُذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقراً لحكمهم، واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين أو لأُمويي الأندلس، وأن ييسطوا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان، فاتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية، كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية، فاتجهت القلوب والأنظار ممن شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر، وأصبحت القاهرة كعبتهم التي إليها يحجون، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكانتها في عصر الولاة الذي سبق العصر الفاطمي.

ورأينا شيئاً عن الحياة الاجتماعية، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين، فهناك أعياد ابتدعها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي، ولكنها ازدادت بهجة في العصر الفاطمي، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية، وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها، فورثها الأحفاد عن الأجداد. أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين، فكل هذه

الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتأنق في كل شيء.

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معاً؛ لذلك اهتم الفاطميون اهتماماً خاصاً بألوان العلوم المختلفة، ولا سيما ما كان منها يمتُّ بصلة قريبة أو بعيدة إلى عقائدهم مثل علوم الفلسفة، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية ازدهاراً لم يسمع عنه من قبل، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات، وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم، فكانت نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة، ولما دالت دولة الفواطم ضعفت هذه الدراسات، وقلَّ أن نجد لها أثراً في مصر، وإني زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى، فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية، حقيقة اهتم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة، وأسسوا دار العلم، وجمعوا فيها الكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة، ولكنه هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي، وتتطور تطورها الطبيعي، حتى أنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين، كما توقفت الدراسات الفلسفية، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل علمي، فشجَّع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ، بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهاراً عظيماً.

وكذلك نقول عن الحياة الأدبية: فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة، وهو شعراء القصر أو شعراء الحضرة، يُجهدون أنفسهم في أن يلتموا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم، بحيث أصبحنا لا نستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب، إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلقت عليها «نظرية المثل

والمشول»، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية، حتى ندرك ما أرادته الشاعر من مدحه، وإلا كان فهمنا لهذا الشعر قاصراً غير صحيح، فالعقائد أثّرت تأثيراً قوياً في الحياة الأدبية تأثيرها في جميع نواحي الحياة.

وهنا نقف لتساءل: هل مُحيت الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين؛ ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع، إلى أن هددهم المعز بسيفه وأغراهم بذهبه، فاعتنقوا عندئذ التشيع، وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة، فإننا لا ننكر أن من المصريين من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبةً أو رهبةً، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السني. وذكرنا أن من أسباب انقراض الدولة الفاطمية تهاون القائلين بالأمر فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة، فانهارت الدعوة بسبب ذلك، وسهل على صلاح الدين أن يديل الدولة، وعلى الرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت تدين بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك، ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد للإدفعوي، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوي، ترينا عددًا من أمثال المصريين كانوا يتشيعون، من ذلك ما ذكره الإدفعوي عن إبراهيم بن محمد بن علي بن مطهر بن نوفل الإدفعوي: «ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز، فاستحق به التمييز، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازمًا للصلاة والتلاوة والعبادة، وهو كل يوم من الخير في زيادة، مع صدق لهجة وصيانة، إلا أنه كان من أتباع الشيعة، أصحاب تلك البدع الشنيعة، شاهده لما حضر داود الذي يدعي أنه ابن سليمان بن العاضد إلى إدفو في سنة سبع وتسعين وستائة، وهو بين يديه، وقد أخذ العهد عليه، وهو ينشده قصيدة نظمها، منها:

ظهر النور عند رفع الحجاب      فاستنار الوجود من كل باب

وأنا البشير يخبر عنهم      ناطقاً عنه بفصل الخطاب<sup>(١)</sup>

ويروي الإدفوي أيضاً قصة قطنبة الأسفوني الشاعر، عندما شكاه بعض أهله إلى الوالي بقوص، فجاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الأمري وكان شيعياً، فلما رآه قطنبة قال: يا آل أبي بكر! فاغتاظ الناظر، فأنشد قطنبة:

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر      بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر  
لهم منهم داع كتيس معمم      وحسبك من تيس تولى على بكر  
ومن نحسهم لا أكثر الله منهم      يسبوا أبا بكر ولم يشتهوا عمر  
فخذ ما لهم لا تحتشي من ما لهم      فإن مال الكافرين إلى سقر<sup>(٢)</sup>

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه من قبل في سنة ٦٩٧هـ، ادعى هذا الدعي لمن استجاب له أنه يتحمل عنها لصلاة، فقبل كلامه، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض أهل بلدته من قصيدة أنشدها:

ارجع ستلقى بعدها الأهوالا      لا عشت تبلغ عندنا أمالا  
يا من تجمع فيه كل نقيصة      فلاضربن بسيرك الأمثالا  
وزعمت أنك للتكلف حامل      وكذا الحمار يحمل الأثقالا<sup>(٣)</sup>

ويقول الإدفوي أيضاً عن الشيخ بهاء الدين القفطي المتوفى سنة ٦٩٧هـ: «وفتح إسنا فإنه كان بها التشيع فاشياً، فما زال يجتهد في إخماده، وإقامة الدلائل على بطلانه، وصنف في ذلك كتاباً سماه «النصائح المفترضة في فضائح الرفضة»، وهموا بقتله فحماه الله منهم»<sup>(٤)</sup>. ويذكر عن عبد القادر بن مهذب

(١) الطالع السعيد: ص ٣١.

(٢) المصدر نفسه: ص ١١٨.

(٣) الطالع السعيد: ص ١٩٧.

(٤) المصدر نفسه: ص ٣٩٧.

الإدفوي المتوفى سنة ٧٢٥هـ أنه كان إسماعيلي المذهب، مشتغلاً بكتاب دعائم الإسلام<sup>(١)</sup>. معنى ذلك أن التشيع لم يقتلع من مصر بزوال دولة الفاطميين، ووجود حكومات سنية متعصبة لمذهبيها، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول: إن المصريين الآن لا يزالون متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ ألف عام تقريباً، فأهل السفه من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا: يا عمر! وهذا بقية من بقايا سب السلف الصالح في العصر الفاطمي، وأهل مصر إلى الآن إذا زاروا ضريح «السيدة زينب» وضعوا نماذج لسفن على الضريح، وهذا أثر آخر من تأثير العقائد الفاطمية الآن في المصريين، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تركها غرق». ولا يزال المصريون إلى اليوم يلتمسون البركة والشفاعة من أهل البيت، ويطوفون بأضرحتهم لقضاء الحاجات! على نحو ما كان يفعل في أيام الفاطميين، والمصريون إلى اليوم يذكرون علياً والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون أبا بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار. ومن ناحية أخرى نرى المصريين اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون، وإن كنا نخالفهم في أننا الآن نأخذ برؤية البصر، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار. ولا نزال إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين، مثل أيام عاشوراء التي اتخذناها فرحاً، وكانت في أيام الفاطميين أيام حزن، ونحتفل بليلة نصف شعبان، وليلة السابع والعشرين من رجب، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمي، ونرى الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع التشيع الذي كان في العصر الفاطمي.

وإذن فمصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع الذي نشره الفاطميون.

وبعد، فهذا الكتاب الذي نقدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية والعلمية في مصر الفاطمية، ولا أدعي أنها صورة كاملة صحيحة؛ لأن آثار الفاطميين الأدبية والعلمية فُقدت، ولم يَبْقَ منها إلا النزر اليسير، وهو الذي اعتمدت عليه في هذا البحث، ولعلي وُفقْتُ.